المهدي العباسي

ثالث الخلفاء العباسيين

بقلم

الدكتور علي حسني الخربوطلي

توزيع

مكتبة مصر

٣ شارع كامل صدقي - الفجالة - القاهرة

تليفون : ٩٠٨٩٢٠ — ٩٠٥١٤٧

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

هذه هى أول دراسة تاريخية لسيرة علم من أبرز أعلام العرب ، وهو محمد المهدى ثالث الخلفاء العباسيين .

اعتاد المؤرخون والكتّاب أن يعتبروا هارون الرشيد أعظم الخلفاء العباسيين . وقد تولى الرشيد بعد وفاة أبيه المهدى بسنة وثلاثة أشهر ، اذ لم تطل خلافة أخيه موسى الهادى . ولذا فنحن نعتبر عهد الرشيد امتدادا لعهد أبيه المهدى ، فقد ورث الرشيد دولة راسخة الأسس ، عظيمة المهابة ، كثيرة الأموال ، فأكمل رسالة أبيه ، وجنى ثمار جهوده . وكانت جهود المهدى واصلاحاته هى التى دفعت بالدولة العباسية الى ذروة المجد فى عهد الرشيد . وقد ذاع صيت الرشيد لما حفل به عهده من أحداث ، وخاصة نكبة البرامكة التى أصبحت مصدرا لكثير من القصص والروايات . كما اشتهر الرشيد لأنه كان محورا لمعظم قصص ألف ليلة التى أقبل الناس على قراءتها فى الشرق والغرب ، مما جعل الرشيد يبرز على سائر الخلفاء العباسيين العظماء .

والمهدى هو ابن الخليفة أبى جعفر المنصور ، ثانى الخلفاء العباسيين ، والمؤسس الحقيقى للدولة العباسية ، اذ لم تطل خلافة أبى العباس . أمَّا أم المهدى ، فتنتسب الى العرب اليمنيين الحميريين الذين أقاموا الدولة الحميرية وكان عهدها من أزهى عصور اليمن . واهتم المنصور بأن ينشأ ابنه المهدى نشأة اسلامية عربية ، فقد كان يُعدُّه ليكون ولىَّ عهده وثالث الخلفاء العباسيين ، فاختار له المفضل الضبى ليكون له أستاذا ورائدا ، فجمع المفضل له من أمثال العرب ودرر شعرهم ، وأطلعه على أمجاد العرب ، فاتسع أفقه ، ونضج عقله ، وانطلق لسانه ، وأصبح المهدى من الشعراء المجيدين ، والخطباء الفصحاء . كما حرص المنصور على أن يبث فى المهدى مكارم الأخلاق ، وأنبل السجايا ، فكان يتوجه اليه دائما بنصائحه ، لينير أمامه الطريق الى خلافة رشيدة .

وعمل المنصور على أن يشارك المهدى فى مجريات الأحداث السياسية والحربية فى الدولة العباسية . فولاَّه وهو فى الخامسة عشرة من عمره قيادة الجيش الذى وجهه الى خراسان لاخماد بعض الثورات ، ثم أمره بغزو طبرستان ، ثم عهد اليه بحكم خراسان . واشترك المهدى مع أبيه المنصور فى بناء الحاضرة العباسية الجديدة بغداد . حتى اذا أتم المهدى ٢١ سنة من عمره (سنة ١٤٧ هـ) ، أخذ المنصور له البيعة بولاية العهد . ثم عهد المنصور الى ولى عهده باخماد الثورات فى سجستان ، وبنى له

ولجنده المنتصرين مدينة الرصافة . ثم ولاّه امارة الحج فى سنة ١٥٣ هـ .

حتى اذا مات المنصور فى سنة ١٥٨ هـ ، تولى المهدى الخلافة ، وبدأت الدولة العباسية تدخل فى مرحلة جديدة متميِّزة . فتُعتبر خلافة المهدى مرحلة انتقال بين عهد الشدّة والقمع الذى ساد عهد الخليفتين الأولين ، وعهد الاعتدال واللين الذى امتازت به أيام من أتى بعده من خلفاء . فقد انشغل الخليفتان الأولان بهدم بقايا الدولة الأموية لاقامة دولة جديدة ، حتى اذا تولى المهدى كانت الخلافة العباسية قد توطدت ، وتخلصت من أعدائها ، فبدأت مرحلة من الهدوء والاستقرار والرخاء .

أجمع المؤرخون ، بدون استثناء ، على وصف سياسة المهدى بالرشد والنضوج والكمال ، وامتدحوا تدينه ، وأخلاقه وعدله ، واعتبروا عصره من العصور الزاهرة . وصف المؤرخ المسعودى المهدى ، فقال : « وكان المهدى محبَّبا الى الخاص والعام ، لأنه افتتح أمره بالنظر فى المظالم ، والكف عن القتل ، وأمن الخائف ، وانصاف المظلوم ، وبسط يده فى الاعطاء » . وقال ابن طباطبا : « كان المهدى شهما فطنا كريما ، شديدا على أهل الالحاد والزندقة ، لا تأخذه فى اهلاكهم لومة لائم » . وتحدّث المؤرخ السيوطى عن المهدى فقال : « كان جوادا ممدّحا ، مليح الشكل ، محببا الى الرعية ، حسن الاعتقاد ، تتبع الزنادقة ، وأفنى منهم خلقا كثيرا ، وهو أول من أمر بتصنيف

كتب الجدل فى الرد على الزنادقة والملحدين » . وقال الذهبى : « وما علمت قيل فيه جرحا ولا تعديلا » .

عمل المهدى على تدعيم الدولة العباسية . وقد ورث المهدى عن أبيه المنصور دولة عظمى ، تتمتع بالرخاء والحضارة الزاهرة ، ويسودها الأمن والهدوء والاستقرار ، ويحكمها رجالات اشتهروا بالعدل والكفاءة . فكان على المهدى أن يمضى فى نفس الطريق الذى مهّده أبوه له ، ونجح المهدى فى توطيد أسس الدولة العباسية ، فزادت مجدا وعظمة ورخاء ، وأصبح جديرا بأن يكون ثالث الخلفاء العباسيين .

واهتم المهدى بأن يسود الأمن والطمأنينة فى أرجاء الدولة العباسية ، ووفّر العدل لجميع رعاياه . وأدرك المهدى أن أباه المنصور قد تولى الخلافة فى فترة قلقة ، ولذا امتلأت سجونه بخصومه السياسيين . ورأى المهدى أن يبدأ عهده بالتسامح والعفو ، فأطلق سراح المسجونين السياسيين ، وردّ الأموال التى صادرها أبوه الى أصحابها ، وكان المهدى أول الخلفاء الذين جلسوا للنظر فى مظالم رعاياه .

اشتهر المهدى بالعدل ، والتقوى والورع ، والتسامح ، والعفو عن أعدائه ، والحياء ، والحلم ، والكرم والجود ، وحب الاصلاح والعمران ، وابتعد عن الظلم والغدر واللهو والمجون . وهى صفات قلّما اجتمعت فى خليفة من الخلفاء . وكان المهدى يباشر شئون الدولة بنفسه ، دون أن يدع الفرصة لوزرائه أو ولاته ليستبدوا بالسلطة ، وكان يدقق فى اختيارهم ، وبعث

الأمناء لمراقبه أعمال الولاة . وكان المهدى ديموقراطيا ، يستشير رجالات الدولة وذوى الخبرة فى مهام الأمور .

أبدى المهدى اهتمـــاما ببلاد الحجاز ، فهى المهد الأول للاسلام ، وكانت الدولة الأموية قد أهملت شئون الحجاز وضيّقت على أهلها . كما اهتم المهدي أيضـــا ببلاد الشام موطن الدولة الأموية ، ليثبت للجميع أن الخليفة يسوّى فى اهتمامه بين جميع ولايات الدولة . وركن الحزب العلوى فى عهده الى الهدوء ، مطمئنا الى عدله وتسامحه وكرمه .

أغفلت الدولة الأموية تنظيم العلاقات بين العرب المسلمين ، وشعوب البلاد التى فتحها المسلمون ، مما أدى الى صراع عنيف بين العناصر غير العربية والأمويين ، والى ظهور الشعوبية ، وانضم الموالى الفرس الى كل ثائر على الدولة الأموية مما أدى الى سقوطها . وعمل الخليفة المهدى على أن يحفظ التوازن بين العناصر العربية والعناصر الفارسية ، واســتفاد من هذه العناصر كلها فى تدعيم الدولة العباسية ، وأمسك بيده ميزان القوى .

تميّز العصر العباسى بظهور حركات خطيرة ، هى حركات الزنادقة ، التى ظهرت فى شكل سلسلة طويلة ذات حلقات متتالية مترابطة ، وكان من نصيب عهد المهدى حلقة من هذه الحلقات . واعتبر الخلفاء العباســيون الزنادقة خارجين على الاسلام ، وعلى الدولة ، ونظمها الســياسية والاجتماعية . ووقف المهدى من الزنادقة موقفا حاسما ، فأخمد ثوراتهم ،

وأنشأ ديوان الزنادقة لمقاومتهم ، وألّف هيئة علمية لمناظرتهم ، وأمر بتأليف الكتب التى تنقض تعاليم الزنادقة وتبيّن فسادها .

واهتم المهدى بالسياسة الخارجية . فاستقرت الأوضاع السياسية فى بلاد المغرب طوال خلافته ، بينما حفلت تلك البلاد بالاضطرابات فى عهد أسلافه وخلفائه . وشعر الأمير الأموى بالأندلس ، الذى أعلن استقلاله عن العباسيين ، بقوة المهدى ، فلم يتخذ عداؤه للخلافة العباسية شكلا ايجابيا حربيا . وتوثقت صلات المهدى بدولة الفرنجة . وبعث المهدى بجيوشه لغزو أراضى الدولة البيزنطية ، وتعدد انتصارات العرب المسلمين ، واضطر البيزنطيون الى طلب الصلح ، وتعهدوا بدفع جزية سنوية . وبعث المهدى أيضا بجيوشه لغزو بلاد الهند .

ويجمع المؤرخون على أن الخليفة المهدى كان من أكثر الخلفاء تدينا وتمسكا بتعاليم الاسلام الرشيدة ، واهتم المهدى بالأماكن المقدسة فى الحجاز ، وبشئون الحج ، وحرص على احياء السنة النبوية ، وزاد فى المسجد الحرام ، واستن سنة كسوة الكعبة بكسوة جديدة فى كل عام ، وكان المهدى من رواة الأحاديث النبوية .

واشتهر المهدى باقباله على العلم ، وتشجيع العلماء ، وأصبحت بغداد فى عهده قبلة الأدباء والشعراء والفقهاء وطلاّب العلم . وكان المهدى شاعرا مجيدا ، فأغدق على الشعراء الصلات

والعطايا . وشمل اهتمامه الموسيقى والغناء وسائر الفنون الجميلة .

ورغم هذه العظمة ، وتلك الأمجاد ، التى تجلت واضحة فى عصر المهدى ، فانه لم يخصص مؤرخ أو كاتب ، كتابا لدراسة سيرة هذا الخليفة العربى العظيم . ولذا رأينا أن نفى للمهدى بحقه علينا كمشتغلين بتاريخ العرب والمسلمين . وأرجو أن يكون التوفيق قد حالفنى فى دراستى هذه لسيرته وتاريخ عصره الزاهر ، والله ولى التوفيق .

المؤلف

ولى العهد

سقطت الدولة الأموية سنة ١٣٢ هـ ، حين نجح الجيش العباسى بقيادة أبى مسلم الخراسانى فى هزيمة الجيش الأموى فى موقعة الزاب فى بلاد العراق ، وتتبع أبو مسلم آخر الخلفاء الأمويين مروان بن محمد الى بلاد الشام ، ومنها الى مصر ، حيث نجح فى قتله قرب مدينة الفيوم .

وبدأ عهد الدولة العباسية فى ذى الحجة من سنة ١٣٢ هـ ، واستمرت هذه الدولة العظيمة قائمة أكثر من خمسة قرون ، حتى سقطت سنة ٦٥٦ هـ (١٢٥٨ م) ، حين اجتاح بغداد القائد المغولى هولاكو ، فقتل آخر الخلفاء العباسيين ، وأسقط هذه الدولة الزاهرة ، التى وصفها المؤرخ ابن طباطبا [١] بهذه العبارات : « كانت دولة كثيرة المحاسن ، جمة المكارم ، أسواق العلوم فيها قائمة ، وبضائع الآداب فيها نافقة ، وشعائر الدين فيها معظمة ، والخيرات فيها دارّة ، والدنيا عامرة ، والحرمات مرعية ، والثغور محصّنة » . وهذه الدولة العباسية هى التى كان المهدى ثالث خلفائها .

---

(١) الفخرى ، ص ١٢٥

المهدى فى طفولته :

الخليفة المهدى ، هو محمد بن أبى جعفر المنصور بن محمد ابن علي بن عبد الله بن العباس بن عبد المطلب ، فهو سليل الأسرة العباسية الهاشمية ، والبيت الهاشمى هو بيت الرسول صلى الله عليه وسلم . وأبوه المنصور ثانى الخلفاء العباسيين ، ويعتبره المؤرخون المؤسس الحقيقى للدولة العباسية ، بالرغم من أنه لم يكن أول الخلفاء العباسيين . فقد سبقه الى الخلافة أخوه أبو العباس . وقد تعاون الأخوان على نشر الدعوة العباسية وتنظيمها ، وتكوين قوة عسكرية نجحت فى اسقاط الدولة الأموية . وتولى أبو العباس الخلافة قبل أخيه أبى جعفر ، بالرغم من أنه كان أصغر منه سنا ، لأن أم أبى العباس كانت عربية ، بينما أم المنصور كانت (أم ولد) .

نشأ المنصور بين كبار شخصيات البيت الهاشمى ، وهو بيت الرسول صلى الله عليه وسلم ، واشتهر بالفصاحة والبلاغة ، والالمام بتواريخ الأسلاف . وكان المنصور ساعد أخيه أبى العباس الأيمن فى ادارة دفة الدولة ، ونجح فى توطيد دعائم الدولة العباسية الوليدة ، وكانت تتهددها أخطار كثيرة ، من ثورات قامت فى بلاد الشام موطن الدولة الأموية ، الى تذمر أهل خراسان لمقتل زعيمهم أبى مسلم الخراسانى ، الى ثورات العلويين فى بلاد الحجاز والعراق ، الى حركات الزنادقة المخالفة لتعاليم الاسلام . وأبدى المنصور شجاعة وحزما ، ونجح فى القضاء على هذه الثورات المختلفة ، والتخلص من هذه الأخطار

المتعددة . كما قام المنصور ببناء مدينة بغداد التى أصبحت عاصمة الدولة العباسية ، ومركزا من مراكز الحضارة فى العالم وقتئذ ، وما زالت بغداد قائمة حتى اليوم رمزا لحضارة العرب .

وهكذا ينتمى المهدى من ناحية أبيه الى العباس بن عبد المطلب عم الرسول ، والعباسيون هم فرع من فرعى البيت الهاشمى ، بيت الرسول عليه الصلاة والسلام ، أما الفرع الآخر فهو الفرع العلوى ، سلالة على بن أبى طالب رضى الله عنه ، فالمهدى عباسى هاشمى قرشى .

أمّا أم المهدى ، فهى أروى بنت منصور بن عبد الله بن ذى سهم بن أبى سرح ، وقد اشتهر أخوها يزيد بن منصور الحميرى ، وينتهى نسبهما الى ذى رعين من ملوك الدولة الحميرية اليمنية [1] .

وهكذا كان المهدى ينتمى من ناحية أبيه الى قبيلة قريش العربية ، أشرف القبائل العربية ، وكانت لها السيادة فى مكة قبل الاسلام ، فتولت الزعامة السياسية ، كما كان لها الرئاسة الروحية ، باعتبارها القبيلة التى تشرف على الكعبة المقدسة وتتولى شئون الحج ، كما برزت قريش فى الميادين الاقتصادية وخاصة فى التجارة ، فكانت قوافلها تجوب دول العالم القديم ، وظهر من بين القرشيين شخصيّات مستنيرة ، فقد بعدت قريش عن الطابع البدوى ، فتحضّرت وسكنت المدن ، واقتبست

---

(١) المسعودى : مروج الذهب ج ٣ ، ص ٣١٩

ألوانا من الحضارات العـالمية . وزادت قريش مجدا وعظمة اذ نزلت الرسالة السماوية على أحد أبنائها ، وهو محمد صلى الله عليه وسلم .

أمّا أم المهدى ، فتنتمى الى العرب اليمنيين . وكانت بلاد اليمن قبل الاسلام أكثر أرجاء الجزيرة العربية حضارة ، نتيجة وفرة أمطارها وخصوبة أرضها ، وقامت فيها دول متحضرة ، آخرها الدولة الحميرية التىوصل نفوذها السياسى الىمنطقة بحر قزوين شمالا ، حيث أنشأ أحد ملوكها مدينة (سمرقند) ، وكافحت الأطماع الحبشية والرومانية والفارسية فى بلاد اليمن .

ولد محمد المهدى سنة ١٢٦ هـ بالحميمة من أرض الشراة ، أى أن مولده كان قبل قيام الدولة العباسية بست سنوات . والحميمة هى المدينة التى اتخذها الأئمة العباسيون منذ خلافة عمر بن عبد العزيز مقـاما ، يشرفون منها على نشر الدعـوة العباسية ، ويبعثون منها دعاتهم ونقباءهم ، الى أرجاء العالم الاسـلامى لنشر هذه الدعوة . وقد وُلد المنصـور أيضا فى الحميمة .

قضى المهدى سنواته الأولى فى مدينة الحميمة ، ثم صحب أباه والأسرة العباسية فى صـفر سنة ١٣٢ هـ الى مدينة الكوفة ببلاد العراق ، واستتروا جميعا فيها بضعة أسابيع ، حتى نجح أبو مسلم الخراسانى فى القضاء على الدولة العباسية ، فتوافدت عليهم أنصـارهم ، يزفون اليهم نبـأ نهاية الدولة الأموية ، ويعلمونهم أنه قد آن الأوان لتولى بنى العباس الخلافة . وتمت

البيعة لأبى العباس ــ عم المهدى ــ بالخلافة ، وكان المهدى حينئذ فى السادسة من عمره .

وبعد تولية أبى العباس الخلافة ، رحل هو وأسرته ــ وفيهم المهدى ــ من الكوفة الى الأنبار ، غربى نهر الفرات ، وهى مدينة قديمة كان قد أنشأها أحد ملوك الفرس وهو سابق بن هرمز ، فجدد أبو العباس بناءها ، وابتنى بها قصراً للخلافة ، وأصبح اسم هذه المدينة (الهاشمية) نسبة الى البيت الهاشمى . وبنى المنصور قصراً فخما أقام فيه هو وأسرته .

المهدى فى بيت المنصور :

حكم أبو العباس ، أول الخلفاء العباسيين ، أربع سنين وتسعة أشهر ، ومات فى مدينة الأنبار فى ذى الحجة سنة ١٣٦ هـ ، وهو فى ريعان شبابه . فخلفه أخوه أبو جعفر المنصور . وكان المهدى حينئذ فى العاشرة من عمره . وقد وصف المؤرخ المسعودى [1] المنصور فقال : « وكان المنصور من الحزم وصواب الرأى وحسن السياسة على ما تجاوز كل وصف ، وكان يعطى الجزيل والخطير ما كان عطاؤه حزما ، ويمنع الحقير اليسير ما كان اعطاؤه تضييعا » [1] ووصفه المؤرخ ابن طباطبا [2] فقال : « كان المنصور من عظماء الملوك وحزمائهم ، وعقلائهم وعلمائهم ، وذوى الآراء الصائبة منهم ، والتدبيرات السديدة ، وقورا

---

(١) مروج الذهب ، جـ ٣ ، ص ٣١٨

(٢) الفخرى ، ص ١٤١

شديد الوقار ، حسن الخلق فى الخلوة ، من أشد الناس احتمالا لما يكون من عبث أو مزاج » .

هذه هى أخلاق المنصور ، وقد ورثها المهدى عن أبيه . والأب هو المدرسة الأولى التى يتلقن فيها المرء دروسه الأولى فى الحياة ، ويكتسب طباعه وسجاياه . وقد اشتهر بلاط المنصور بالجد والوقار ، فلم يُعرف عنه ميل الى لهو أو عبث . وكانت دار المنصور ، حيث نشأ المهدى ، مثالا للهدوء والاحتشام . فذكر المؤرخ ابن طباطبا [1] : « ولم يكن يُرى فى دار المنصور لهو ولعب ، أو ما يشبه اللهو واللعب » . فلا عجب أن نشأ المهدى على التقوى والورع ومكارم الأخلاق .

يروى المؤرخون أن المنصور عاد يوما الى داره ، فسمع صوت ضوضاء وجلبة ، فسأل أحد أتباعه ، وهو حمّاد التركى : ما هذا يا حماد ؟ انظر ! . وقصد حماد المكان الذى تصدر منه هذه الجلبة ، فوجد خادما قد جلس بين الجوارى يعزف لهن على الآلة الموسيقية المعروفة بالطنبور ، وهن يضحكن ، فمشى رويداً رويداً حتى أشرف عليهن ، فلما رأينه تفرقن . فأمر المنصور تابعه حماد بأن يضرب رأس الخادم بالطنبور ، فلم يزل يضرب رأسه حتى كسره ، ثم أخرجه المنصور من قصره .

شهد المهدى أباه المنصور يقضى يومه فى النظر فى شئون الدولة ، ويعمل على تحقيق العدل ، ورعاية مصالح الناس .

---

(١) الفخرى ، ص ١٤٢

واحتذى حذو أبيه ، فكان المهدى يقضى فى أمور الدولة دون الاعتماد على وزرائه ، ويجلس للمظالم ، واشتهر برد الحقوق المسلوبة .

كان المنصور ينظر فى شئون الدولة منذ الصباح حتى صلاة العصر ، فيدخل داره للراحة . حتى اذا صلى العشاء نظر فى الرسائل التى ترد اليه من الولايات المختلفة ، ويباحث وزراءه ومستشاريه ، حتى اذا انقضى ثلث الليل الأول قام الى فراشه فنام الثلث الثانى ، ثم يقوم من فراشه ، فيتوضأ ويجلس فى محرابه حتى مطلع الفجر ، ثم يخرج فيصلّى بالناس ، ثم يدخل فيجلس فى ايوانه ، ثم يعود الى استئناف عمله مرة أخرى [١] .

نشأة عربيــة :

اهتم المنصور بأن ينشأ ابنه المهدى نشأة عربيّة ، فقد كان يُعدّه ليكون ولى عهده ، وثالث الخلفاء العباسيين . فيجدد أمجاد البيت الهاشمى خاصة ، وأمجاد قريش أعظم القبائل العربية عامة . وكان المهدى يجمع بين أعـــرق الدماء العربية ، فأبوه سليل العباس بن عبد المطلب عمّ الرسول صلى الله عليه وسلم ، وينتهى نسبهم جميعا الى اسماعيـــل بن ابراهيم جدّ العرب الأكبر . أمّا الأم ، فهى ــ كما مرّ بنا ــ سليلة العرب الحميريين اليمنيين ، الأصلاء فى العـــروبة ، حتى أن المؤرخين يسمونهم (العرب العاربة) .

---

(١) الطبرى جـ ٦ ص ٣٢٢

قامت الدولة العباسية على أكتاف العناصر الفارسية التى اعتنقت الاسلام . واعترف الخلفاء العباسيون بفضل الفرس ، فنقلوا حاضرة الدولة من بلاد الشام الى بلاد العراق ، وردّوا الى الفــرس حقوقهم المسلوبة ، وولوهم المنــاصب الكبرى والوظائف العامة وكانوا محرومين من توليتها فى العصر الأموى ، واحتفلوا بالأعياد الفارســية الى جانب الأعياد الاســلامية والعربية ، واقتبسوا بعض ألوان الحضارة الفارسية ، فى العمارة والفنون ونظم الادارة .

ولكن ، ورغم تقريب الخلفاء العباسيين للفرس ، فانهم لم يتخلوا عن عروبتهم ، واعتزازهم بقوميتهم العربية ، فقد كانوا يعتبرون أنهم فى نهجهم لهذه السياسة انما ينصفون طبقة كبيرة العدد لها مركزها فى المجتمع الاسلامى ، ويردون لها حقوقها المهضومة ، ويعترفون لها بالجميل .

ولذا لم يلق الخلفاء العباسيون بأنفسهم فى أحضان الفرس ، ولم يتخلوا عن العناصر العربية ، ولم يسيروا مع الفرس الى آخر الطريق . فقد كان الخلفاء العباسيون اذا شعروا أن النفوذ الفارسى قد استفحل وتخطى الحدود التى رسموها ، تدخلوا فى الأمر ، وحالوا دون تطور الأحداث لصالح الفرس ، مما يهدد سلامة الدولة العباسية ، أو يثير مشاعر العرب . ولذا عمل الخلفاء العباسيون على حفظ التوازن بين طبقات المجتمع ، وقد أثبت تاريخ الخلفاء العباسيين هذه الحقائق .

تمسك المنصور بتعاليم الاســلام وبالتقاليد العربية ، فى

سجاياه ، وتصرفاته ، وحياته الخاصة . وكان فصيحا بليغا وخطيبا مفوها ، ولذا أراد أن يكون ابنه المهدى صورة منه .

اهتم المنصور بتثقيف ابنه المهدى ثقافة اسلامية عربية ، فحفظ المهدى فى سنواته الأولى القرآن الكريم ، ودرس السُّنة النبوية ، الى جانب تعلّمه القراءة والكتابة والحساب ، والفروسية والضرب بالسيف والرمى بالسهام ، وهو ما اعتاد أن يتعلمه أقرانه من أبناء وجوه القوم .

حتى اذا أصبح المهدى غلاما ، اختار له أبوه المنصور المفضل الضبِّى ليكون أستاذا ورائدا له ، فجمع المفضل له أمثال العرب ودرر شعرهم ، وأطلعه على أيام العرب وأمجادهم السالفة ، فاتسع أفقه ، ونضج عقله ، وانطلق لسانه ، وأصبح المهدى من الشعراء المجيدين ، والخطباء الفصحاء . ووصف المؤرخ ابن طباطبا [1] المهدى ، فقال عنه أنه كان « ذكيا فصيحا ، بعيد الهمة ، سديد الرأى ، ثاقب الفكر ، قوى البيان ، فصيح اللسان ، عالما بضروب السياسة وفنونها » .

وكان المنصور يحث المهدى على طلب العلم فيقول له : يا أبا عبد الله لا تجلس مجلسا الا ومعك من أهل العلم من يحدثك [2] .

ونال المهدى فى حداثته رضا أبيه المنصور واعجابه ، فكان اذا دخل على أبيه فى مجلسه أتبعه ببصره لحبّه له ، واعجابه به .

---

(١) الفخرى ص ٦١

(٢) الطبرى جـ ٦ ص ٣١٧

وكان المنصور ينتهز كل فرصة فيتوجه الى ابنه المهدى بنصائحه وارشاداته ، ويرسم له طريق المستقبل السعيد الموفق .

يصوّر الطبرى [1] عطف المنصـــور على المهدى واهتمامه بتوجيهه ونصحه ، فيروى هذه القصة :

« ذكر واضح مولى المنصور قال : انى لواقف على رأس أبى جعفر يوما اذ دخل عليه المهدى وعليه قبّاء أسود جديد ، فسلّم وجلس . ثم قام منصرفا ، وأتبعه أبو جعفر ببصره لحبه له واعجابه به ، فلمّا توسط الرواق عثر بسيفه فتمزق سواده . فقام ومضى لوجهـــه غير مكترث لذلك ولا حافل به . فقال أبو جعفر : ردوا أبا عبد الله ـــ أى المهدى ـــ فرددناه اليه . فقال : يا أبا عبد الله أستقلالا للمواهب ، أم بطرا للنعمة ، أم قلة علم بموضع المصيبة ؟ كأنك جاهل بما لك وعليك ، وهذا الذى أنت فيه عطاء من الله ان شكرته عليه زادك ، فان عرفت موضع البلاء منه فيه عافاك . فقال المهدى : لا أعدمنا الله بقاءك يا أمير المؤمنين وارشادك ، والحمد لله على نعمه ، وأسأل الله الشكر على مواهبه والخلف الجميل برحمته » ثم انصرف .

وتحدث المؤرخ ابن طباطبا [2] عن حب المنصور لابنه المهدى فقال : « وكان المنصور من أشد الناس شغفا بابنه المهدى ، فكان اذا جَنَى أحد جناية أو أخذ من أحد مالا جعله فى بيت المال مفردا وكتب عليه اسم صاحبه ، فلما أدركته الوفاة قال

---

(١) الطبرى جـ ٦ ص ٣١٩

(٢) الفخرى ص ١٤٢

لابنه المهدى : يا بنى انى قد أفردت كل شىء أخذته من الناس على وجه الجناية والمصادرة ، وكتبت عليه أسماء أصحابه ، فاذا وليت أنت فأعده على أربابه ليدعو لك الناس وليحبوك » .

اشتهر الخليفة المنصور بالحرص على الأموال ، والاقتصاد فى النفقات ، فقد كان يميل الى الزهد والتقشف . فكان كما يذكر المؤرخون « يلبس الخشن ، وربما يرقع قميصه » . وباشر المنصور بنفسه بناء بغداد ، فكان يراقب العمَّال ويحاسبهم ، ولذا تم بناء بغداد بأقل النفقات .

وكان المنصور يميل الى الاعتـــدال فيما يمنحه من صلات وعطايا ، وأراد المنصور أن يحتذى ابنه المهدى حذوه فى تلك السجيَّة . ويروى الطبرى [1] فى ذلك قصة طريفة . فقد امتدح شاعر يدعى المؤمل بن أميل المهدى ، وهو ولى للعهد ، فى مدينة الرى فى خراسان ، فمنحه عشرين ألف درهم ، مكافأة له على مديحه . وكتب صاحب البريد الى المنصور فى بغداد ينقل اليه خبر هذه المنحة ، فكتب المنصور الى المهدى رسالة يعاتبه فيها ويلومه لاسرافه ، وجاء فى هذه الرسالة : « انما كان ينبغى لك أن تعطى الشاعر بعد أن يقيم ببابك سنة أربعة آلاف درهم » . كما بعث المنصور برسالة أخرى الى كاتب المهدى يطلب منه أن يبعث اليه بهذا الشاعر . وبحث الكاتب عنه فوجده قد رحل الى بغداد ، فأعلم المنصور بذلك . فبعث المنصور بقائد من

---

(١) الطبرى جـ ٦ ص ٢٣٠

فواده ، فوقف على جسر النهروان يتصفح وجوه القادمين حتى رأى الشاعر ، فقبض عليه وذهب به الى المنصور ، فقال المنصور له : أتيت غلاماً غرّاً فخدعته ! ثم طلب من الشاعر أن ينشده الشعر الذى مدح به المهدى ، فأنشد قصيدته ، ونذكر منها هذه الأبيات :

هو المهـــدى الاّ أن فيـــه
مشابه صورة القمـــر المنير
تشـــابه ذا وذا فهمـــا اذا ما
أنارا مشكلان على البصير
فهـــذا فى الظلام سراج ليل
وهذا فى النهـــار سراج نور

حتى اذا انتهى الشاعر من قصيدته ، قال المنصور له : والله لقد أحسنت ، ولكن هذا لا يساوى عشرين ألف درهم . ثم طالبه المنصور برد الدراهم فردها ، فأعطاه المنصور منها أربعة آلاف درهم ، وأعاد الباقى الى بيت المال .

ولمّا تولى المهدى الخلافة ، عهد الى ابن ثوبان بالنظر فى المظالم ، فكان يجمع رقاع الشكاوى ويرفعهـــا الى الخليفة . وبين هذه الرقاع ، كانت رقعة تقدم بها هذا الشاعر يطالب فيها بدراهمه التى أخذها المنصور ، فضحك المهدى عند قراءة هذه الشكوى ، وأمر بمنح الشاعر عشرين ألف درهم [1] .

---

(١) الطبرى جـ ٦ ص ٣١٩

وقد تأثر المهدى بالكثير من أخلاق المنصور ، فكان متديناً متمسكا بتعاليم الاسلام ، فصيحا ، بليغا ، عادلا ، متسامحا ، مهتما بشئون رعيّته . ولكنه لم يكن مثله فى حرصه على الأموال ، بل اشتهر بالكرم والجود .

اعداد المهدى لولاية العهد :

أخذ أبو العباس ، أول الخلفاء العباسيين ، البيعة لولاية العهد لأخيه أبى جعفر المنصور ، ثم لعيسى بن موسى بن محمد العباسى من بعده . وقد ساهم عيسى بنصيب كبير فى اقامة الدولة العباسية ، ولذا رأى أبو العباس أن يجعل لعيسى نصيبا فى الخلافة ، مكافأة له على جهوده ، فيتولى الخلافة بعد أخيه المنصور . ولم يبد المنصور اعتراضا على ذلك طوال خلافة أبى العباس ، أو فى السنوات الأولى من خلافته .

ولكن يبدو أن المنصور لم يكن مقتنعا بجدارة عيسى بن موسى بأن يكون ولىّ عهده ، أو ربما دفعته عاطفته الأبوية الى التفكير فى خلع عيسى ، وتقديم ابنه المهدى عليه ، فيتولى ولاية العهد ، على أن يتبعه عيسى . ولكن المنصور لم يتسرع فى تنفيذ ما كان يدور فى خلده ، بل رأى أن يمهد ويعد له . ورأى أن ينمّى شخصية المهدى ، ويعدّه ليكون جديرا بتولى الخلافة فى هذه الدولة الاسلامية الكبرى .

ولذا حرص المنصور على أن ينشأ المهدى ـــ كما شهدنا ـــ نشأة اسلامية عربية ، فعهد الى المفضل الضبى ، أحد أعلام

عصره ، بتربيته وتثقيفه . كما حرص المنصور على أن يبث فى المهدى مكارم الأخلاق وأنبل السجايا . فكان يتوجه اليه دائما بنصائحه ، لينير أمامه الطريق الى الخلافة . وقد حفظ الطبرى [1] لنا كثيرا من عبارات النصح والارشاد التى وجهها المنصور الى المهدى ، نذكر بعضها . فقد قال المنصور يوماً للمهدى : يا أبا عبد الله لا يصلح السلطان الا بالتقوى ، ولا تصلح رعيَّته الا بالطاعة ، ولا تعمَّر البلاد بمثل العدل ، ولا تدوم نعمة السلطان وطاعته الا بالمال ، ولا تقدمُ فى الحياطة بمثــل نقل الأخبار ، وأقدر الناس على العفو أقدرهم على العقوبة ، وأعجز الناس من ظلم من هو دونه ، واعتبر عمل صاحبك وعلمه باختباره .

وسأل المنصور ابنه المهدى يوماً : كم راية عندك ؟ فقال المهدى : لا أدرى . فقال المنصور : هذا والله التضييع ، أنت لأمر الخلافة أشدّ تضييعا ، ولكن قد جمعتُ لك ما لا يضرّك معه ما ضيَّعت ، فاتق الله فيما خوَّلك .

وبدأ المنصور يعمل على أن يدخل المهدى ميدان الحياة العامة ، ويشارك فى مجريات الأحداث السياسية والحربية فى الدولة . ففى سنة ١٤١ هـ ، وحينما أتم المهدى الخامسة عشرة من عمره ، ولاّه أبو المنصــور قيادة الجيش الذى وجهه الى خراســان ، للقضاء على الفتنة التى أثارها عبد الرحمن بن

---

(١) الطبرى جـ ٦ ص ١٥٢

عبد الجبار الأزدى والى خراسان ، وولى المنصور الى جانبه قائدا من أكبر القواد العباسيين ، وهو خازم بن خُزيمة .

وكان عبد الرحمن بن عبد الجبار هذا قد أساء السيرة ، وقتل عددا كبيرا من رؤساء خراسان الموالين للدولة العباسية ، فتعالت أصوات الشكوى . وزحف المهدى بالجيش حتى نزل نيسابور ، ثم أنفذ قائده خازم على رأس فرقة من الجيش ، فتعاون مع أهل مرو على الحاق الهزيمة بابن عبد الجبار ، وحمله المهدى أسيرا الى المنصور ، حيث أمر بقتله .

ثم أمر المنصور ابنه المهـدى بأن يغزو طبرستان بنفس الجيش الذى خرج به لقتال ابن عبد الجبار ، للقضاء على ثورة الأصبهبذ والى طبرستان ، ونجح المهدى وقائده خازم بن خزيمة فى فتح طبرستان ، والتجأ الأصبهبذ الى قلعته ، وطلب الأمان على أن يسلّم القلعة بما فيها من ذخائره . فكتب المهدى بذلك الى أبيه ، فبعث المنصور ببعض عمّاله لاحصاء ما فى الحصن ، وخرج الأصبهبذ الى بلاد جيلان فى بلاد الديلم ، حيث مات [1].

وبعد هذه الانتصارات ، أقام المهدى فى خراسان حتى سنة ١٤٤ هـ ، ثم عاد مرة أخرى الى بلاد العراق ، والتقى به أبوه المنصور عند قرماسين ، ورحلا معا الى اقليم الجزيرة لمراقبـة ثغورها ، ثم عادا الى حاضرة الدولة . حتى اذا استقر المهدى فى العاصمة ، تزوج من ريطة بنت أبى العباس ، وهى ابنة عمه .

---

(١) الطبرى جـ ٦ ص ٣١٧

ونحن نرى أن انفاذ المنصور لابنه المهدى الى خراسان للقضاء على ثورة ابن عبد الجبار كان سياسة مرسومة ، لها أهدافها ومغزاها . فقد أراد المنصور أن يعتقد أهل خراسان أن المهدى هو منقذهم من ذلك الثائر الذى قتل وجوه الخراسانيين ، وألحق الأذى بأهل خراسان . وبلاد خراسان هى مهد الدعوة العباسية ، والخراسانيون هم عمد الخلافة العباسية. وقد أقام المهدى بعد قضائه على الثورة فترة فى خراسان ، نجح خلالها فى اكتساب محبة أهلها .

وفى سنة ١٤٥ هـ ، بدأ المنصور بناء العاصمة العباسية الجديدة ، بغداد . ووقف المنصور الى جانب أبيه يشاركه جهوده فى بناء هذه الحاضرة الكبيرة ، ويخفف عنه أعباءه . وكان المنصور يباشر البناء بنفسه ، ويتشدد فى محاسبة العمال والصنّاع ، فيقول لهذا : أنت نمت القائلة . ولهذا : أنت لم تبكر الى عملك . ولغيره : أنت انصرفت ولم تكمل اليوم .

تولية المهدى العهد :

فى سنة ١٤٧ هـ ، وحينما أتم المهدى ٢١ سنة من عمره ، أى بلغ سن الرشد ، رأى المنصور أنه قد حان الوقت لأخذ البيعة لابنه المهدى بولاية العهد بدلا من عيسى بن موسى . فقد اكتملت شخصية المهدى ، ونضج عقله ، وأثبت كفاءته فى ميادين الحرب والسياسة ، واكتسب اعجاب الناس ومحبتهم . وكان

المهدى قد اشتهر بأنه محمود السيرة ، كريم الأخلاق ، مما جعله جديراً بأن يسبق عيسى بن موسى الى الخلافة .

وكان المنصور ــ فى الحقيقة ــ طوال السنوات الماضية يكرّم عيسى بن موسى ، ويظهر له المودة والمحبة ، ويعتمد عليه فى مهام أمور الدولة . فكان عيسى يجلس دائما الى يمين الخليفة ، بينما يجلس المهدى على يساره .

ثم رأى المنصور أن يخرج مشروع تولية المهدى العهد الى حيز التنفيذ . ولم يشأ أن يحــرم عيسى بن موسى من تولى الخلافة الى الأبد ، بل رأى أن يأخذ البيعة للمهدى ثم لعيسى من بعده .

تحدث المنصور الى عيسى عن رغبته فى تقديم المهدى عليه فى ولاية العهد ، وصاغ رجاءه فى عبارات هادئة رقيقة . فقال عيسى : يا أمير المؤمنين ، فكيف بالايمان والمواثيق التى علىّ وعلى المسلمين لى من العتق والطــلاق وغير ذلك من مؤكد الايمان ، وليس الى ذلك سبيل يا أمير المؤمنين !

غضب المنصور وتغيّر لون وجهه ، وبدأ الجفاء بين الرجلين ، فكان المنصور يباعد عيسى ، وأصبح يأذن للمهدى بالدخول الى مجلسه قبله ، ويُجلِس المهدى الى يمينه ، حتى اذا دخل عيسى جلس الى جوار المهدى ، ورفض أن يجلس الى يسار الخليفة ، مما أثار غضب المنصور عليه . ثم أصبح المنصور يأذن لكثير من الناس بالدخول عليه قبل أن يأذن لعيسى . وكان عيسى

يكظم غيظه « فهو فى ذلك كله صامت لا يشكو منه شيئا ولا يستعتب »[1] .

وبدأ المنصور فى مضـايقة عيسى بن موسى ، علـّه يوافق على رغبته فى تقديم المهدى عليه فى ولاية العهد . فكان المنصور يتعمّد أن يهمل عيسى قبل أن يأذن له بالدخول عليه ، فيطول انتظاره . كما أمر بعض غلمانه أن يحفروا حائط الحجرة التى ينتظر عيسى فيها ، حتى كان التراب يغطى ملابسه ، فاذا دخل على المنصور ، قال المنصور له : يا عيسى ما يدخل علىّ أحد بمثل هيئتك من كثرة الغبار عليك والتراب ، أفكل هذا من الشارع ؟! فيجيب عيسى : أحسب ذلك يا أمير المؤمنين !

وفطن بعض الجند الى رغبة المنصور فى خلع عيسى من ولاية العهد ، ولمسوا تعمّده الاستهانة به ، فحذوا حذو الخليفة « فكانوا اذا رأوا عيسى راكبا أسمعوه ما كره »[2] . وتقدم عيسى الى المنصور بالشكوى ، فنهر الجند وقال لهم : لا تؤذوا ابن أخى فانه جلدة بين عينى ، ولو كنتُ تقدمت اليكم لضربت أعناقكم ! . فكان هؤلاء الجند يكفون ثم يعودون .

ثم بعث المنصور الى عيسى بن موسى برسالة طويلة يطلب فيها منه أن يقبل تقديم المهدى عليه فى ولاية العهد ، وذكر له أن ذلك من صالح الدولة العباسية التى تعاونوا جميعا من أجل اقامتها ، وتحقيقا لوحدة الأسرة العباسية ضد أعدائهم ، ووضّح

---

(١) الطبرى جـ ٦ ص ٢٧٢

(٢) الطبرى جـ ٦ ص ٢٧٥

له أن رفضه يؤدى الى الشقاق والانقسام والفتنة . وتحدث المنصور فى آخر رسالته عمّا بلغه المهدى من مجد ، وأشاد بحب الناس له ، وخاصة أهل خراسان ، فجاء فى ختام الرسالة :
« ... فأحب أمير المؤمنين أن يعلمك الذى اجتمع عليه رأى رعيته ، وكنت فى نفسه بمنزلة ولده ، يحب من ستركـ ورشدك ما يحب لنفسه وولده ، ويرى لك اذا بلغك من مال ابن عمك ما ترى من اجتماع الناس عليه ، أن يكون ابتداء ذلك من قبلك ، ليعلم أنصارنا من أهل خراسان وغيرهم ، أنك أسرع الى ما أحبوا مما عليه رأيهم فى صلاحهم منهم الى ذلك من أنفسهم ، وان ما كان عليه من فضل عرفوه للمهدى أو أمّلوه فيه كنت أحظى الناس بذلك وأسرهم به لمكانه وقرابته ، فاقبل نصح أمير المؤمنين لك تصلح وترشد » .

ورد عيسى بن موسى على رسالة المنصور برسالة شديدة اللهجة ، جاء فيها : « ... بلغنى كتابك تذكر فيه ما أجمعت عليه من خلاف الحق وركوب الاثم فى قطيعة الرحم ونقض ما أخذ الله عليه من الميثاق من العامة بالوفاء للخلافة والعهد لى من بعدكـ ، لتقطع بذلك ما وصل الله من حبله ، وتفرّق بين ما ألّفه الله جمعه ، وتجمع بين ما فرق الله أمره مكابرة لله فى سمائه وحولا على الله فى قضائه ومتابعة للشيطان فى هواه ، ومن كابر الله صرعه ، ومن نازعه قمعه ، ومن ماكره عن شىء خدعه ... » [1]

---

(1) الطبرى جـ ٦ ص ٢٧٧ — ٢٧٨

وعلم الجند برسالة عيسى الى المنصــور ، وما حوته من رفض عيسى تحقيق رغبة الخليفة ، فعادوا الى ما كانوا عليه من ايذاء له ، « فكانوا يأتون باب عيسى فيمنعون من يدخل اليه ، فإذا ركب مشــوا خلفه وقالوا : أنت البقــرة التى قال الله فذبحوها » [1] . وتوجه عيسى بالشكوى الى المنصور ، فقال المنصور : يا ابن أخى أنا والله أخافهم عليك وعلى نفسى ، قد أشربوا حب هذا الفتى ، فلو قدّمته بين يديك ، فيكون بينى وبينك ، لكفّوا !

ضاقت السبل أمام المنصور ، اذ أصرّ عيسى على ألا يقبل تقديم المهدى عليه فى ولاية العهد ، فطلب المنصور من خالد بن برمك أن يكون وسيطا له لدى عيسى ، ورأى خالد أن يلجأ الى الحيلة والدهاء ، فصحب ثلاثين رجلا من شيعة بنى العباس ، واتجهوا نحو دار عيسى ، وطالبوه بخلع نفسه ، فأصرّ على الرفض أيضا . وخرج خالد مع هؤلاء القوم الى المنصــور ، وزعموا أن عيسى قد وافق على خلع نفسه ، وشهد القوم على ذلك ، وقالوا : نشهد عليه أنه قد أجاب وليس له أن يرجع [2] . وأعلن المنصور البيعة للمهدى ثم لعيسى من بعده ، وكتب بذلك الى جميع ولايات الدولة العباسية . وشكر المنصور لخالد هذا المعروف ، وأصبح خالد دائما موضع تقدير المهدى .

---

(١) الطبرى جـ ٦ ص ٢٧٩

(٢) الطبرى جـ ٦ ص ٢٨٠

وتذكر بعض الروايات أن عيسى بن موسى خلع نفسه نتيجة الحاح المنصور ورجال دولته ، ولينجو بنفسه من ايذاء الجند واهاناتهم له . وتذكر روايات أخرى أن عيسى قبل التنازل عن حقه مقابل عشرة ملايين درهم يأخذها هو ، وثلاثمائة ألف درهم يأخذها أولاده ، وسبعمائة ألف درهم تأخذها زوجته [1] .

ويلخص الطبرى [2] هذه الروايات كلها فى رواية واحدة ، فيقول : « عن بعض صحابة أبى جعفر أنه قال : تذاكرنا أمر أبى جعفر المنصور وأمر عيسى بن موسى فى البيعة ، وخلعه اياها من عنقه ، وتقديمها المهدى ، فقال لى رجل من القواد سمَّاه : والله الذى لا اله غيره ، ما كان خلعه اياها منه الا برضاً من عيسى وركون منه الى الدراهم وقلة علمه بقدر الخلافة ، وطلبا للخروج منها أنى يوم خرج للخلع فخلع نفسه » .

وبعد البيعة للمهدى ، توجَّه المنصور له بالنصيحة والارشاد ، ورسم له السياسة الرشيدة التى ينتهجها فى حكم رعاياه ، مسلمهم وذميهم ، فحثه على الرأفة بهم ، والسهر على راحتهم ، وبسط العدل بينهم ، والتقرب الى الله بحسن السيرة ، واجلال أهل العلم والدين ، وعمارة الأرض بتخفيف الخراج ، ونشر الاسلام ، والجهاد فى سبيل اعلاء كلمته [3] .

---

(١) الطبرى ج ٦ ص ٢٨٣

(٢) المصدر السابق .

(٣) انظر تاريخ اليعقوبى ج ٢ ص ٤٧٢ وتاريخ الاسلام لحسن ابراهيم ج ٢ ص ٢٨

ومن نصائح المنصور لابنه المهدى بعد أن جعله ولى عهده :
يا أبا عبد الله ، استدم النعمة بالشكر والقدرة بالعفو والطاعة بالتألف والنصر بالتواضع ، ولا تنس مع نصيبك من الدنيا نصيبك من رحمة الله . كما قال المنصور للمهدى أيضا : لا تبرم أمرا حتى تفكر فيه ، فان فكر العاقل مرآته ، تريه حسنه وسيئه [1] .

دخل عمرو بن عبيد على المنصور بعد بيعته للمهدى ، فقال المنصور له : يا أبا عثمان ، هذا ابن أمير المؤمنين ، وولى عهد المسلمين . فقال له عمرو : يا أمير المؤمنين ، أراك قد وطدت له الأمور ، وهى تصير اليه ، وأنت عنه مسئول . فاستعبر المنصور وقال له : عظنى يا عمرو . فقال : يا أمير المؤمنين ، ان الله قد أعطاك الدنيا بأسرها ، فاشتر نفسك منه ببعضها ، وان هذا الذى أصبح فى يديك لو بقى فى يد غيرك لم يصل اليك ، فاحذر ليلة تمخض بيوم لا ليلة بعده [2] .

ومهما كان الدافع للمنصور على ما أقدم عليه من تقديم ابنه المهدى على ابن أخيه عيسى بن موسى فى ولاية العهد ، ومهما كانت الطريقة التى اتبعها فى الحصول على تنازل عيسى عن حقه فى أن يتقدم المهدى ، فاننا نلتمس العذر للمنصور فيما أقدم عليه .

---

(١) الطبرى جـ ٦ ص ٣١٦
(٢) المسعودى : مروج الذهب جـ ٣ ص ٣١٤

فقد كان المهدى حين ولاه المنصور شابا يتميز بصفات تؤهله للخلافة ، اكتمل له الدين والعلم والأخلاق والخبرة والدراية بالشئون السياسية والحربية ، وقد بلغ سن الرشد ومرحلة نضوج الشخصية . كما أثبت المهدى حين تولى الخلافة أنه كان جديرا بما وصل اليه ، وكانت سنوات خلافته عصر رخاء وهدوء واستقرار واصلاح ، وأجمع المؤرخون على امتداحه والثناء عليه . واذا وضعنا المهدى وعيسى فى كفتين ، كانت كفة المهدى هى الراجحة .

وأين المهدى من يزيد بن معاوية بن أبى سفيان الذى أخذ له معاوية البيعة من الناس بولاية العهد ، وتخطى به أبناء الصحابة الأجلاء ، أمثال الحسين بن على وعبد الله بن الزبير وعبد الله بن عمر بن الخطاب ، وعبد الله بن العباس بن عبد المطلب ، ومحمد بن على بن أبى طالب ، وغيرهم . وقد كان يزيد شابا عابثا ماجنا ، لا يصلح ــ كما أجمع المؤرخون ــ لتولى الخلافة . ولكن عاطفة الأبوة جعلت معاوية يقدّم ابنه يزيد على سائر أبناء الصحابة ، ويحوّل الخلافة من نظام الشورى الى نظام الوراثة .

خليفة المستقبل :

مضى المنصور فى سياسته التى خطها ، والتى ترمى الى اعداد المهدى ليكون خليفة المستقبل . فقد أخذ له البيعة من الناس بولاية العهد ، ونال ذلك قبولا وتأييدا من رعايا الدولة

العباسية . وحرص المنصور على أن يشترك المهدى فى القيام بأعباء الحكم ، ويساهم فى المصالح العامة للدولة .

ففى سنة ١٥٠ هـ ، أعلن أستاذ سيس الثورة فى أقاليم هراة وباذغيس وسجستان وغيرها من مناطق خراسان ، وبلغ عدد أتباعه ثلاثمائة ألف مقاتل ، ونجحوا فى السيطرة على خراسان ، وأنزلوا ألوانا من التنكيل بأهل مرو ، ونجحوا فى هزيمة عدد من قواد المنصور . فعهد المنصور الى ابنه المهدى وقائده المشهور خازم بن خزيمة بالقضاء على هذه الثورة الجامحة ، فخرجا فى جيش كبير تألف من ثلاثين ألف مقاتل .

نجح المهدى وخازم فى هزيمة أستاذ سيس ، وقتلوا أكثر من سبعين ألفا من رجاله ، وأسروا أربعة عشر ألفا ، وهرب أستاذ سيس الى جبل ومعه قليل من أتباعه ، ونجح المهدى وخازم فى القبض عليه ، وأوثقاه بالحديد [1] .

وفى سنة ١٥١ هـ عاد المهدى الى خراسان بعد هذه الانتصارات الحافلة ، فخرج المنصور الى لقائه ، وقدم على المنصور والمهدى عامة أهل البيت العباسى من الشام والكوفة والبصرة مهنئين ، فأنعم المنصور عليهم بالمال والكسوة ، كما منح المهدى كلاً منهم خمسمائة درهم [2] .

وأراد المنصور أن يكرم المهدى ، ويكافىء جنده على

---

(١) الطبرى جـ ٦ ص ٢٨٧ — ٢٨٨

(٢) الطبرى جـ ٦ ص ٢٩١ — ٢٩٢

استبسالهم فى قتال أستاذ سيس وقضائهم على ثورته الخطيرة .
فبنى لهم مدينة فى شرق بغداد سمّاها الرصافة « وعمل لها
سورا وخندقا وميدانا وبستانا ، وأجرى له الماء ، فكان يجرى
من نهر المهدى الى الرصافة »[1] .

وفى نفس السنة (١٥١ هـ) جدّد المنصور البيعة لنفسه
ولابنه محمد المهدى من بعده ، ولعيسى بن موسى من بعد
المهدى ، فأخذ البيعة من أهل البيت العباسى فى مجلسه فى يوم
جمعة « فكان كل من بايعه منهم يقبّل يده ويد المهدى ، ثم
يمسح على يد عيسى بن موسى ولا يقبّل يده »[2] .

حتى اذا قدمت سنة ١٥٣ هـ ، ولّى المنصور ابنه المهدى
امارة الحج ليرتفع ذكره بين الناس ، فخرج فى موكب عظيم
حافل ، والتقى فى مكة بالمسلمين الذين قدموا من جميع الولايات
العباسية للحج . وفى سنة ١٥٥ هـ عهد المنصور الى المهدى ببناء
مدينة جديدة هى (الرافقة) ، وأشرف المهدى على بنائها ،
وأنشأها على طراز مدينة بغداد .

وفى سنة ١٥٨ هـ أمر المنصور ابنه المهدى بالتوجه الى الرقة
وعزل موسى بن كعب والى الموصل ، وتولية يحيى بن خالد بن
برمك عليها . وكان الأكراد قد ثاروا فى الموصل ، وتكاسل
الوالى عن اخماد ثورتهم . ونصح العباسيون المنصور بتولية

---

(١) الطبرى ج ٦ ص ٢٩٢
(٢) الطبرى ج ٦ ص ٢٩٣

يحيى بن خالد بدلا من هذا الوالى . وقام المهدى بالمهمة التى عهد أبوه له بها خير قيام ، ثم عاد الى بغداد .

وفى سنة ١٥٨ هـ حانت منيَّة أبى جعفر المنصور ، فانتقل الى الرفيق الأعلى ، وتولى المهدى الخلافة ، فأصبح ثالث الخلفاء العباسيين ، وبدأت الدولة العباسية تدخل فى مرحلة جديدة متميِّزة .

الخليفة الجديد

وصايا المنصور للمهدى قبيل وفاته :

كان المنصور فى أواخر حياته يعانى من أمراض المعدة ، فقد كان يكثر من الطعام ، ولا يعمل بنصيحة الأطباء . وروى الطبرى [1] أن المنصور كان لا يستمرىء طعامه ، ويشكو ذلك الى الأطباء ، فيصفون له الأدوية التى تساعد على الهضم ، وينصحونه بالاعتدال فى طعامه ، ويقولون : لا يموت والله أبو جعفر أبدا الا بالبطن .

عزم المنصور على الخروج الى مكة للحج ، وشعر أنها قد تكون رحلته الأخيرة ، وأنه موشك على الوفاة . فأقام فى قصر عبدويه فى بغداد ، واستدعى اليه ابنه وولى عهده المهدى ليوصيه وينصحه ، « فأوصاه بالمال والسلطان ، يفعل ذلك كل يوم من أيام مقامه ، بالغداة والعشى ، لا يفتر عن ذلك » . حتى اذا حل يوم الرحيل ، دعا المنصور المهدى وعهد اليه بسفط فيه دفاتر علمه ، وأعطاه مفتاحه ، وقال له : انظر هذا السفط فاحتفظ به ، فان فيه علم آبائك ما كان ، وما هو كائن الى يوم القيامة ، فان أحزنك أمر فانظر فى الدفتر الأكبر ، فان أصبت

---

(١) الطبرى جـ ٦ ص ٣٠٧

فيه ما تريد والا فالثانى والثالث ... وانظر هذه المدينة فاياك أن تستبدل بها ، فانها بيتك وعزك قد جمعت لك فيهـــا من الأموال ، ما ان كسر عليك الخراج عشر سنين كان عندك كفاية لأرزاق الجند والنفقات وعطاء الذرية ومصلحة الثغور ، فاحتفظ بها ، فانك لا تزال عزيزا ما دام بيت مالك عامرا ... » .

واستمر المنصور يرسم للمهدى طريق المستقبل ، فقال : وأوصيك بأهل بيتك ، أن تظهر كرامتهم وتقـــدمهم وتكثر الاحسان اليهم وتعظم أمرهم وتوطىء الناس أعقابهم وتوليهم المنابر ، فان عزك عزهم وذكرهم لك ، وانظر مواليك فأحسن اليهم وقربهم واستكثر منهم فانهم مادتك لشدة ان نزلت بك ، وأوصيك بأهل خراسان خيرا ، فانهم أنصارك وشيعتك الذين بذلوا أموالهم فى دولتك ودماءهم دونك ومن لا تخرج محبتك من قلوبهم أن تحسن اليهم وتتجاوز عن مسيئهم وتكافئهم على ما كان منهم ... [1]

حتى اذا حانت ساعة الرحيل ، ووداع الأب لابنه ، وافضائه بوصيته الأخيرة له ، قال المنصور للمهدى : يا أبا عبد الله ، انى سائر وانى غير راجع ، فانا لله وانّا اليه راجعون ، فاسأل الله بركة ما أقدم عليه ، هذا كتاب وصيّتى مختوما ، فاذا بلغك أنى قد متّ وصار الأمر اليك فانظر فيه ، وعلىّ دين فأحب أن تقضيه وتضمنه ، فقال المهدى : هو علىّ يا أمير المؤمنين .

---

(١) الطبرى ج ٦ ص ٣٤٢ ـ ٣٤٣

فقال المنصور : فانه ثلاثمائة ألف درهم ونيف ولست أستحلها من بيت مال المسلمين فاضمنها عنى ، وما يفضى اليك من الأمر أعظم منها . قال المهدى : أفعل هو علىّ . فقال المنصور : وهذا القصر ليس هو لك ، هو لى ، وقصرى بنيته بمالى ، فأحب أن تصـــير نصيبك منه لاخوتك الأصـــاغر . قال المهدى : نعم . فقال المنصور : ورقيقى الخاصة هم لك فاجعلهم لهم فانك تصير الى ما يغنيك عنهم وبهم الى ذلك أعظم الحاجة . فقال المهدى : أفعل . واستمر المنصور فى وصيّته فقال : أما الضياع فلست أكلفك فيها هذا ولو فعلت كان أحبّ الىّ . فقال المهدى : أفعل . فقال المنصور : سلّم اليهم ما سألتك من هذا وأنت معهم فى الضـــياع والمتاع والثياب سلمه لهم . قال المهدى : أفعل . وختم المنصور وصيّته بقوله : أحسن الله عليك الخلافة ولك الصنيع ، اتق الله فيما خوّلك وفيما خلفتك عليه . [1]

واستدعى المنصور زوجته ريطة بنت أبى العباس ، وهى أم المهدى ، فأوصاها بما أراد وعهد اليها ، ودفع اليها مفاتيح الخزائن ، وأحلفها ووكد الايمان أن لا تفتح بعض تلك الخزائن ولا تطلع عليها أحدا الا المهدى ، وبعد وفاته ، حتى اذا مات ، اجتمعت هى والمهدى وليس معهما ثالث حتى يفتحا الخزانة [2] .

خرج المنصور من بغداد قاصـــدا مكة ، وكان الجو حارا فأصيب فى الطريق بضربة شمس ، ومرض ، وشعر أنه مرضه

---

(١) الطبرى ج ٦ ص ٣٤٣
(٢) الطبرى ج ٦ ص ٣٤٤

الأخير ، وأنه مفارق للحياة ، فاستدعى اليه حاجبه ومولاه الربيع بن يونس ، وعهد اليه بوصيته . حتى اذا وصل المنصور الى بئر ميمون ، وهى على بُعد ستة أميال من مكة ، توفى فى السحر أو مع طلوع الفجر ، ليلة السبت لست خلون من ذى الحجة سنة ١٥٨ هـ .

وفاة المنصور والبيعة للمهدى :

أدرك الربيع بن يونس حاجب المنصور ، خطورة الموقف بعد وفاة المنصور . فقد مات المنصور بعيدا عن حاضرة خلافته ، وكان المهدى حينئذ فى بغداد نائبا عن أبيه فى حكم الدولة . ودفعه اخلاصه للخليفة الراحل وولى عهده المهدى الى أن يتكتم نبأ وفاة المنصور حتى يأخذ البيعة للخليفة الجديد . فقد كان عيسى بن موسى لا يزال على قيد الحياة ، يترقب الفرص للوثوب الى الخلافة . ومنع الربيع نساء المنصور ومواليه من البكاء والنواح ، وأجلس الخليفة المتوفى وأسنده وجعل على وجهه كلة خفيفة يرى وجهه منها ، حتى لا يفطن أحد الى موته ، ثم أذن لوجوه بنى هاشم بالدخول على الخليفة ، فلما دخلوا وقفوا بين يديه ، وهم يحسبونه على قيد الحياة ، تقدم الربيع نحو المنصور وتظاهر بالتحدث اليه وكأنه يشاوره ، ثم عاد اليهم وقال : أمير المؤمنين يأمركم بتجديد البيعة للمهدى . فتقدم الجميع بالبيعة له [1] .

---

(١) الفخرى ص ١٥٦

ثم شاع نبأ وفاة المنصور بين النــاس ، فقدم أهل البيت العباسي واتخذوا مجالسهم ، كما قدم بعض أبناء الأسرة العلوية ، واحتشدوا جميعا فى سرادق كبير نصبه الربيع بن يونس . ثم خرج الربيع اليهم ، وفى يده قرطاس ، ففضّه وقرأ ما فيه : « بسم الله الرحمن الرحيم : من عبد الله المنصور أمير المؤمنين الى من خلّف من بنى هاشم ، وشيعته من أهل خراسان ، دعامة المسلمين » . ثم رمى القرطاس من يده وانفجر باكيا ، فأبكى الحاضرين ، ثم عاود القراءة وهو يقول : قد أمكنكم البكاء ، ولكن هذا عهد عهده أمير المؤمنين ، لا بد أن نقرأه عليكم ، فأنصتوا رحمكم الله .

ركن الحاضرون الى السكوت ، فعاود الربيع تلاوة عهد المنصور لابنه المهدى : « أما بعد ، فانى كتبت كتابى هذا وأنا حى فى آخر يوم من أيام الدنيا ، وأول يوم من أيام الآخرة ، وأنا أقرأ عليكم السلام ، وأسأل الله ألا يفتنكم بعدى ، ولا يلبسكم شيعاً ، ولا يذيق بعضكم بأس بعض ، يا بنى هاشم ، ويا أهل خراسان ...» فأوصاهم المنصور بابنه المهدى ، وذكرهم ببيعتهم السابقة له ، ودعاهم الى تأييده ونصرته .

تقدم الهاشميون واحدا بعد آخر الى الربيــع بن يونس ببيعتهم للمهدى بالخلافة ، وأراد عيسى بن موسى الامتناع عن البيعة ، فنهض على بن عيسى بن ماهان واستلّ سيفه ثم جاء اليه فقال : والله لتبايعن أو لأضربن عنقك . فخاف عيسى وتقدم بالبيعة .

وبعث الربيع الى المهدى برسول ينبئه بموت أبيه المنصور ، ويهنئه بالخلافة ، وحمل الرسول الى المهدى قضيب النبى صلى الله عليه وسلم ، وبردته التى يتوارثها الخلفاء ، كما بعث معه بخاتم الخلافة .

وبعد هذه البيعة الخاصة التى أخذها الربيع من الأسرة الهاشمية ، عباسيين أو علويين أخذ البيعة العامة من رجالات الدولة وعامة الناس . فكانت البيعة للمهدى بالخلافة ولعيسى بن موسى بولاية العهد ، واشترك موسى بن المهدى فى أخذ البيعة من عامة المسلمين ، وكان أهل مكة يبايعون بين الركن والمقام ، كما بويع للمهدى فى بغداد وسائر الولايات الاسلامية فى ١٨ من ذى الحجة سنة ١٥٨ هـ .

وعلم المهدى بما فعله الربيع ، وما كان من اخفائه نبأ وفاة المنصور ، ودخول الهاشميين عليه وهو ميِّت ، وزعم الربيع لهم أنه على قيد الحياة . ولم يرض المهدى عمَّا فعله الربيع ، وقال له : ألم تمنعك جلالة أمير المؤمنين ان فعلت ما فعلت به ؟! [١]

مطلع الخلافة :

بويع المهدى بيعة خاصة فى بغداد ، وتقبَّل عزاء الناس فى وفاة أبيه ، وتهنئتهم له باعتلاء الخلافة . وصف أحد الكتَّاب [٢] يوم البيعة للمهدى وصفا جميلا معبِّرا ، فذكر أن الساحات

---

(١) الطبرى جـ ٦ ص ٣٥١ ، الفخرى ص ١٥٦

(٢) المدور : حضارة الاسلام فى دار الاسلام ص ٦٦

كانت غاصة بجماهير الناس ، وكان أهل البيعـة يلجون باب السور بين ازدحام تضيق منه الأنفاس ، حتى اذا انتهوا الى القبة الخضراء ، فجاوزوا الحجاب الى المجلس الذى تقام فيه البيعة ، فاذا به قد جمع الأمراء من بنى العباس وكبار القواد والأعيان وأهل البيوتات مثل البرامكة وآل طاهر وآل قحطبة وآل نوبخت وغيرهم . وكان المهدى مستويا على عرش مكلَّل باللؤلؤ والياقوت وأنواع الجواهر ، وعلى رأس العرش قبة تتدلى منها أستار من الديباج . وعلى يمينه ويساره غلامان قد التحفا بالذهب ، ووقفا بمظلتين من الريش الأسود مرفوعتين على رمحين مكسوَّين بعروق من الذهب ، قد طُعِّمت بالياقوت والزبرجد والفيروز ودونهما بنو هاشم على وسائد قد ثُنيت لهم ، ولباسهم خز أسود ، وكذلك كان لباس المهدى ، فاللون الأسود هو شعار العباسيين ، وكانت عليه الطرحة ، وعلى كتفه بردة النبى صلى الله عليه وسلم التى استصحبها المنصور الى الحج ، وفى يده القضيب ، وفى الأخرى خاتم الخلافة .

وكان الى يمين العرش منبر مزخرف بأنواع الزينة والجوهر والديباج ، وقد وقف به كاتب المهدى فى خلافة أبيه أبو عبد الله معاوية بن عبد الله الأشعرى ، وهو الكاتب المشهور بالبلاغة ، قد اتخذه وزيرا له فى سياسة المُلك ، وكان سلامان الأبرش حاجبه واقفا على بعض مرقاة هذا المنبر للبيعة التى جاء بها منارة من مكة ، وتحت يد الخليفة أمير من البرامكة ، قد أخذ فى يده البيعة على أمراء الحضرة — أى العلويين — الذين لم يروا الا

متابعة الناس ، بعـد أن بايعت مكة والمدينـة ، والوزراء وأكابر المسلمين .

وتقدم الشاعر أبو دلامه يهنىء الخليفة الجديد ويعزيه فى وفاة أبيه ، بقصيدة رائعة ، وكأن لسان حـ يـر مات الخليفة ، يحيا الخليفة . كما يقولون الآن : مات الملك ، يحيا الملك [1] .

أنشـد أبو دلامة قصـيدة ، ننقل أبياتهـا عن المؤرخ السيوطى [2] :

عينـاى واحـــدة ترى مسرورة
بأميرها جـَـذْلى وأخـرى تذرف
تبكى ، وتضحك تارة ، ويسوؤها
ما أنـكرت ، ويسرُّها ما تعـرف
فيســوؤها مـوت الخليفة محـرما
ويسرها أن أقام هـــذا الأرأف
هـلك الخليفة يا لدين محمـــد
وأتاكم من بعــده من يخلف
أهـدى لهـذا الله فضـل خلافة
ولذاك جنّات النعـيم تزَخرفُ

وكانت عادة الناس فى مثل هـذا الموقف أن يبدؤا الخليفة بتعزيته فى أبيه ، ثم يهنئوه بتولّيــه الخلافة . فلما أخذوا فى

---

(١) حسن ابراهيم : تاريخ الاسلام جـ ٢ ص ٣٨
(٢) السيوطى : تاريخ الخلفاء ص ٢٧٢

تعزية المهـدى خلعوا قلانسهم ونبذوها وراء ظهورهم ، لأن الخلفاء لا يعزّون بالعمائم . ثم وقف وزيره أبو عبد الله يبايعه عن المسلمين ، فقال : « انا نبايع سيدنا ومولانا الامام المفترض الطاعة على جميع الأنام أبا عبد الله محمد بن عبد الله المنصور ، على كتاب الله وسنّة نبيّه واجتهاد أمير المؤمنين ، وأن لا خليفة سواه » . ثم بايعه كل من حضر المجلس ، حتى لم يكن يسمع الا دعاء له واشادة باسم بنى العباس [1] .

وبعد أن بايع الناس المهـدى بالخلافة ، نادى المنادى فى طرقات بغداد : الصلاة جامعة . واحتشد المسلمون فى جامع بغداد ، لأخذ البيعة العامة . ووقف المهـدى فى عامة الناس المحتشدين فى الجامع خطيبا ، فنعى اليهم أباه ، ثم قال : « ان أمير المؤمنين عبدٌ دعِى فأجاب ، وأمر فأطاع ، ثم اغرورقت عيناه بالدموع ، ولكنه تمالك نفسه ، ثم قال : « ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد بكى عند فراق الأحبة ، ولقد فارقت عظيمـا ، وقلدت جسيما وعند الله أحتسب أمير المؤمنين ، وبه عزّ وجلّ أستعين على خلافة المسلمين » . وكان المهدى يريد أن يسترسـل فى خطبته ، ولكنه كان شـديد الحزن ، فترقرقت الدمـوع فى عينيـه ، ولم يتمـكن من المضى فى حديثه [2] .

وقرأ الوزير رسالة المنصور الى الناس التى أمر بقراءتها

---

(١) المدور : حضارة الاسلام ص ٦٧

(٢) الخطيب البغدادى : تاريخ بغداد جـ ٥ ص ٣٩٢

بعد وفاته ، فقال : « بسم الله الرحمن الرحيم ، من عبد الله المنصور أمير المؤمنين الى من خلف من بنى هاشم وشيعته فى خراسان وعامة المسلمين . أما بعد ، فانى كتبت هذا وأنا حىّ فى آخر يوم من أيام الدنيا وأول يوم من أيام الآخرة . أقرأ عليكم السلام ، وأسأل الله ألا يفتنكم بعدى ،ولا يلبسكم شيعا ، ولا يُذيق بعضكم بأس بعض ، وأوصيكم بمحمد ولى عهدكم وأذكركم البيعة له ، وأستنهضكم للوفاء بعهده واجتماع كلمتكم عليه ، فانّما قوتكم تكون بالاجتماع الى رأيه ، وقد أوصيته بكم وبالرأفة عليكم والاحسان الى المسلمين والسلام » .

دخل عبد الله بن عمرو بن عتبة على المهدى يُعزّيه فى وفاة أبيه المنصور فقال : آجر الله أمير المؤمنين على أمير المؤمنين قبله ، وبارك الله له فيما خلفه عليه ، ولا مصيبة أعظم من فقد امام والد ، ولا عقبى أجلّ من خلافة الله على أولياء الله ، فاقبل يا أمير المؤمنين من الله أفضل العطية ، واحتسب عند الله أفضل الرزية [1] .

ولمّا كان المساء أُقيمت فى بغداد زينة حافلة ، وامتلأت العاصمة بأرباب الملاهى ، وبما يعرضون من صور الطين ، التى يصنعونها للعب الصبيان فى المواسم والأعياد . وصنع المهدى لبنى هاشم وسائر قريش طعاما جاوز فيه الحد بسعة

---

(١) المسعودى : مروج الذهب جـ ٣ ص ٣٢٥

النفقة ، حتى انه أطعم الناس الطير وخبز السميذ . وكان المهدى يحمل معه بدر الدراهم والدنانير فى ركوبه ، فلا يتعرض له أحد الا أعطاه . وقدمت وفود البلاد الاسلامية العربية من بغداد لتهنئته بالخلافة ، فاجتمع ببابه كثير من أشراف العرب وأمراء الولايات ، يتبركون به ، فقد كان محسنا اليهم ، محباً لهم ، ساعيا فيما تصلح به أمورهم [1] .

بداية عصر ذهبى :

كان تولى المهدى الخلافة فاتحة عصر جديد يتميز عمّا سبقه من عهود ، وما تبعه من عصور . فقد اتصف عهده بالهدوء والاستقرار والرخاء والحضارة .

وتعتبر خلافة المهدى فترة انتقال بين عهد الشدة والقمع ، الذى ساد عهد من سبقه من خلفاء بنى العباس ، وعهد الاعتدال واللين الذى امتازت به أيامه وأيام من أتى بعده [2] .

لم يكن الطريق ممهدا أمام قيام الدولة العباسية ، فقد كان على العباسيين أن يهدموا الدولة الأموية ، وهى دولة عربية عريقة ، وضعت لحكمها وسيادتها أسسا وطيدة ، ونجحت فى أن تكون امبراطورية كبيرة تمتد من حدود الصين شرقا الى شواطىء المحيط الأطلسى ، وتشمل ولايات فى آسيا وافريقية وأوروبا . ونجح العباسيون فى القضاء على الدولة الأموية ،

---

(١) الدور : حضارة الاسلام ص ٧٠

(٢) حسن ابراهيم : تاريخ الاسلام ج ٢ ص ٢٨

وأصـــبح أبو العباس أول الخلفاء العباســيين . وكانت مهمته كبيرة ، فكان عليه أن يتخلص من بقايا العصر الأموى ، حتى يبدأ صفحة جديدة . واضطر أبو العباس الى أن يقتل أعدادا كثيرة من أبناء البيت الأموى وأنصارهم ، حتى يضمن سلامة الدولة العباســيّة الوليــدة ، ويثبّت أقدامها ، وقد وصــف أبو العباس نفسه فى خطبة له فى مسجد الكوفة بأنه « السفاح المبيح ، والثــائر المبير » . ولذا أطلق معــاصروه عليه لقب (السفاح) .

ولا شك أن أبا العبــاس كان مضطرا الى انتهــاج هذه السياسة الحازمة ، ليحمى نفسه ودولته من الأعداء . فالمؤرخون يسوقون المديح والثناء عليه ، فيصفه ابن طباطبا [1] بأنه كان « كريمــا حليما وقــورا ، عاقلا كاملا ، كثير الحيــاء ، حسن الأخلاق » . ويصفه السيوطى [2] بأنه كان أسخى الناس ، وما وعد عدة فأخرها عن وقتها . ويرى المؤرخ « نيكلسون » [3] أن لفظ (السفاح) مرادف للفظ (المناح) وهو الكثير العطايا ، وكان هذا اللفظ يطلق على كثير من شيوخ القبائل فى الجاهلية .

أما أبو جعفر المنصور ، فيعتبره المؤرخون المؤسس الحقيقى للدولة العباسية . فقد كانت مدّة خلافة أبى العباس قصيرة (أربع سنين وتسعة أشهر) . ونجح المنصور فى تخليص الدولة

---

(١) الفخرى ص ١٣٤

(٢) تاريخ الخلفاء ص ١٧١

(٣) Nicholson ; Lit. Hist of the Arabs, P. 253

العباسية من أعدائها ، فقضى على ثورة العناصر العربيَّة التى تزعمها عمُّه عبد الله بن على ، وتخلص من أبى مسلم الخراسانى الذى بدأ يعتز بنفسه وينافس الخليفة فى سلطانه ، كما أخمد ثورات العلويين فى الحجاز والعراق . واضطر المنصور الى قتل خصومه وأعدائه ولكن بالحق ، فقد عاقب عيسى بن موسى لأنه قتل رجلا أمويا بدون وجه حق ، وأمره بألا يعاقب أحدا عن ريبة وظن . وصف المؤرخ أبو الفدا [1] المنصور فقال : « كان المنصور أحسن الناس خلقا فى الخلوة حتى يخرج الى الناس » .

امتدت خلافة المنصور من سنة ١٣٦ هـ الى سنة ١٥٨ هـ ، أى ٢٢ سنة . ونجح المنصور فى تثبيت دعائم الدولة العباسية ، وضمان سلامتها من الأخطار والأعداء . وكان مقتصدا فى نفقاته فترك بيت مال عامر بالأموال . ولذا ورث المهدى عن أبيه دولة عظيمة الاتساع ، مستقرة الأوضاع ، ثابتة الأركان ، عامرة الخزائن ، تشع فى أرجائها أنوار الحضارة والمدنية والرخاء . فقد كانت الأموال التى تركها له أبوه تكفيه للانفاق عشر سنوات .

تحدث المرحوم الشيخ الخضرى عن خلافة المهدى فوصفها بأنها مرفهة عن الناس ما كانوا يلقونه من بعض الشدة أيام المنصور ، فقد كان المنصور يؤسس ملكا له خصوم ، فكان يكتفى بالريبة والظنَّة فيعاقب بهما . فلـمّا جاء المهدى كانت

---

(١) المختصر فى أخبار البشر جـ ٢ ص ٨

الخلافة العباسية قد توطدت ، وأنياب العلويين قد كسرت ، وان كانت قد بقيت لهم بقايا يتطلعون للخلافة ، فهم لا يحتاجون فى الاحتراس منهم الى مثل ما كان المنصور يحتاج اليه من الشدة ، فان كبارهم قد وضعوا تحت نظر الخليفة ببغداد ، والذين كانوا بالمدينة اكتفى بمراقبة الأمير لهم ، فكانوا يعرضون عليه كل يوم ، ولذلك كانت حياة المهدى حياة سعيدة لنفسه ولأمته .

أدرك المنصور أنه مهّد الطريق أمام ابنه المهدى ، وقد عبَّر عن هذه الحقيقة فى حديثه للمهدى قبل رحيله الى مكة حيث مات ، فقال : « يا بنى انى قد جمعت لك من الأموال ما لم يجمعه خليفة قبلى ، وجمعت لك من الموالى ما لم يجمعه خليفة قبلى ، وبنيت لك مدينة لم يكن فى الاسلام مثلها »[1] .

ويمكننا أن نشبه عصر المهدى فى العصر العباسى ، بعصر الخليفة الوليد بن عبد الملك فى العصر الأموى . فقد قام أبوه عبد الملك بن مروان بنفس الدور الذى قام به أبو جعفر المنصور . فقد تولى عبد الملك الخلافة فى ظروف قلقة حرجة ، اذ انتشرت فى الدولة الأموية الفتن والثورات . فقد أعلن المختار الثقفى[2] الثورة ووقف الموالى الفرس الى جانبه ، كما استمرت ثورات الخوارج فى أطراف الدولة الشرقية ، كما كان

---

(١) الطبرى ج ٦ ص ٣٤٥

(٢) انظر كتابنا (المختار الثقفى) سلسلة أعلام العرب العدد ١٦

هناك عبد الله بن الزبير [1] الذى أعلن الثورة وبايع لنفسه بالخلافة فى بلاد الحجاز وسيطر على بلاد العراق . وأبدى عبد الملك ما أبداه المنصور من شجاعة وحزم وثبات ، ونجح فى اخماد روح الثورة . حتى اذا مات عبد الملك ترك دولة متحدة يسودها الهدوء والرخاء ، ولذا تفرغ الوليد للفتوحات الخارجية ففتح شمال افريقية والأندلس وجنوب أوروبا والهند والأطراف الشرقية للدولة .

وهكذا جنى كل من الوليد والمهدى ثمار ما زرعه الأبوان ، عبد الملك والمنصور . فقد مهّدا الطريق أمام ولديهما ليعيشا حياة هادئة رغدة ، وأصبح عصر الوليد وعصر المهدى من العصور الذهبية التى شهدها المسلمون .

مات المنصور ، وترك وراءه دولة عظمى موحدة ، تنعم بالهدوء والسكينة والسلام ، وخلّف خزائنا تزخر بالأموال ، وبدأ دور جديد آخر يجد فيه الخليفة والناس على أثره وقتا للفراغ والجدة ، ومصدرا خصبا للترف والنعيم [2] .

سياسة رشيدة :

أجمع المؤرخون ، بدون استثناء ، على وصف سياسة المهدى بالرشد والنضوج والكمال . وامتدحوا أخلاقه وسجاياه ، واعتبروا عصره من العصور الزاهرة .

---

(١) انظر كتابنا (عبد الله بن الزبير) سلسلة أعلام العرب العدد ٤٣

(٢) أحمد أمين : ضحى الاسلام جـ ١ ص ١١٠

وصف المسعودى [1] الخليفة المهدى فعدّد سجاياه ، وقال : « وكان المهـــدى محبّبا الى الخاص والعام ، لأنه افتتح أمره بالنظر الى المظالم ، والكف عن القتل ، وأمن الخائف ، وانصاف المظلوم ، وبسط يده فى الاعطاء » .

وتحدث المؤرخ ابن طباطبا [2] عن المهدى ، فقال : « كان المهدى شهما فطنا كريما ، شديدا على أهل الالحاد والزندقة ، لا تأخذه فى اهلاكهم لومة لائم » . ويصف المؤرخ السيوطى [3] المهدى بأنه « كان جوادا ممدّحا ، مليح الشكل ، محبّبا الى الرعية ، حسن الاعتقاد ، تتبع الزنادقة ، وأفنى منهم خلقا كثيرا ، وهو أول من أمر بتصنيف كتب الجدل فى الرد على الزنادقة والملحدين ، روى الحديث عن أبيه ، وعن مبارك بن فضالة ، حدث عنه يحيى بن حمزة ، وجعفر بن سليمان الضبعى ، ومحمد ابن عبد الله الرقاشى ، وأبو سفيان سعيد بن يحيى الحميرى . قال الذهبى : وما علمت قيل فيه جرحا ولا تعديلا » . وتحدّث المؤرخ أبو الفدا [4] عن المهدى أيضا فقال : « وكان المهـــدى يجلس للمظالم ويقول ادخلوا علىّ القضاة ، فلو لم يكن ردّى المظالم الا للحياء منهم » .

اشتهر المهدى بالعدل ، والتقوى والورع ، والتسامح ،

---

(١) مروج الذهب ج ٣ ص ٣٢٢

(٢) الفخرى ص ١٦١

(٣) تاريخ الخلفاء ص ٢٧١

(٤) المختصر فى أخبار البشر ج ٢ ص ١٠

والعفو عن أعدائه ، والحياء ، والحلم ، وحب الاصلاح والعمران، والكرم والجود ، وابتعد عن الظلم والغدر واللهو والمجون . وهى صفات قلّما اجتمعت فى شخص واحد أو فى خليفة من الخلفاء ، فقد بلغ الرشد فى أخلاقه وسجاياه ، وفى سياسته وحكمه .

وكان المهدى يباشر شئون الدولة بنفسه ، دون أن يدع لوزرائه الفرصة ليستبدوا بالسلطة دونه ، أو يتصرفوا حسب أهوائهم وأغراضهم . وكان المهدى اذا شعر أن أحد وزرائه قد استأثر بالنفوذ أو انحرف عن الجادة ، عزله وولى غيره ممن اشتهروا بالعدل والخبرة . ولذا كان وزراء المهدى من أبرز الوزراء فى العصر العباسى . ولكن المهدى ، رغم ذلك ، كان دعوقراطيا ، فكان يستشير رجالات الدولة وذوى الخبرة فى مهام الأمور .

نرى هذه السياسة جلية واضحة فى نصّ للمؤرخ ابن طباطبا [1] : « لم تكن الوزارة فى أيامه طائلة لاستبداده واستغنائه برأيه وكفاءته ، مع أنه كان يشاور فى الأمور دائما ، وانما كانت هيبته تصغر لها هيبة الوزراء ، وكانوا لا يزالون على وجل منه وخوف ، فلا يظهر لهم أبهة ولا رونق » .

صوّر المرحوم الأستاذ أحمد أمين [2] تطور حياة الخلفاء فى العصر العباسى ، ابتداء من أبى العباس الى المنصور ثم الى

---

(١) الفخرى ص ١٥٦

(٢) ضحى الاسلام جـ ١ ص ١٠٧

المهدى ، ثم الى سائر الخلفاء العباسيين ، فقال : بدأت الدولة العباسية ، وحولها أعداء كثيرون من أمويين وصنائعهم ، ولمّا اختير للخلافة السفاح ثم المنصـــور غضب كثيرون من البيت العباسى نفسه ، وغضب شيعة على ، فكان لا بدّ لقيام الدولة من خلفاء جادين غير لاهين ، يصرفون كل وقتهم فى تأسيس الدولة ، واصطناع الموالين ، وكبح جماح الثائرين ، وسفك دماء الخارجين ، حتى اذا انتهى هذا الدور ، ومهدت الأمور ، وقتل الخارجون واستكان أمثالهم ، هدأت الدولة ، فكان أمام الخليفة الذى يأتى بعدُ وقت من الفراغ والهـــدوء يجد فيه متسعا لشىء من الترف والنعيم ، ولكن ليس يجد كل وقته ، فعليه تنظيم داخل المملكة بعد أن كان أكثرهم من قبله موجها الى تنظيم الأمور الخارجية .

صبغ الخلفاء العباســيون دولتهم بصـــبغة دينية ظاهرة ، وأصبح رعاياهم ينظرون اليهم كأنهم حماة الاسلام . وكان أبو جعفر المنصور أكبر من أحاط الخلافة بالاجلال الدينى ، وقوّى من حرمة البيت العباسى ، لا من ناحية القوة المـــادية — فحسب — بل من ناحية القوة الروحية كذلك . وكان من أثر هذا أن الخلفاء العباسيين لمّا ضعف نفوذهم المادى فى العصر العباسى الثانى ، ولم يك شىء من القوة فى أيديهم ، ظلت هذه السلطة الروحية فيهم ، يستجلبون بها رضى العامة ، فكانت البيعة للخلفاء تحاط بأنواع من المراسم والشعائر التى لم تكن معروفة ، وتؤكد البيعة فى الحرم .

وصــبغة الخلفاء العباســيين دولتهم بهذه الصبغة الدينية جعلتهم يشرفون على الدين من نواح مختلفة ، ويتدخلون فى المسائل الدينية أكثر مما كان يفعل الأمويون ، من ذلك أنا نرى الخليفة المهدى يتعقب الزنادقة ، ويعيّن من يلى أمرهم ، ويعاقب من ظهر منهم ، ويحث العلماء على وضع الكتب فى الرد عليهم ، وسار خلفاؤه بعده سيرته ، وذلك ما لم نعهده من قبل المهدى [1].

---

(١) ضحى الاسلام جـ ١ ص ٣٧٥

الخليفة العادل المصلح

أمن وعدل :

عمل المهدى على أن يسود الأمن أرجاء الدولة العباسية ، ووفَّر العدل لجميع رعاياه . وأدرك المهدى أن أباه المنصور قد تولى الخلافة فى فترة قلقة ، فقد كان يقيم دولة كبرى بعد أن نجح فى القضاء على دولة عريقة كانت قد وطدت حكمها . ولذا امتلأت سجون المنصور بخصومه السياسيين ، أو من يخشى منهم على سلامة الدولة . وأدرك المهدى أن هذه المرحلة الحرجة قد انتهت ، وأن الدولة العباسية قد نجحت فى تدعيم أركانها ، وكسبت محبة الناس ورضاهم ، فرأى أن يبدأ عهده بالتسامح والعفو واطلاق سراح هؤلاء المسجونين ، فأمر بالافراج عن كل مسجون اتُّهم بجريمة سياسية « الا من كان قبله تباعة من دم أو قتل ، ومن كان معروفا بالسعى فى الأرض بالفساد »[1] .

وتم الافراج عن عدد كبير من هؤلاء المسجونين السياسيين وكان من بينهم يعقوب بن داود ، مولى بنى سليم ، الذى نجح فى الوصول بعد ذلك الى منصب الوزارة فى عهد المهدى .

---

(١) الطبرى جـ ٦ ص ٣٥٣

تحدَّث المؤرخ المسعودى [1] عن حرص المهدى على استقرار الأمن والطمأنينة فى الدولة العباسية ، واعادة الحقوق المسلوبة الى أصحابها ، فقال : « وكان المهدى محببا الى الخاص والعام ، لأنه افتتح أمره بالنظر فى المظالم والكف عن القتل ، وأمَّن الخائف ، وانصاف المظلوم ، وبسط يده فى الاعطاء » .

ردَّ المهدى الأموال التى صادرها أبوه المنصور الى أصحابها ، حتى انه أنفق كلَّ ما خلَّفه له المنصور من أموال ، وكانت ستمائة مليون درهم وأربعة عشر مليون دينار ، بل أنفق من أمواله الخاصة عشرة ملايين درهم ، فى عشرة أيام ، منحها كلها للمظلومين والمحتاجين . وأثار هذا العدل والكرم اعجاب الناس ورضاهم ، فوقف أحدهم ، وهو شبَّة بن عقال ، خطيبا ، فقال : وللمهدى أشباه ، فمنها القمر الزاهر ، والربيع الباكر ، والأسد الخادر ، والبحر الزاخر ، فأما القمر الزاهر فأشبه منه حسنه وبهاه ، وأمَّا الربيع الباكر فأشبه منه طيبه وهواه ، وأما الأسد الخادر فأشبه منه عزمه ومضاه ، وأما البحر الزاخر فأشبه منه جوده وسخاه [2] .

وكان المهدى أوَّل الخلفاء العباسيين الذين جلسوا للمظالم . فكان يجلس للمظالم بنفسه ، وبين يديه القضاة ، فينظر فى شكاوى رعاياه ، ولو كانت الشكوى منه شخصياً . وكان صاحب المظالم ينظر فى كل « حكم يعجز عنه القاضى ، فينظر

---

(١) المسعودى : مروج الذهب ج ٣ ص ٣٢٢

(٢) مروج الذهب ج ٣ ص ٣٢٣

فيه من هو أقوى مزيدا » . وقد وضّح الماوردى [1] الفروق بين نظر المظالم ونظر القضاء . ومن أهم الفروق ، أن لناظر المظالم من فضل الهيبة وقوة اليد ما ليس للقضاة ما يكف الخصوم عن التجاحد ومنع الظلمة من التغالب ، وأنه يستعمل من الارهاب ومعرفة الامارات والشواهد ما يصل به الى معرفة المحق من المبطل ، وأنه يستطيع رد الخصوم اذا اتصلوا الى وساطة الأمناء ليفصلوا التنازع بينهم صلحا عن تراض . وليس للقاضى ذلك الا عند رضا الخصمين بارد ، وانه يجوز له اخلاف الشهود عند ارتيابه بهم والاستكثار من عددهم ، ليزول عنه الشك ، وأنه يجوز له أن يبتدىء باستدعاء الشهود وسؤالهم عمّا عندهم ، وعادة القضاة تكليف المدعى احضار بيّنة ، ولا يسمعون البيّنة الا بعد سؤاله .

وفى بداية الأمر ، كان لا يسمح لأصحاب المظالم بالدخول على المهدى والاكتفاء بعرض مظالمهم فى رقاع من الورق ، فينظر المهدى فى كل رقعة بعناية واهتمام ، والى جانبه قضاته يرجع اليهم فيما أشكل عليه من أمور . ثم علم المهدى أن بعض أتباعه يأخذون رشوة من أصحاب المظالم فى مقابل عرض مظالمهم على الخليفة . فأمر المهدى بفتح شبّاك من حديد فى قصره ، فيلقى كل صاحب مظلمة بالورقة التى عرض فيها مظلمته من هذا الشباك الى داخل القصر ، ثم كان المهدى يسمح بدخول المظلومين الى مجلسه يعرضون عليه مظالمهم .

---

(1) الماوردى : الأحكام السلطانية ص ٧٣ وما بعدها .

وكانت محكمة المظالم تختص بالنظر فى كثير من القضايا ، أبرزها :

(١) النظر فى القضايا التى يقيمها الأفراد والجماعات على الولاة اذا انحرفوا عن طريق العدل والانصاف ، وعلى عمّال الخراج اذا اشتطوا فى جمع الضرائب ، أو كتّاب الدواوين اذا حادوا عن اثبات أموال المسلمين بنقص أو زيادة .

(٢) النظر فى تظلم المرتزقة اذا نقصت أرزاقهم أو تأخر ميعاد دفعها لهم .

(٣) تنفيذ ما يعجز القاضى والمحتسب عن تنفيذه من الأحكام .

(٤) مراعاة اقامة العبادات ، كالحج والأعياد والجمع والجهاد [١] .

ويروى المؤرخون روايات كثيرة تبيّن عدل المهدى وحرصه على ردّ كل مظلمة . فروى الطبرى [٢] أن المهدى ردّ على أهل بيته وغيرهم قطائعهم التى كانت مقبوضة عنهم . وليس أدلّ على عدل المهدى من هذه الرواية التى تبين كيف قبل المهدى حكم القضاء ضدّه . فقد تقدم المسور بن مساور بشكواه فقال : ظلمنى وكيل المهدى وغصبنى ضيعة لى ، فأتيت سلاما صاحب المظالم وأعطيته رقعة مكتوبة فأوصلها للمهدى ، وعنده عمّه العباس بن محمد وابن علاثة وعافية القاضى ، فأمر المهدى

---

(١) الماوردى : الأحكام السلطانية ص ٨٠ ، تاريخ الاسلام جـ ٢ ص ٢٢٤
(٢) الطبرى جـ ٦ ص ٣٦٧

بإدخاله وسأله عن مظلمته فأخبره بها . فقال له المهدى : ترضى بأحد هذين ؟ فقال : نعم . فقال : تكلم . فقال مساور : أصلح الله القاضى ، ان هذا ظلمنى فى ضيعتى . وأشار الى المهدى . فقال القاضى : ما تقول يا أمير المؤمنين ؟ قال : ضيعتى فى يدى . فقال مساور : أصلح الله القاضى ، سله صارت اليه الضيعة قبل الخلافة أو بعدها ؟ فقال المهدى : بعد الخلافة . فقال القاضى : أطلقها له . فقال المهدى : قد فعلت [1] .

وروى المؤرخ السيوطى [2] أن امرأة اعترضت المهدى ، فقالت : يا عَصَبَة رسول الله صلى الله عليه وسلم انظر فى حاجتى . فقال المهدى لأتباعه : ما سمعتها من أحد قط ، اقضوا حاجتهم ، واعطوها عشرة آلاف درهم .

كما روى الطبرى قصة تدل على اهتمام المهدى برد المظالم ، فروى : « ذكر على بن محمد بن سليمان قال : حدثنى أبى قال : حضرت المهدى وقد جلس للمظالم فتقدم اليه رجل من آل الزبير فذكر ضيعة اصطفاها عن أبيه بعض ملوك بنى أمية ، ولا أدرى الوليد أم سليمان ، فأمر أبا عبيد الله أن يخرج ذكرها من الديوان العتيق ، ففعل . فقرأ ذكرها على المهدى ، وكان ذلك أنها عُرضت على عدة منهم لم يروا ردّها منهم عمر بن عبد العزيز . فقال المهدى : يا زبيرى هذا عمر بن عبد العزيز وهو منكم معشر قريش كما علمتم لم يردّها . قال : وكل أفعال

---

(١) الطبرى جـ ٦ ص ٣٥٠

(٢) السيوطى : تاريخ الخلفاء ص ٢٧٤

عمر ترضى ؟ قال : وأى أفعاله لا ترضى ؟ قال : منها أنه كان يفرض للسقط من بنى أمية فى خرقة فى الشرف من العطاء ، ويفرض للشيخ من بنى هاشم فى ستين . قال : يامعاوية ، أكذلك يفعل عمر ؟ قال : نعم . قال : اردد على الزبيرى ضيعته » [1] .

هتم المهدى بتنفيذ تعاليم الشريعة الاسلامية بكل دقة ، وتولى تنفيذ أحكامها أبو يوسف أشهر قضاة عصره . ودقّق المهدى فى اختيار قضاته ، فكان يختار من اشتهروا بحُسن السيرة ، ورجاحة العقل ، ووفرة العلم ، ويعاقب كل من انحرف منهم . تحدث السيوطى [2] عن اهتمام المهدى برد المظالم ، فقال : « لما حصلت الخزائن فى يد المهدى ، أخذ فى رد المظالم ، فأخرج أكثر الذخائر ، وبر أهله ومواليه » .

ومن أشهر المظالم التى نظر فيها الخليفة المهدى ، المظلمة التى رفعها بعض آل أبى بكرة ، يطلبون فيها من المهدى رد نسبهم فى ثقيف الى ولاء الرسول صلى الله عليه وسلم . ونظر المهدى فى هذه المظلمة وقال لهم : ان هذا نسب واعتزاء ماتقرون به الا عند حاجة تعرض لكم وعند اضطراركم الى التقرب به الينا . فقال صاحب المظلمة : يا أمير المؤمنين من جحد ذلك فانا سنقر ، أنا أسألك أن تردنى ومعشر آل أبى بكرة الى نسبنا من ولاء رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وتأمر بآل زياد بن

---

(١) الطبرى جـ ٦ ص٣٩٩
(٢) تاريخ الخلفاء ص ٢٧٤

عبيد فيخرجوا من نسبهم الذى ألحقهم به معاوية رغبة عن قضاء رسول الله صلى الله عليه وسلم ان (الولد للفــراش وللعاهر الحجر) فيردوا الى نسبهم من عبيد فى موالى ثقيف .

فأمر المهدى فى آل أبى بكرة وآل زياد أن يرد كل فريق منهم الى نسبه وكتب الى محمد بن سليمان ، فى البصرة ، أن يرد آل أبى بكرة الى ولائهم من الرسول ، وأن يعلن ذلك فى جامع البصرة ، ويرد اليهم أموالهم المغتصبة . كما كتب المهدى الى ابنه هارون الرشيد ، وكان يحكم البصرة ، يأمره بأن يخرج آل زياد من قريش ، وأن يعــرض ولد أبى بكرة على ولاء الرسول ، فمن أقر منهم ترك ماله فى يده ، ومن انتمى الى ثقيف اصطفى ماله ، فعرضهم فأقروا جميعا بالولاء الا ثلاثة نفــر فاصطفيت أموالهم [1] .

اهتمام المهدى ببلاد الحجاز :

نالت بلاد الحجاز نصيبا كبيرا من اهتمام المهدى ، فهى مهد الاسلام الأول ، وموطن الرسول وصحابته الأولين . وكانت الدولة الأموية قد أهملت شــئون الحجــاز ، واتبعت سياسة اقتصادية جعلت أهل الحجاز يضــيقون بالحكم الأموى ، مما شجع الحجازيين على الالتفاف حول عبد الله بن الزبير الذى أعلن الثورة فى الحجاز على الدولة الأموية وبايع لنفسه بالخلافة .

---

(١) الطبرى ج ٦ ص ٣٦٣ ــ ٣٦٤

وهدد سلامة الدولة . وعاقب الأمويون أهل المدينة ، فكانت واقعة الحرّة فى عهد يزيد بن معاوية التى سقط فيها كثير من أهالى مدينة الرسول قتلى وجرحى . كما حاصر الأمويون الكعبة وضربوها بالمنجنيق مرتين ، فى عهد يزيد بن معاوية وعبد الملك بن مروان [1] .

وضع المهدى سياسة ترمى الى كسب ولاء أهل الحجاز وتأييدهم للدولة العباسية . وكانت هذه البلاد قد شهدت فى عهد أبيه المنصور ثورة قوية ، اذ ثار محمد النفس الزكية زعيم الحزب العلوى فى الحجاز ، كما ثار أخوه ابراهيم فى البصرة . وبذل المنصور جهودا كثيرة حتى نجح فى القضاء على هذه الثورة العلوية .

رحل المهدى الى بلاد الحجاز فى سنة ١٦٠ هـ ، وقسّم فى أهل مكة وأهل المدينة مالا كثيرا . فقد حمل معه من بغداد ثلاثين مليون درهم ، كما وصل اليه وهو فى الحجاز ثلاثمائة ألف دينار بعثها اليه والى مصر ، ومائتا ألف دينار أرسلها والى اليمن . وفرّق من الثياب مائة وخمسين ألف ثوب . وعمل المهدى على استمالة أهل الحرمين بالاحسان والتكريم ، ورد اليهم الوظائف التى أبعدهم أبوه عنها ، واتخذ لهم مآدب اهتم بزخرفتها وتنميقها للدلالة على عظمته وأبهته . وحمل الثلج الى المهدى من الشام الى مكة ، فكان أول ثلج يدخل الى

(١) انظر كتابنا (عبد الله بن الزبير) تجد كثيرا من التفاصيل .

مكة[1] . وكما يقول السيوطى[2] : « ولم يتهيأ ذلك لملك قط » . ويعلّق المدور[3] على جلب الثلج الى مكة ، فيقول : وهذا من الأمور التى توسع أهل البادية تعجبا من اقتدار الملوك على الغريب .

واصطفى المهدى لنفسه من الأنصار خمسمائة نفر ، أجرى عليهم الأرزاق الواسعة ، واتخذهم لمراتب السيف فى العراق ، كأنه يعارض أباه فى تقديم الموالى على العرب ليستبدل بجفائهم له محبتهم اياه . فقد كان المنصور يعتمد فى ادارة دفة الدولة على العناصر الفارسية والخراسانية أكثر مما يعتمد على العناصر العربية ، فأراد المهدى أن يحفظ التوازن بين الطبقات المختلفة فى المجتمع الاسلامى ، وخاصة بين طبقتى العرب والموالى الفرس ، فقد كان المهدى يدرك أن هذا الصراع الطبقى ، وذلك النزاع العنصرى ، يعرّض سلامة وحدة الدولة العباسية . وقد أدى عداء العرب للموالى الى سقوط الدولة الأموية ، لأنها تعصّبت للعناصر العربية وأهملت سائر العناصر ، مما جعلها تتكاتف من أجل التخلص من الحكم الأموى .

وصادف أن كانت السنة التى رحل فيها المهدى الى الحجاز (سنة ١٦٠ هـ) سنة تميزت بالرخاء وانخفاض الأسعار وكثرة الخيرات ، وكانت السنوات السالفة التى مر بها الحجازيون قد حفلت بالوباء وارتفاع الأسعار وقلة الخصب . فاستبشر أهل

(١) الطبرى ج ٦ ص ٣٦٦ — ٣٦٧
(٢) السيوطى : تاريخ الخلفاء ص ٢٧٣
(٣) المدور : حضارة الاسلام ص ٨٤

الحجاز من قدوم الخليفة محمد المهدى خيرا ، وأحبوه ، وتبركوا به ، وقالوا : هذا هو المهدى ابن عم رسول الله صلى الله عليه وسلم وسُميته [1] .

ونالت الكعبة الشريفة اهتمام المهدى ، فقد كساها كسوة جديدة ، واتّبع السنة النبوية فى المنابر والمقاصير ، وأمر بانشاء أروقة المسجد الحرام ، مما سنفصله فيما بعد ، ونال المهدى بهذه الأعمال رضا جميع المسلمين فى كل الولايات الاسلامية .

اهتمام المهدى ببلاد الشام :

وكما اهتم المهدى ببلاد الحجاز ، فقد اهتم أيضا ببلاد الشام ، ليثبت للجميع أن الخليفة يساوى فى معاملته واهتمامه بين جميع ولايات الدولة ، وينظر الى رعاياه نظرة واحدة ، على قدم المساواة ، مهما اختلفت أجناسهم أو تعددت بلادهم أو أديانهم . وهذه هى سياسة العدل والمساواة التى اتبعها المهدى .

كانت بلاد الشام مركزا للخلافة الأموية منذ سنة ٤٠ هـ الى أن قامت الخلافة العباسية سنة ١٣٢ هـ . وارتبطت الأسرة الأموية ببلاد الشام ارتباطا وثيقا منذ أن فتح القائد يزيد بن أبى سفيان هذه البلاد ثم تولى حكمها ، وخلفه فى الحكم أخوه معاوية . وشهدت بلاد الشام أمجاد الأمويين ، ولذا شعر أهلها بالألم والحسرة حين سقطت الدولة الأموية ، وانتقلت عاصمة الدولة من دمشق بالشام الى بغداد بالعراق .

---

(١) الاصفهانى : الأغانى جـ ٣ ص ٩٤

وأراد المهدى أن يطيّب خاطر أهل الشام ، وينسيهم ألمهم ومرارتهم ، ويشعرهم أن بلادهم تقف على قدم المساواة مع بلاد العراق وسائر الأمصار الاسلامية ، وأن الدولة العباسية هى دولة الشام والعراق والحجاز ومصر والمغرب وغيرها من الأقطار .

ولذا اهتم المهدى باختيار ولاته وعماله فى بلاد الشام ، فاختار أكثرهم عدلا وأحسنهم سيرة ، كما أغدق الأموال على وجوه الشام ورجالاتها ، وخاصة زعماء القبائل العربية المستقرة فى بلاد الشام . ثم رأى المهدى أن يخرج بنفسه لزيارة هذه البلاد ، فزار حلب ودمشق وبيت المقدس ، وصلّى بأهلها فى المساجد ، وفرّق بين أهلها أموالا كثيرة [1] . كما توقف التنكيل بالأسرة الأموية فى عهده ، وأكرم المهدى نساء مروان بن محمد آخر الخلفاء الأمويين وسمح لهن بالاقامة فى قصره ، فكن موضع تكريمه .

اصلاح وعمران :

اهتم المهدى بالاصلاحات والانشاءات ورغم قصر مدة حكمه (١٥٨ ــ ١٦٩ هـ) فقد حفلت هذه الفترة بضروب مختلفة منوعة من العمران والانشاء ، وانتشر الرخاء فى أرجاء الدولة العباسية ، مما أدى الى ازدهار الحضارة والمدنية . وساعد المهدى على المضى فى سياسة الاصلاح والانشاء ، ما تركه

---

(١) الاصفهانى : الأغانى جـ ٦ ص ٦٧

المنصور من أموال طائلة حفلت بهـا بيوت المـال فى الدولة العباسية .

نال البريد اهتماما من المهدى ، فقد اتسعت الدولة العباسية ، وأصبحت امبراطورية كبرى تمتد من جبال طوروس شمالا الى السودان جنوبا ، ومن حدود الصين شرقا الى المحيط الأطلسى غربا ، وشملت أقطارا فى آسيا وافريقية وأوروبا . ولذا كانت هذه الدولة فى حاجة الى تنظيم البريد بين ولاياتها المختلفة ، لربط بينها ، وتسهيل وصول قرارات الخلافة وأوامر الخليفة الى ولاته فى وقت قصير . الى جانب حمل رسائل عامة الناس لى أقاربهم وأسراتهم وضمان قضاء مصالحهم .

أقام المهدى البريد بين بلاد العراق وبلاد الحجاز ، فكان كما قال الذهبى : « أول من عمل البريد من الحجاز الى العراق » . فأقام البريد من المدينة المنورة واليمن ومكة ، الى العراق . واستخدم فى البريد البغال والابل ، وأقام محطات البريد على طول الطريق بين العراق والحجاز ، وأمدها بالرجال والحيوانات اللازمة لهذه الخطوط البريدية[1] .

كان للبريد ديوان كبير فى بغداد له محطات على طول الطريق . وقد ظل حمام الزاجل مستخدما فى نقل الرسائل حتى عهـد الخليفة العباسى المستعصم . وساعدت معالم الطرق التى أقامتها الدولة التجار فى أسفارهم ، كما كانت أساسا للبحوث الجغرافية .

---

(١) ابن الأثير : الكامل جـ ٦ ص ٢٦ ، السيوطى : تاريخ الخلفاء ص ٢٧٣

وكان صاحب البريد يراقب العمال ، ويتجسس على الأعداء ، ويقوم بأعمال ادارات المخابرات فى الدول الحديثة الآن ، وكانت مهمة صاحب البريد أول الأمر توصيل الأخبار الى الخليفة من عماله فى الأقاليم ، ثم توسعوا فيه حتى جعلوا صاحبه عينـــا للخليفة ، ينقل أوامره الى ولاته ، كما ينقل أخبار ولاته اليه .

وقد استخدم أبو جعفر المنصور عمال البريد الذين كانوا عيونا له وعونا على الاشراف على أمور دولته ، وبواسطتهم كان يقف على أعمـــال الولاة ، وعلى ما يصدره القضـــاة من الأحكام ، وما يرد بيت المال من الأموال ، وما الى ذلك . كما كان ولاة البريد يوافونه بأسعار الحاجيات من قمح وحبوب ومأكولات وغيرها . وبلغ من انتظام ادارة البريد فى عهده أن عماله كانوا يوافونه بذلك مرتين فى كل يوم . فاذا صـــلّى المغرب وافوه بما حدث طول النهار ، واذا صلّى الصبح كتبوا اليه بما جرى فى الليل من أمور . وبهذا كان يقف المنصور على كل ما يحدث فى الولايات الاسلامية ، لذا كان شديد الاتصال بولاته ، فيوقف القاضى عند حده اذا ظلم ، ويرجع السعر الى حالته الأولى اذا غلا ، وان رأى تقصيرا من أمرهم وبّخه ولامه أو عزله من عمله مهانا [١] .

واتبع المهدى سياسة أبيه ، فأعطى البريد أهمية خاصة ، وطوّر نظامه ، وتوسع فيه ، وأنشأ طرق البريد ومحطاته ، وأنفق فى سبيل ذلك أموالا طائلة .

---

(١) حسن ابراهيم : تاريخ الاسلام جـ ٢ ص ٢٠٦

فقد أمر المهدى ببناء القصور فى طريق مكة ، أوسع من القصور التى كان أبو العباس بناها من القادسية الى زبالة ، وأمر بالزيادة فى قصور أبى العباس ، وترك منازل أبى جعفر التى كان قد بناها على حالها ، وأمر باتخاذ المصانع فى كل منهل ، وبتجديد الأميال والبرك ، وحفر الركايا مع المصانع ، وولّى ذلك يقطين بن موسى [1] .

وفى سنة ١٦٤ هـ بنى المهدى بعيسا باذ الكبرى قصراً من لبن ، الى أن أسس قصرا آخرا بناء بالآجر وسماه (قصر السلامة) ، وكان تأسيسه اياه يوم الأربعاء فى آخر ذى القعدة . وفى هذه السنة ، شخص المهدى حين أسس هذا القصر الى الكوفة حاجا ، فأقام برصافة الكوفة أياما ، ثم خرج متوجها الى بلاد الحجاز للحج ، حتى انتهى الى العقبة . وأصيب المهدى بالحمّى ، وعانى الحجاج من قلة الماء فى الطريق ، فأبدى المهدى غضبه على عامله يقطين بن موسى الذى عهد اليه بالاشراف على توفير الماء فى الطريق بين الحجاز والعراق ، ولم يتمكن المهدى من اكمال رحلته الى مكة للحج ، فعهد الى صالح بن أبى جعفر المنصور ليحج بالناس بدلا منه [2] .

وفى سنة ١٦٦ هـ ، رحل المهدى الى عيسا باذ ، فنزل القصر الذى بناه ، وسماه قصر السلامة ، ونزل الناس حوله وابتنوا لهم دورا . وضرب المهدى بها الدنانير والدراهم .

---

(١) الطبرى جـ ٦ ص ٣٦٨

(٢) الطبرى جـ ٦ ص ٣٧٨ ــ ٣٧٩

رخاء اقتصـــادى :

حذا المهــدى حذو أبيه المنصـــور فى الاهتمام بالموارد الاقتصادية فى الدولة العباسية ، فاهتم بشئون الزراعة والتجارة والصناعة . وقد قام المنصور بمشروعات عمرانية كثيرة ، مثل بناء المدن ، وحفر الأنهار والترع ، وانشـــاء الطرق ، واستصلاح الأراضى ، وأكمل المهدى كثيرا من هــذه المشروعات التى لم تمهل الحياة المنصور ليكملها . كما جنى المهدى ثمار جهود أبيه المنصور فى الميادين الاقتصادية . وسار المهدى على منوال أبيه فى اصلاح مرافق الدولة والعناية بتنمية مواردها الاقتصادية .

امتلأت خزائن بيوت الأموال فى الدولة العباسية فى عهد المنصور بالأموال ، فقد كان حريصا مقتصدا فى النفقات ، ولذا خلّف للمهدى أموالا طائلة ، أنفقها المهدى ــ كما رأينا ــ فى ردّ المظالم وفى القيام بالمشروعات العمرانية ، وفى تحقيق الرخاء الاقتصادى فى الدولة العباسية .

لم تمدنا المصادر التاريخية بمقدار الجباية فى عهد المهدى ، ولكن نستطيع أن نلمّ بمقدارها ، مما روته هذه المصادر عن عصر هارون الرشيد الذى تولى الخلافة بعد وفاة المهدى بأقل من عامين ، اذ لم تطل خلافة الهادى . فقد بلغت أموال الجباية فى عهد الرشيد أكثر من اثنين وأربعين مليـــون دينـــار ، عدا الضريبة العينية التى كانت تؤخذ مما تنتجه الأرض من الحبوب . حتى قيل ان الرشيد كان يستلقى على ظهره وينظر الى السحابة

المارة ويقول : « اذهبى حيث شئت يأتنى خراجك »[1] . وبلغ دخل الدولة العباسية فى عهد الرشيد ٢٧٢ مليون درهم وأربعة ملايين ونصفاً من الدنانير فى السنة .

وأدى هذا الرخاء الاقتصادى الى انخفاض الأسعار فى عهد المهدى ، حتى كان الكبش يباع بدرهم ، والحمل بأربع دوانق (والدانق سدس درهم) ، والتمر ستين رطلا بدرهم ، والزيت ستة عشر رطلا بدرهم ، والسمن ثمانية أرطال بدرهم ، وكان ينادى على لحم البقر تسعين رطلا بدرهم ، ولحم الغنم ستين رطلا بدرهم[2] .

اهتمام المهدى بالزراعة :

لقيت الزراعة اهتماما كبيرا فى عهد الخلفاء العباسيين الأوائل ، لأن عاصمتهم ، بغداد ، كانت تقع فى أحسن البقاع من ذلك السهل الخصيب المعروف باسم السواد . وفطن العباسيون الى أن الزراعة هى أهم مورد من موارد الدخل فى الدولة . وكانت فلاحة الأرض يقوم بها السكان الوطنيون الذين تحسنت حالتهم الى حدٍّ كبير فى ظل الدولة العباسية[3] .

اشترك المهدى مع أبيه الخليفة المنصور ، حين كان وليا للعهد ، فى بناء مدينة بغداد ، ومدَّها بالأنهار والترع ، حتى اذا تولى المهدى الخلافة قام بدوره بحفر المجارى المائية .

---

(١) القلقشندى : صبح الأعشى ص ٢٧٠

(٢) الخطيب البغدادى : تاريخ بغداد جـ ١ ص ٧٠

(٣) حتى : تاريخ العرب ص ٤٣٩

وكانت الأراضي الواقعة بين نهـري دجلة والفرات من أخصب بقاع الدولة العباسية ، وكانت الحكومة تشرف على ادارتها اشرافا مباشرا ، وتعمل على النهوض بمحصـولاتها وتنمية مواردها . وأمدها المنصور ثم المهدى بشبكة من الترع والمصارف ، زادت من خصوبتها ، واتسعت المزارع والبساتين .

ولما كان ماء الفرات لا يكفي وحده لرى أراضى السواد ، عمل المنصور والمهدى على تنظيم وسائل الرى ، بحفر الترع والجداول ، على حين أمكن الاحتفاظ بماء دجلة لرى الأراضى الواقعة على شاطئه الغربى وعلى ساحل الخليج الفارسى (الخليج العربى الآن) ، وأمكن بذلك رى جميع الأراضى الممتدة بين الصـحراء العربية وجبال كردسـتان ، وتحويلها الى أرض خضراء ، تنتج محصولات وفيرة .

اهتم الخلفـاء العباسـيون ، وخاصة المنصـور والمهدى والرشيد ، بالزراعة وفلاحة البساتين التى قامت على دراسـة عملية ، بفضل انتشار المدارس الزراعية التى كان لها أثر كبير فى اثارة عقول المسلمين ، فتوسعوا فى البحث النظرى ، ودرسوا أنواع النباتات وصلاحية التربة لزراعتها ، واستعملوا الأسمدة المختلفة لأنواع النباتات [1] .

وقد اتبـع الخلفاء العباسـيون سياسة حكيمة ترمى الى تخفيف أعباء الضرائب عن الفلاحين ، واهتم بعض هؤلاء الخلفاء

---

(1) حسن ابراهيم : تاريخ الاسلام جـ ٢ ص ٢٢٧

بوضع قواعد ثابتة لأنواع الخراج بحسب نوع المحصول وجودة الأرض ، وراعوا خفض الضرائب اذا قل المحصول نتيجة آفة أو فيضان . وقد ألغى أبو جعفر المنصور الضريبة النقدية التى كانت تفرض على الحنطة والشوفان ، واستبدلها بنظام المقاسمة ، وهو دفع الضرائب نوعا بنسبة خاصة من المحصول ، على أن النظام القديم قد ظل على النخيل والفواكه وأشباهها .

وتوسع الخليفة المهدى فى تطبيق النظام الذى ابتكره المنصور ، فعممه ، وجعل الضرائب تجبى دائما بالنسبة للمحصول ، واذا كانت الأرض ممتازة الخصب ولا تحتاج الى عمل كثير ، كان على المزارع أن يقدم الى الحكومة نصف غلة أرضه ، واذا صعب عليه ارواؤها ، دفع الثلث أو الربع أو الخمس تبعا لحالة الأرض أما الكروم والبساتين والنخيل فكانت غلتها تقوّم بالمال ، ويدفع عنها النصف أو الثلث . ويسمى هذا النظام (المقاسمة) تمييزا له عن النظام القديم الذى كان يعرف بالمحاسبة ، والذى كان يقضى بأن تجبى الضريبة بالنسبة لمساحة الأرض [1] .

واهتم المهدى بتخفيف الأعباء عن المزارعين ، بتخفيض الضرائب وتنظيم جباياتها . فقد كان الناس فى صدر الاسلام يؤدون ما فى أيديهم للخراج من دراهم ودنانير مضروبة على وزن كسرى وقيصر ، لا يفرّقون فى الأوزان ، فلما ساد فيهم العمران وأفسدهم التجار والصيارفة صاروا يؤدون الدينار الطبرى ،

---

(١) المصدر السابق .

الذى هو أربعة دوانيق ، ويمسكون الوافى ، الذى هو مثقال ، فلما تولى زياد بن أبيه صار يطلب الوافى ، ثم تولى الحجاج بن يوسف الثقفى فطلبه كذلك ، حتى اذا تولى الخليفة أبو جعفر المنصور أزال الخراج عن الحنطة والحبوب ، وصيَّره على الناس مقاسمة ، ولكن من غير أن يسقط الكسور . فلما تولى الخليفة المهدى قال : معاذ الله أن ألزم الناس ظلما فى ذلك ، فقيل له ان أسقط أمير المؤمنين هذا ذهب من أمواله فى السنة ١٢ مليون درهم ، فقال : علىَّ أن أقرر حقا وأزيل ظلما ، لأن العدل موفِّر" للجباية ، كفيل بعمران الأمصار [1] .

ويعلّق أحد الكتّاب [2] على سياسة المهدى فى الضرائب الزراعية فيقول : ولقد أعظمتُ للمهدى هذه المأثرة التى أحسبها من أجمل آثار العدل وأحسن سياسة الرفق ، فان لنا فى سقوط الدول التى قامت فى هذا المكان نفسه من النبط والكلدان وغيرهم ما يدلنا على أن الظلم يقتل العباد والبلاد جميعا ، فانما كان غرض الناس من الاجتماع تحت لوائهم القيام بأعمال الزراعة والمقام فى بلدان الخصب ، لِمَا يتسع بين أيديهم من أسباب الكسب والارتزاق ، وقد تناسلوا فى ظلال العدل ، وبلغوا من الكثرة فيما مضى من الزمن الغابر بحيث كانوا اذا اجتمعوا لحرب أو غزوة بلغوا ألوف من الخلائق ، ثم لمَّا غفلت الدولة عن مصلحتهم ، وأوقعت عليهم المكوس الفادحة لسد"

---

(١) الماوردى : الأحكام السلطانية ص ١٣٧

(١) المدور : حضارة الاسلام فى دار السلام ص ٦٩

ما دعتها اليه مطالب الترف ، لم يبق فى نفوسهم شىء من حب البلاد ، وهم لا يبتغون منها الا تحصيل القوت الذى يأتيهم على اجهـــاد النفس ، فضعفت فيهم أسباب الهمة ، ولم يكن للدولة طاقة على مردّ العدو بهم ، وقد ماتت نفوسهم من الظلم ، فخلت البلاد منهم ، والله يرث الأرض ومن عليها .

وكان أبو جعفر المنصور قد أقطع بعض رجالات دولته قطائع من الأرض ، يعمرونهـــا ويسكنونها مكافأة لهم على ما قدموه من خدمات جليلة . وكان المنصور قد استرد بعض هذه القطائع من بعضهم ممَّن غضب عليهم لأسباب سياسية ، فأعادها المهدى الى أصحابها مرة أخـــرى ، فعادوا الى بذل جهودهم لتنمية انتاجها ممَّا ادى الى وفرة المحصولات وازدياد الرخاء الاقتصادى .

وحفر المهدى عددا من الأنهـــار والترع ، نذكر منها نهر الصلة . كما أعاد حفر كثير من الأنهار التى كانت موجودة فى عصر البابليين ثم اندثرت وعفى عليها الزمان .

وكانت حاصلات العراق الرئيسية فى عصر المهدى ، تتكون من الشعير والقمح والأرز والبلح والسمسم والقطن والكتان . وكان السواد ، وهو السهل المغطى بالغرين الى الجنوب ، خصبا وينتج كميات عظيمة من الفـــاكهة والخضر مما تنتجه المنـــاطق الباردة والحارة على السواء ، وكانت هذه الأراضى تنتج بكثرة

البندق والبرتقال والباذنجان وقصب السكر والترمس عدا الأزهار كالورد والبنفسج [1] .

عناية المهدى بالتجارة :

وكما اهتم المهدى بالزراعة ، فقد نالت التجارة جانبا عظيما من عنايته ورعايته . فقد اتسعت الدولة العباسية ، وأصبحت أعظم دول العالم فى ذلك الحين ، وشملت أقاليم متنوعة البيئات والمناخ . وأدى هذا التنوع الى تنوع فى المحصولات الزراعية واختصاص كل اقليم بأنواع خاصة من المصنوعات ، وقامت حركة تبادل على نطاق واسع بين ولايات الدولة العباسية تحقيقا لسياسة الاكتفاء الذاتى . كما قامت حركة تجارية عالمية ، ترمى الى تبادل أنواع التجارة المختلفة مع دول العالم .

توغل التجار المسلمون فى الشرق حتى وصلوا الى الصين التى تقول الروايات العربية : انها كانت تدرك من البصرة منذ أيام الخليفة أبى جعفر المنصور . وكانت هذه التجارة عمادها الحرير ، وهو أقدم هدايا الصين الفاخرة الى الغرب ، وكانت المتاجر تتبع ما يسمى فى الغالب باسم « طريق الحرير الأعظم » ، وهو يمر بسمرقند والتركستان الصينية ، وهى منطقة لا يطرقها أحد من العالم المتمدين فى أيامنا هذه وكانت البضائع تحمل على التتابع اذ قل من القوافل ما كان يقطع المسافة كلها . أما فى

---

(١) حتى : تاريخ العرب ص ٤٤٠

الغرب فقد توغل هؤلاء التجار المسلمون حتى وصـــلوا الى المغرب الأقصى واسبانيا العربية .

وقد جاوز العرب فى العصر العباسى الأول جزيرة سيلان وبعد أن كان الصـــينيون حتى أوائل العصر العباسى الأول يجوبون بكثرة البحار الواقعة على ساحل الهند وفى الخليج الفارسى ، أصبح من النادر وجودهم فى الخليج الفارسى ، لأن العرب أخذوا يقومون برحلات طويلة ، حتى انهم وصلوا الى بلاد الصين . وقد اتخذ ميناء سيراف مرسى لهذه السفن ، التى كانت تعود محملة بالسلع الواردة من البصرة وعمان وغيرهما من هذه الجهات وتنقل تجارة العرب والفرس الى بلاد الصين [1] .

بعث المهدى جيوشه لغزو الهند ، مما فتح الطريق أمام التجارة العباسية . وأنشأ العرب على سواحل الهند وفى بعض مدنها جاليات عربية ، كما استولى العرب على بلاد الســـند ، واعتنق بعض أمراء ملبار الاسلام . وكانت سفن العرب والفرس تعرج على الهند فى طريقها الى الصين ، وتعود حاملة محصولاتها. وكانت عناية المهدى وسائر الخلفاء العباسيين بالتجارة ، وحرصهم على تبادلها وتيسير طرقها البرية والبحرية ، كان لها أكبر الأثر فى ترقية التجارة التى تقوم على تبادل المحاصيل ، كما مهّد السبيل أمام الرحّالة والكاشفين ، فكثرت رحلاتهم فى هذا العصر كثرة تدعو الى الاعجاب ، فوصفوا البلاد المختلفة وصفا دقيقا مبنيا على المشاهدة .

---

(١) حسن ابراهيم : تاريخ الاسلام جـ ٢ ص ٢٣٤

ازداد الرخاء فى بغداد فى عصر المهدى ، وكثرت الأموال فى أيدى الناس فأقبلوا على شراء الحاجات الضرورية والكمالية ، مما أدى الى رواج تجارى واسع النطاق . وأصبحت بغـداد مركزا للتجارة العالمية . كما كانت دمشق مركزا هاما للقوافل القادمة من آسيا الصـغرى أو من أقاليم الفرات الى الجزيرة العربيـة أو مصر . وكان الفـرات ودجلة طريقين تجـاريين عظيمين . وحفر المنصور عند بنائه بغداد قناة للملاحة تبدأ عند نهر الفرات ، وتخترق أراضى العراق حتى بغداد ، وربطت هذه القناة بغداد بآسيا الصغرى والشام والجزيرة العربية ومصر بطريق مائى الى جانب طرق القوافل العديدة التى كانت تربط بغداد بالأطراف الشرقية للدولة العباسية .

اهتم المهدى بتنظيم أسواق بغـداد ، ونقل معظمها الى الكرخ ، وجعل لكل حرفة سـوقا خاصة بها ، منها سـوق العطارين ، وسـوق القصابين ، وسوق البزازين ، وسـوق الرياحين ، وسوق الحدادين ، وسوق النجارين .

وكان حرص المهدى على التيسير على أهل الحجاز وتنمية مواردهم ــ كما مر بنا ــ عاملا على عودة النشاط التجارى الى بلاد الحجاز ، وخاصة فى مكة والمدينة ، فى موسم الحج . كما أدى اهتمام المهدى بانشاء الطرق بين بلاد العراق والحجاز واليمن ، ومدّها بالماء والاستراحات الى رحيل قوافل التجارة فى أمن وطمأنينة .

اهتمام المهدى بالصناعة :

وشملت النهضة الاقتصادية فى عهد المهدى ، نهضة الصناعة . وهذا النشاط التجارى الكبير الذى لمسناه ما كان ليقوم الا اذا اعتمد على انتاج زراعى وصناعى وفير .

استخرج الخلفاء العباسيون كثيرا من المعادن ، وخاصة الفضة والنحاس والرصاص والحديد من مناجم فارس وخراسان ، والحديد من مناجم قرب بيروت ، والخزف والمرمر من تبريز ، والملح والكبريت من شمالى فارس ، والقار والنفط من بلاد الكرج . وأصبحت هذه المعادن أساسا لصناعات معدنية كثيرة .

اشتهرت بلاد الشام بصناعة السجاجيد والطنافس والحرير والقطن والمنسوجات الصوفية والديباج ، وأوانى الطهى . ونبغ أهل الشام فى صناعة الزجاج ونقشه بالذهب والألوان الزاهية ، وبرعت دمشق فى المنسوجات الحريرية (الدمقس) .

وامتازت بلاد العراق بصناعة المنسوجات المختلفة ، وخاصة الحرير والأطلس ، والسجاجيد ، والورق . وبنى الخلفاء العباسيون دور الطراز فى فارس ، لعمل الملابس اللازمة لجندهم ورجال قصورهم ، ونقش أسماء الخلفاء عليها . واشتهرت خراسان بصناعة المنسوجات الصوفية والبسط والستور . واشتهرت مصر بصناعة المنسوجات والورق والمراكب النيلية .

أصبحت بغداد فى عهد المنصور والمهدى مركزا لكثير من الصناعات والأدوية والعقاقير والصياغة ، فقام بها عدد كبير

من دور الصناعة ، فكان بها أربعمائة رحا مائية ، وأربعة آلاف معمل لصنع الزجاج ، وثلاثون ألف معمل لصنع الخزف [1] .

تطور بغداد والرصافة والكرخ فى عهد المهدى :

حقا قامت بغداد فى عصر المنصـــور ، ولكن المهدى كان ساعد أبيه الأيمن فى انشائها ، كما أكمل المهدى ، عند توليه الخلافة ، معظم القصور والمبانى والأسواق التى بدأ المنصور بناءها ، ومات قبل اتمامها . وقد بدأ معظم منشئات بغداد فى سنة ١٥٧ هـ أو فى سنة ١٥٨ هـ ، وتوفى المنصور فى ذى الحجة من سنة ١٥٨ هـ ، فقام المهدى باتمام ما شرع المنصور فى بنائه .

فقد بدأ المنصـــور بناء قصر الخلد ، ومدينة الكرخ ، فى سنة ١٥٧ هـ ، وتوفى المنصور قبل الفراغ من البناء ، فتولى المهدى ذلك . كما عمل المهـــدى على تطوير منشئات أبيه ، واضفاء الجمال والفخامة عليها ، حتى أصبحت دليلا على عظمة الدولة العباسية . فقـــد كان المنصور حريصا على الأموال ، مقترا ، فكان يهتم بالجوهر أكثر مما يهتم بالمظهر . بينما كان المهدى كريما سخيا ، فاهتم بالزخرفة والفنون الجميلة ، ولذا تحولت مبانى بغداد الى قطعة فنية رائعة .

بدأ المنصـــور بناء حاضرته الجديدة ، بغـــداد ، فأحضر المهندســين والبنائين والعمّال من الشام والموصـــل والجزيرة

---

(١) أمين زكى : كتاب عمران بغداد ص ٥٠ ، حسن ابراهيم : تاريخ الاسلام جـ ٢ ص ٢٣١

والكوفة وواسط وبلاد الديلم ، وبلغ عددهم مائة ألف درهم ، واختار جماعة ممن يثق بفضـلهم وعدالتهم وعلمهم وأماناتهم ومعرفتهم بالهندسة والحساب ، وأجرى عليهم الأرزاق ، وأمر بضرب اللبن وطبخ الآجر . ووضع أساس بغداد فى الوقت الذى اختاره المنجمون ، واحتفل بوضع الحجر الأساسى لبناء بغداد احتفالا شائقا شهده رجال الدولة العباسية من الأمراء والوزراء والقواد والأعيان . وجعل المنصور حاضرته الجديدة مدورة ، وجعل داره وجامعه فى وسطها ، حتى لا يكون أحد أقرب اليه من الآخر ، وهو نوع جديد فى بناء المدن عند المسلمين ، ويبدو أنهم اقتبسوه من الفرس[1] .

توقف البناء فى بغداد ، فقد تفرغ المنصور للقضاء على ثورة عنيفة قام بها محمد النفس الزكية زعيم البيت العلوى فى بلاد الحجاز ، وأخوه ابراهيم فى البصرة سنة ١٤٥ هـ . حتى اذا أخمد المنصور الثورة العلوية وقضى على الأخوين ، عاد الى معاودة بناء حاضرته الجديدة .

بنى المنصور لبغداد سورين ، سور داخلى وآخر خارجى وحوله خندق عميق ملأه بالماء . وكان بالسور الخارجى أربعة أبواب ، باب الكوفة فى الجنوب الغـربى ، وباب البصرة فى الجنوب الشرقى ، وباب خراسان فى الشمال الشرقى على نهر دجلة ، وكان يسمى باب الدولة ، لأن خراسان هى عماد الدولة

(١) انظر تاريخ بغداد للخطيب البغدادى جـ ١ ص ٧٦ ، وتاريخ الاسلام جـ ٢ ص ٢٧٦

العباسية ، وباب الشام فى الشمال الغربى . ونقل المنصور بعض أبواب مدينة واسط التى كان قد بنـاها الحجاج بن يوسف الثقفى فى العصر الأموى . وبنى المنصور قصراً له سماه (قصر الذهب) ، وبنى جامعا فى مواجهته ، وأصبح القصر والجامع مركزا للدائرة . وازدحمت بغـداد بالأهالى وأرباب الحرف والتجار والصناع ، حتى ضاقت بسكانها ، ورأى المنصور أن يقيم خارج أسوار بغداد ، فبنى لنفسه سنة ١٥٧ هـ قصرا سماه قصر الخلد ، وقد أكمل المهدى بناءه .

قسَّم المنصور أرباض بغداد أربعة أقسام ، جعل على كل منها رئيسا ، وعهد الى كل رئيس منهم باقامة سوق فى القسم الذى يشرف عليه ، كما أمر أن تخط الشوارع والدروب بحيث تكون المبانى منتظمة ، وأن يسمى الشارع أو الدرب باسم القائد أو الرجل النابه الذكر الذى يقيم به ، كما تفعل المجالس البلدية الآن ، وسرعان ما عمرت الأرباض وكثرت فيها المساجد والحمامات [1] .

أما الرصافة ، فقد كان المهدى سببا فى ظهور فكرة بنائها ، وبدأ المنصور فى اقامتها ، ولم يتم بناؤها الا فى خلافة المهدى .

فقد كان المهدى قد خرج الى خراسان لاخماد عدة ثورات قامت بها ، وقد مر بنا الحديث عنها ، ثم ولاّه أبوه المنصور حكم خراسان ، فأقام بها سـنوات قليلة ، ثم عاد على رأس

---

(١) تاريخ الاسلام جـ ٢ ص ٢٨١

جيشه الى بغداد ، ففكر المنصور فى أن يبنى الرصافة ليقيم فيها المهدى مع جيشه .

روى الطبرى [1] : « أن المهدى لما قدم من خراسان أمره المنصور بالمقام بالجانب الشرقى وبنى له الرصافة ، وعمل لها سورا وخندقا ، وميدانا وبستانا ، وأجرى له الماء فكان يجرى من نهر المهدى الى الرصافة » .

حقق بناء بغداد الغرض الذى قصده المنصور وهو منع الوصول اليه ، الا أنه لم يحل دون ما قد يحدث اذا شغب الجند عليه . وقد مر المنصور بتجربة قاسية ، فقد ثار عليه بعض جنده وحاربوه عند باب الذهب ، وهو أحد أبواب بغداد ، ولذا نصحه أحد رجاله ببناء مدينة جديدة يقيم فيها جنده ليكون بمأمن من شغبهم وثورتهم .

التقى قثم بن العباس بن عبيد الله بن العباس ، وهو يومئذ شيخ كبير مقدم عند القوم ، بالمنصور ، فقال المنصور له : أما ترى ما نحن فيه من التياث الجند علينا ، قد خفت أن تجتمع كلمتهم فيخرج هذا الأمر من أيدينا ، فما ترى ؟ فقال قثم : يا أمير المؤمنين ، عندى فى هذا رأى ، ان أنا أظهرته لك فسد ، وان تركتنى أمضيته صلحت لك خلافتك وهابك جندك . ثم تقدم قثم بنصيحة للمنصور فقال : قد فرّقت بين جندك وجعلتهم أحزابا كل حزب منهم يخاف أن يحدث عليك حدثا

---

(١) الطبرى جـ ٦ ص ٢٩٢

فتضربه بالحزب الآخر ، وقد بقى عليك فى التدبير بقية . فسأله المنصور : ما هى ؟ فقال قثم : أعبر بابنك — أى المهدى — فأنزله فى ذلك الجانب قصرا وحوله وحول من جيشك معه قوما فيصير ذلك بلدا وهذا بلداً ، فان فسد عليك أهل هذا الجانب ضربتهم بأهل ذلك الجانب ، وان فسدت عليك مضر ضربتها باليمن وربيعة والخراسانية ، وان فسدت عليك اليمن ضربتها بمن أطاعك من مضر وغيرها [1] .

وهكذا اتخذت الرصافة فى بداية أمرها ثكنات للجند ، وسميت (رصافة بغداد) أو (بغداد الشرقية) لوقوعها فى شرق بغداد . وتمّ بناؤها فى سنة ١٥٩ هـ فى خلافة المهدى . وتطورت الرصافة فى عهد المهدى فأصبحت مدينة عامرة ، تضاهى بغداد فى اتساعها وعمرانها ، وتكاد تكون مدينة مستقلة ، وقامت فيها الميادين المتسعة ، والمبانى الفخمة ، وانتشرت فيها الحدائق والمتنزهات .

أما مدينة الكرخ ، فقد شرع المنصور فى بنائها ، وتم تشييدها فى عصر ابنه المهدى . وكان المنصور قد أقام أسواق بغداد داخلها ، ثم حدث أن قدم عليه أحد بطارقة الروم ، فطلب المنصور من حاجبه الربيع بن يونس أن يطوف بالضيف فى بغداد ، ليرى معالمها وأسوارها ، وأبوابها وأسواقها . حتى اذا عاد البطريق من جولته أراد المنصور أن يقف منه على رأيه

---

(١) الطبرى جـ ٦ ص ٢٩٢ — ٢٩٣

فى حاضرته الجديدة ، فأجاب البطريق فى صراحة : يا أمير المؤمنين انك بنيت بناء لم يبنه أحد كان قبلك ، وفيه ثلاثة عيوب : أما أول عيب فيه فبعده عن الماء ، ولا بد للناس من الماء لشفاههم ، وأما العيب الثانى فان العين خضرة وتشتاق الى الخضرة ، وليس فى بنائك هذا بستان ، وأما العيب الثالث فان رعيتك معك فى بنائه ، واذا كانت الرعية مع الملك فى بنائه فشا سره .

وكان المنصور معجبا بحاضرته الجديدة ، ويعتقد أنها بلغت الكمال فى الانشاء والتشييد ، ولذا دافع عن بغداد فقال للبطريق : أما قولك فى الماء فحسبنا من الماء ما بلّ شفاهنا ، وأما العيب الثانى فاننا لم نخلق للهو واللعب ، وأما قولك فى سرى فما لى سر دون رعيتى ! ولكن المنصور أدرك حقيقة العيوب التى كشفها له هذا البطريق ، ولذا ما كاد يغادر مجلسه حتى دعا باثنين من رجاله وأمرهما باصلاح العيوب ، فقال لهما : مدا الىّ قناتين من دجلة ، واغرسا لى العباسية ، وانقلا الناس الى الكرخ[1] .

وأمر المنصور حاجبه الربيع بن يونس ببناء الكرخ سنة ١٥٧ هـ ، وأن ينقل اليها أسواق بغداد ، ووضع له تصميما للكرخ على رقعة قماش ، وحدد له الأمكنة الجديدة للأسواق ، وأمره ببناء مسجد ومساكن لأهل الأسواق حتى لا يدخلوا بغداد .

---

(٢) ياقوت : معجم البلدان (لفظ بغداد) .

بدأ الربيع فى تنفيذ أوامر الخليفة فى اقامة الكرخ ، ولكن المنصور مات سنة ١٥٨ هـ قبل أن يتم البناء ، وقام ابنه الخليفة المهدى باتمام تشييد الكرخ من أمواله الخاصة ، وعهد الى الربيع ابن يونس الذى أصبح حاجب المهدى أيضا ، بأن يتم ما شرع فى بنائه فى عهد أبيه .

وكانت الفكرة الأولى فى عهد المنصور أن تصبح الكرخ مقرا لأسواق بغداد ، ولكن الكرخ تطورت فى عهد الخليفة المهدى فأصبحت مدينة عامرة ، وبعد أن كانت منطقة محدودة تقع جنوب بغداد بين الصراة ونهر عيسى ، اتسعت فى عهد المهدى وامتدت حتى أصبحت فى وسط بغداد .

وصف ياقوت الحموى [1] مدينة بغداد فقال : « بغداد جنة الأرض ، ومدينة السلام ، وقبة الاسلام ، ومجمع الرافدين ، وغرّة البلاد ، وعين العراق ، ودار الخلافة ، ومجمع المحاسن والطيبات ، ومعدن الظرائف واللطائف ، وبها أرباب الغايات فى كل فن ، وآحاد الدهر فى كل نوع » .

وأنشد طاهر بن المظفر بن طاهر الخازن هـذين البيتين ، يصف فيهما مدينة بغداد وقصر الخلد ، ومدينة الكرخ :

سقى الله سقى الغاديات محلة
ببغداد بين الخلد والكرخ والجسر
هى البلدة الحسناء خصت لأهلها
بأشياء لم يجمعن مذ كن فى مصر

---

(١) معجم البلدان (لفظ بغداد) .

حضارة بغداد فى خلافة المهدى :

أصبحت بغداد ، عاصمة الدولة العباسية ، مركزا من مراكز الحضارة فى العالم . فقد استقرت الأحوال الداخلية فى الدولة ، وبدأ المهدى يجنى ثمار جهود أبيه المنصور وعمه أبى العباس ، فانتشر الرخاء والأمن والسلام ، وارتقت الفنون والآداب والعلوم ، وحفلت بغداد بالشعراء والأدباء والعلماء والموسيقيين والمطربين ، وتبارى وجوه بغداد فى انشاء القصور الفخمة وجذب الشعراء اليهم ليمتدحوهم بقصائد عصماء .

كان المهدى يتنقل بين قصر الذهب الذى أنشأه المنصور فى وسط بغداد ، وبين قصر الخلد الذى أتم المهدى بناءه على الشاطىء الغربى لنهر دجلة ، واهتم المهدى بزخرفته وتجميله ، وسمّاه (الخلد) تشبيها له بجنة الخلد . وبنى وجوه بغداد حوله قصورهم ، حتى قامت ضاحية تسمى (الخلد) . وأقام المهدى فى القصر عرشا سمّاه (مجلس الأمير) قامت فيه أعمدة الرخام المجزع ويحيط بها قضبان من ذهب . وفرش المهدى هذا المجلس بالبسط والديباج ، وقد نقش عليها أبياتا من الشعر تمدح الخليفة . وحول العرش اصطفت مقاعد مرصعة باللؤلؤ يجلس عليها رجالات الدولة . وكان المهدى يجلس على عرشه داخل قبة مفروشة بأفخر أنواع الحرير المطعم بالخيوط الذهبية .

اتبع العباسيون فى مبانيهم الطراز الفارسى غالبا ، والطراز الرومانى الذى شهدوه فى بلاد الشـــام أحيانا . وكان البناء

بالآجر المغطى بالكلس . وكانت قصـــور الأغنياء تشمل ثلاثة أقسام هى : مقاصير الحرم ، وحجرات الخدم ، وأماكن للضيافة ، ويحيط بالقصور حدائق يانعة ، تحفل بالأزهار والفاكهة. وزيّنوا أسطح قصورهم بقبـــاب مرفوعة على عمد دقيقة فتظهر للعين كأنها معلقة فى الفضاء ، ويحيط بكل قصر سور واحد . أما دور العامة فكانت تشرف على الشوارع مباشرة دون أن يحيط بها سور . وحفلت بغداد بالمبانى الشاهقة التى تتألف من عدة طوابق ، وفرشـــت بأثمن الأثاث والرياش التى جلبت من كل مكان فى العالم . وكانت قصور البرامكة فى عهد المهدى من أجمل قصور بغداد ، واشتهر القصر الذى بناه محمد بن سليمان فى البصرة وذاع صيته بين الناس . وكان العباسيون يقلدون الفرس فى تخفيف حرارة الشمس فى الصيف فيعملون لبيوتهم سقوفا من الطين يجددونها فى كل يوم يقضى الخليفة القيلولة فيه [1] .

كان قصر الخليفة بما يحيط به من ملحقات للحريم والخصيان وموظفى الخاصة يشغل ثلث بغداد . وكانت قاعة الاجتماعات بما فيها من بسط وستور ووسائد من أحسن ما أنتجه الشرق ، ذات تأثير خاص فى النفس ، ولها روعة كبيرة . وكانت بغداد تأخذ زينتها ويبدو ثراؤها فى المناسبات ، وخاصة فى الاحتفالات كالاحتفال بتولى الخليفة أو حفلات الزواج أو الحج أو استقبال

---

(١) المدور : حضارة الاسلام فى دار السلام ص ٩٢ وما بعدها .

السفراء الأجانب . وكان يلى الخليفة فى حيـــاة البذخ أفراد الأسرة العباسية والوزراء والرؤســـاء والموظفون وغيرهم من الأتباع الذين كانوا يملأون قصر الخلافة . وكان أفراد البيت الهاشمى ، الذى ينتمى اليه العباســـيون ، يتلقون باتنظام من خزانة الدولة أعطيات ، وظل الحال كذلك حتى عهد المعتصم [1] .

واهتم المهدى بتنظيم بغداد ونظافة شوارعها وطرقهـــا ، فكانت الرحاب تُكنس كل يوم ، ويُحمل التراب الى خارج المدينة .

كان العباسيون يعنون بتنويع الطعام . وكان أبو جعفـــر المنصور يقبل على الطعام ولا يستمع الى نصيحة أطبائه مما أدّى الى ضعف صحته وموته . كما اهتم المهدى بنصب الموائد الفاخرة فى المناسبات العامة ، واستضافة كثير من رعاياه ، فى كرم وسخاء . وقد تحدثنا عن الموائد التى نصبها المهدى لوجوه مكة ، وقد حفلت بأنواع الطعام الفاخر ، وخاصة بالطيور وخبز السميذ ، وجلب المهدى لضيوفه الثلج من بلاد الشام لأول مرة الى مكة .

انتشرت الأزياء الفارسية فى مدينة بغداد منذ مطلع الدولة العباسية ، حتى أصبح اللباس الفارسى لباس البلاط الرسمى ، فقد قرر أبو جعفر المنصور لبس القلانس ، وهى القبعات السود

---

(١) حتى : تاريخ العرب ص ٣٧٧

الطويلة المخروطة الشكل ، بصفة رسمية ، كما أدخل استعمال الملابس المحلاة بالذهب ، وغدا خلعهـا على النـاس من حق الخليفة ، وحذا المهدى حذو أبيه المنصور .

وكان لباس الخليفة العباسى فى المواكب القباء الأسود أو البنفسجى الذى يصل الى الركبة ، ويتمنطق بمنطقة مرصـعة بالجواهر ، ويتشح بعباءة سوداء ، ويلبس قلنسوة طويلة مزينة بجوهرة عالية . وكان الأمراء والنبـلاء يقلدون الخلفـاء فى ملابسهم . أما الخلفـاء والقضاة فكانوا يلبسـون العمـامة والطيلسان ، مقتدين فى ذلك بالرسول صلى الله عليه وسلم ، كما كانوا يلبسون قلنسوة طويلة ، حولهـا عمامة ذات لون أسود ، وهذا اللون هو شعار العباسيين . وكان اللباس العادى للطبقة الراقية فى العهد العباسى يشتمل على سروالة فضفاضة ، وقميص ودراعة وسترة وقفطان وقباء وقلنسوة . أما لبـاس العامة فيشتمل على ازار وقميص ودراعة وسترة طويلة وحزام ، وكانوا ينتعلون الأحذية والنعال[1] .

أما ملابس النساء ، فتكونت من ملاءة فضفاضة وقميص مشقوق عند الرقبة ، يحلّيه رداء قصير ضيق يلبس عادة فى البرد . وكانت المرأة العربية اذا خرجت من بيتها ترتدى ملاءة طويلة تغطى جسمها ، وتقى ملابسها من التراب ، وتلف رأسها بمنديل يربط فوق الرقبة . وقد تطورت ملابس النساء فى العهد

---

(١) حسن ابراهيم : تاريخ الاسلام جـ ٢ ص ٣١١

العباسى تطورا كبيرا عما كانت عليه فى العصر الأموى ، اذ اتخذت سيدات الطبقة الراقية غطاء للرأس (البرنس) مرصعا بالجواهر ، محلّى بسلسلة ذهبية مطعمة بالأحجار الكريمة . ويعزى ابتكار هذا الغطاء الى علية بنت المهدى [1] .

شهدت طرقات بغداد مواكب الخليفة المهدى ، وقد فاقت مواكب الخلفاء العباسيين أسلافهم الخلفاء الأمويين . فى أيام الجمع يبدأ الموكب بسير حراس الخليفة حاملين الأعلام ، ثم يليهم أمراء البيت العباسى على الخيول المطهمة ، ثم الخليفة ممتطيا جوادا شديد البياض ، وبين يديه كبار رجال الدولة . وكان الخليفة يلبس فى تلك المواكب القباء الأسود ، ويتمنطق بمنطقة مرصعة بالجواهر ، ويتشح بعباءة سوداء ، ويلبس قلنسوة طويلة مزينة بجوهرة عالية ، وبيده قضيب الرسول صلى الله عليه وسلم ، وخاتم الخلافة ، ويتدلى على صدره سلسلة ذهبية مرصعة بالجواهر النفيسة . وكان من مظاهر سيادة الخليفة فى بغداد أن يُضرب على باب قصره بالطبول والدبادب والأبواق فى أوقات الصلاة . ومن أعظم مواكب المهدى موكبه عندخروجه الى الحج ، حيث يجتمع ببغداد الحجاج من مختلف الأقطار الاسلامية الشرقية ، وخاصة أهل العراق وفارس وخراسان وغيرها .

وكان المهدى يحمل معه فى موكبه بِدَر الدراهم والدنانير ،

---

(١) حسن ابراهيم : تاريخ الاسلام ج ٢ ص ٣١١

فلا يتعرض له أحد الا أعطاه ، فكان أرباب الدولة يخافون نفاد ما فى بيت المال ، وخاصة أن المهدى أمر بتخفيف الضرائب مما أدى الى نقص ايرادات بيت المال . وكثيرا ما يتوقف موكب المهدى للاستماع الى شكوى أحد رعاياه .

اهتم الخلفاء العباسيون بحفلات الزواج ، وشهدت بغداد ليلة حافلة ، حينما احتفل الخليفة المهدى بزواج ابنه هارون الرشيد بالسيدة زبيدة ، فقد أقام يوم زفافهما وليمة لم يسبقه اليها أحد فى العصر الاسلامى ، ووهب للناس فى هـذا اليوم أوانى الذهب مملوءة بالفضة ، وأوانى الفضة مملوءة بالذهب والمسك والعنبر ، وزين العروس بكثير من الحلى والجواهر ، حتى أنها لم تقدر على المشى لكثرة ما عليها من هـذه الحلى والجواهر . وأنفق المهدى على احتفاله بزواج هارون مليونا و ٣٨٨ ألف دينار من أمواله الخاصة ، عدا ما أنفقه هارون . أما السيدة زبيدة فقد قدرت نفقات ليلة الاحتفال بزواجها من الرشيد بمبلغ يتراوح بين ٣٥ و ٣٧ مليون دينار .

احتفل المهدى بالأعياد الاسلامية احتفالا دينيا ، فكان يؤم الناس فى الصلاة ، ويلقى خطبة بليغة فى فضائل العيد ، وكان المهدى فصيحا بليغا ، فيحث المسلمين على التمسـك بتعاليم الاسلام ، فقد كان المهدى متدينا تقيا ورعا . وكانت بغـداد تسطع بالأنوار فى ليالى العيد ، وتتجاوب أصـوات المسلمين بالتهليـل والتكبير ، وتزدحم دجلة بالزوارق المزينـة بأبهى

الزينات ، وتسطع من جوانبها أنوار القناديل . وتتلألأ الأنوار الساطعة من قصور المهدى ، وخاصة قصر الذهب وقصر الخلد .

كما احتفل المهدى بالأعياد الفارسية مجاملة لرعاياه من أهل فارس وخراسان ومشاركة لهم فى أعيادهم . فقد كانت الدولة العباسية تعتمد على الفرس والخراسانيين . ومن أشهر هذه الأعياد النوروز والمهرجان . أما النوروز فهو أول أيام السنة عند الفرس ، ويقع عند أول الربيع ، أما المهرجان فهو آخر السنة الفارسية ، ويوافق غالبا أول الشتاء .

حكومة المهدى

نظام الخلافة فى عهد المهدى :

كان الخليفة العباسى يقوم على رأس الحكومة باعتبـاره مصدر كل السلطات . وقد كان من حقه أن يعهد بممارسة سلطته المدنية الى وزير ، وسلطته القضائية الى قاض ، ووظيفته الحربية الى قائد أو أمير . ولكن الخليفة نفسه رغم كل هذا العهد ، كان يظل أبدا الملجأ الأخير فى كل شئون الحكومة . وقد اقتفى خلفاء بغداد الأول فى وظيفتهم وسلوكهم أثر الفرس القدماء [1] .

وضع أبو جعفر المنصور أساس النظام السياسى الذى سارت عليه الدولة العباسية فى العصر العباسى الأول ، وهو النظـام الذى كان منتشرا فى الشرق ، وكان مألوفا عند الفرس منذ أيام (اكزركيس) ، وبذلك تمكن العباسيون من أن يحكموا البلاد على النحو الذى كان يحكم به آل ساسان من قبل .

وبقيام الدولة العباسية تطور نظام الخلافة . فان تلك الدولة التى قامت على كواهل الفرس الذين سخطوا على الأمويين لعدم تسويتهم بالعرب فى الحقوق السياسية والاجتماعية ، مع منافاة

---

(١) حتى : تاريخ العرب ص ٣٩٥

ذلك لحق المساواة الذى أقرّه القرآن والسنة بين البشر . وقد حذا العباسيون حذو الأمويين فى تولية العهد لأبنائهم .

وكان الفرس يقولون بنظرية الحق الملكى المقدس [1] ، بمعنى أن كل رجل لا ينتسب الى البيت المالك ويتولى المُلك يُعتبر مغتصبا لحق غيره . لذلك أصبح الخليفة العباسى فى نظرهم يحكم بتفويض من الله لا من الشعب ، ويتجلى هذا واضحا فى قول أبى جعفر المنصور : « انما أنا سلطان الله فى أرضه » . وذلك ما يخالف ماكان عليه الخلفاء الراشدون الذين استمدوا سلطانهم من الشعب . يدل على ذلك قول أبى بكر عقب توليته الخلافة : « ان أحسنت فأعينونى ، وان أسأت فقومونى » . وقول الخليفة الأموى عمر بن عبد العزيز : « لست بخير من أحدكم ولكنى أثقلكم حملا » [2] .

تحدث السيد أمير على عن نظام الخلافة فى العصر العباسى الأول الى عهد الرشيد ، فقال : لقد ظل نظام الحكم فى الدولة العباسية استبداديا الى عهد الرشـــيد ، وعلى الرغم من أن أصحاب الدواوين أو البارزين من أفراد البيت العباسى كانوا بمثابة مستشارين غير رسميين . أما الخليفة فكان مصدر كل قوة ، كما كان مرجعا لكل الأوامر المتعلقة بادارة الدولة [3] .

استفاد العباسيون من حركة الرجعية التى قامت ضد بعض

---

(1) The Divine Right of Kings.

(٢) حسن ابراهيم : النظم الاسلامية ص ٢٠٥

(٣) سيد أمير على : مختصر تاريخ العرب .

الخلفاء الأمويين غير الأتقياء ، فطبع الخلفاء العباسيون من أول خلافتهم أنفسهم بالطابع الديني ، وأحاطوها بالوقار الذي تستلزمه مظاهرهم باعتبارهم أئمة [1] .

صبغ الخلفاء العباسيون خلافتهم بصبغة دينية ، ورأينا النزعة الدينية عند الخلفاء العباسيين الأولين واضحة جلية ، ورأينا اتصال الخلفاء بالعلماء ورجال الدين أقوى وأوضح ، فأبو جعفر المنصور يقرب العلماء والفقهاء ويصلهم ، والمهدي يشتد على الزنادقة وينشيء ديوانا للتنكيل بهم وعقابهم ، ويهتم بالأماكن المقدسة في الحجاز ، ويروي الأحاديث النبوية ، وغير ذلك مما سنفصّل الحديث عنه في فصل (المهدي نصير الدين والعلم) .

وحرص الخلفاء العباسيون على ارتداء بردة الرسول صلى الله عليه وسلم عند تولي الخلافة ، أو في الحفلات الدينية ، باعتبار الخليفة نائبا عن الرسول في حكم المسلمين . كما تلقب الخليفة العباسي بلقب (امام) توكيدا للمعنى الديني في خلافة العباسيين ، بعد أن كان يُطلق هذا اللقب في عصر الخلفاء الراشدين والأمويين على من يؤم الناس في الصلاة ، على حين كان الشيعيون يطلقونه على أفراد البيت العلوي الذين كانوا يعتقدون أنهم أحق بالخلافة من سواهم . وبعد أن صارت الخلافة العباسية تستند الى نظرية الحق الالهي ، قرب الخلفاء اليهم

---

(١) حتى : تاريخ العرب ص ٣٩٤

العلماء ورجال الدين لينشروا بين الناس هذه النظرية التى أصبح لها شأن فى الحياة السياسية فى الدولة العباسية [1] .

المهدى يولى ابنه عهده :

تحولت الخلافة فى عهد الأمويين من نظام الشورى والانتخاب الى النظام الملكى الوراثى ، فقد بايع معاوية بن أبى سفيان لابنه يزيد بولاية العهد دون أبناء الصحابة ، مثل الحسين بن على وعبد الله بن الزبير وعبد الله بن عمر وعبد الله ابن العباس ، وغيرهم . وكان الخلفاء الأمويون يولون العهد أحيانا لأكثر من واحد .

واتبع العباسيون هذا النظام وغالوا فيه ، فقد عهد أبو العباس السفاح (١٣٢ — ١٣٦ هـ) بالخلافة الى أخيه أبى جعفر المنصور (١٣٦ — ١٥٨ هـ) ، ثم الى ابن أخيه عيسى بن موسى بن على ابن عبد الله بن عباس . فلما تولى المنصور خلع عيسى بن موسى ، وبايع لابنه المهدى ، ثم لعيسى من بعده . ولما تولى المهدى الخلافة (١٥٨ — ١٦٩ هـ) خلع عيسى بن موسى من ولاية العهد ، وولّى ولديه الهادى ثم هارون الرشيد . كذلك أراد الهادى (١٦٩ — ١٧٠ هـ) خلع أخيه هارون والبيعة لابنه جعفر ، مثلما فعل المهدى مع عيسى بن موسى ، لولا أن مات الهادى قبل أن يضع مشروعه حيِّز التنفيذ .

ويعلق الدكتور حتى [2] على نظام ولاية العهد فى العصر

---

(١) حسن ابراهيم : تاريخ الاسلام جـ ٢ ص ١٩٥
(٢) حتى : تاريخ العرب ص ٣٩٤

العباسي فيقول : ولقد حذا العباسيون حذو الأمويين فى نظام الوراثة غير الواضحة المعالم ، وكانت نتيجته سيئة عليهم ، كما كانت سيئة على أسلافهم الأمويين . وكان الخليفة المتولى الحكم يعين أحد أبنائه ، ممن كان يحبهم أو يرى فيهم الكفاية ، وليًّا للعهد من بعده ، كما كان فى بعض الأحيان يعين أحد أقربائه وليًّا للعهد اذا كان يرى أن صفاته تؤهله لذلك .

تحدث المؤرخ ابن طباطبا [1] عن اقتداء المهدى بأبيه المنصور فى خلع عيسى بن موسى وتولية ابنه الهادى ، فقال : « ولمَّا ولى المهدى الخلافة جدّد الكلام فى خلع عيسى بن موسى والبيعة لولديه موسى الهادى وهارون الرشيد ، فقد تقدم شرح كيفية خلعه فى أيام المنصور ، وأنه قدّم المهدى عليه ، فلما ولى المهدى أراد لبنيه ما أراد المنصور له ، فطلب من عيسى بن موسى أن يخلع نفسه ، فأبى فأرهبه وأرغبه ، حتى أجاب وأشهد عليه بالخلع وبايع لولديه الهادى والرشيد » .

وصف المؤرخ الطبرى [2] اليوم الذى أخذ فيه المهدى البيعة لابنه موسى بولاية العهد ، وصفا يعدّنا بصورة عن المراسيم العباسية المتّبعة عن تولية ولى العهد : « أذن المهدى لأهل بيته ، ثم أخذ بيعتهم رجلا رجلا لنفسه ، ولموسى بن المهدى من بعده ، حتى أتى الى آخرهم . ثم خرج الى مسجد الجماعة بالرصافة فقعد على المنبر ، وصعد موسى حتى كأنه دونه ، وقام

---

(١) الفخرى ص ١٦٢

(٢) الطبرى ج ٦ ص ٣٦٠

عيسى على أول عتبة من المنبر ، فحمد الله المهدىُّ وأثنى عليه وصلّى على النبى صلى الله عليه وسلم ، وأخبر بما أجمع عليه أهل بيته وشيعته وقواده وأنصاره وغيرهم من أهل خراسان من خلع عيسى بن موسى ، وتصيير الأمر الذى كان عقد له فى أعناق الناس لموسى ابن أمير المؤمنين لاختيارهم له ورضاهم به ، وما رأى من اجابتهم الى ذلك ، لما رجا من مصلحتهم وألفتهم ، وخاف مخالفتهم فى نياتهم واختلاف كلمتهم ، وأن عيسى قد خلع تقدّمه وحلّلهم مما كان له من البيعة فى أعناقهم ، وأن ما كان له من ذلك فقد صار لموسى ابن أمير المؤمنين ، بعقد من أمير المؤمنين وأهل بيته وشيعته فى ذلك ، وأن موسى عامل فيهم بكتاب الله وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم بأحسن السيرة وأعدلها ... وجلس موسى دونه معتزلا للمنبر لئلا يحول بينه وبين من صعد اليه يبايعه ويمسح على يده ، ولا يستر وجهه ، وثبت عيسى قائما فى مكانه ، وقرىء عليه كتاب ذكر الخلع له وخروجه مما كان اليه من ولاية العهد وتحليله جماعة من كان له فى عنقه بيعة مما عقدوا له فى أعناقهم ، وأن ذلك من فعله وهو طائع غير مكره راض غير ساخط ، محب غير مجبر ، فأقرّ عيسى بذلك . ثم صعد فبايع المهدى ، ومسح على يده ، ثم انصرف .

وبايع أهل بيت المهدى على أسنانهم ، يبايعون المهدى ، ثم موسى ، ويمسحون على أيديهما ، حتى فرغ آخرهم ، وفعل من حضر من أصحابه ، ووجوه القواد والشيعة مثل ذلك .

ثم نزل المهدى ، فصار الى منزله ووكّل ببيعة من بقى من الخاصة والعامة ، خاله يزيد بن منصور ، فتولى ذلك ، حتى فرغ من جميع الناس ، ووفى المهدى لعيسى بما أعطاه وأرضاه مما خلعه منه من ولاية العهد ، وكتب عليه بخلعه اياه كتابا أشهد عليه فيه جماعة أهل بيته وصحابته وجميع شيعته وكتّابه وجنده فى الدواوين ، ليكون حجّة على عيسى ، وقطعا لقوله ودعواه فيما خرج منه » .

وسجّل شاعر المهدى ، مروان بن أبى حفصة ، يوم البيعة لموسى الهادى بولاية العهد ، فى شعره ، فأنشد [1] :

عقدت لموسى بالرصافة بيعة
شدّ الالهُ بها عُرى الاسلام
موسى الذى عرفت قريشٌ فضله
ولها فضيلتها على الأقوام
بمحمد بعد النبى محمد
حَيِىَ الحلال ومات كل حرام
مهدىٌّ أمّته الذى أمست به
للذلّ آمنة وللاعدام
موسى ولى عهد الخلافة بعده
جفت بذاك مواقع الأقلام

وروى المؤرخ الطبرى [2] أن المهدى فكّر فى أواخر عهده

(1) السيوطى : تاريخ الخلفاء ص ٢٧٤
(2) الطبرى ج ٦ ص ٣٩١

فى تقديم ابنه هارون الرشيد على ابنه الأكبر موسى الهادى الذى كان قد بايع له بولاية العهد بعد خلع عيسى بن موسى ، وأن هذا المشروع لم يتم بسبب وفاة المهدى . فقال الطبرى : « ذكر أن المهدى كان فى آخر أمره قد عزم على تقديم هارون ابنه على ابنه موسى الهادى ، وبعث اليه وهو بجرجان بعض أهل بيته ، ليقطع أمر البيعة ، ويقدِّم الرشيد ، فلم يفعل . فبعث اليه المهدى بعض الموالى ، فامتنع عليه موسى من القدوم ، وضرب الرسول ، فخرج المهدى بسبب موسى ، وهو يريده بجرجان ، فأصابه ما أصابه » .

نظام الوزارة فى عهد المهدى :

كانت كلمة (وزير) معروفة للعرب قبل الفتوحات الاسلامية ، ففى القرآن الكريم على لسان موسى (واجعل لى وزيرا من أهلى هارون أخى) . وفى حديث السقيفة « نحن الأمراء وأنتم الوزراء » . وفى طبقات ابن سعد : « ان أبا بكر كان وزيرا للنبى صلى الله عليه وسلم » . وفى الدولة الأموية كان اللفظ مستعملا ، يقول الطبرى : « ان زيادا كان يسمِّيه معاوية وزيرا » .

ولكن الكلمة فى كل المواضع لم تستعمل فى المعنى الاصطلاحى الذى نعرفه الآن من كلمة الوزير ، وانما هى بمعنى المؤازر المناصر . قال ابن خلكان : « وقد اختلف أرباب اللغة فى اشتقاق الوزارة على قولين : أحدهما أنها من الوزر وهو

الحمل ، فكأن الوزير قد حمل عن السلطان الثقل ، وهذا قول ابن قتيبة . والثاني أنها من الوَزَر وهو الجبل يعتصم به ليُنجي به من الهلاك ، وكذلك الوزير معناه : الذى يعتمد عليه الخليفة أو السلطان ، ويلتجىء الى رأيه ، وهو قول أبى اسحاق الزجَّاج » .

ويرجح المرحوم الأستاذ أحمد أمين [1] أن أصل الكلمة عربى ، ولا يوافق على ما ذهب اليه بعض المستشرقين من أن أصل الكلمة فهلوى مأخوذ من (ڤيشيرا Vi-chira) ومعناه الأمر أو التقرير .

لم تكن كلمة وزير بدعا فى العصر العباسى ، انما المبتدع هو انشاء هذا المنصب واعطاء صاحبه السلطة الرسمية ، وتلقيبه بهذا الاسم ، وهذا المنصب فارسى ولم يكن معروفا قبل العباسيين .

قال ابن خلكان فى ترجمة أبى سلمة الخلال : ان أبا سلمة أول من وقع عليه اسم الوزير ، وشُهر بالوزارة فى دولة بنى العباس ، ولم يكن قبله من يُعرف بهذا الاسم ، لا فى دولة بنى أمية ولا فى غيرها من الدول .

اقتبس الخلفاء العباسيون نظم الحكم فى دولتهم عن الفرس ، ومنها الوزارة . وكان الوزير فى عهدهم ساعد الخليفة الأيمن ، يقضى باسمه فى جميع شئون الدولة ، فكان له الحق فى تنصيب

---

(١) ضحى الاسلام جـ ١ ص ١٧٢

العمال والاشراف على الضرائب ، فكان بذلك ينوب عن الخليفة فى حكم البلاد ، ويجمع فى شخصه بين السلطتين المدنية والحربية ، بجانب الواجبات العادية من نصح الخليفة ومساعدته [1] .

تحدث المؤرخ ابن طباطبا عن نظام الوزارة فى العصر العباسى الأول ، فقال : « الوزير وسيط بين الملك ورعيته ، فيجب أن يكون فى طبعه شطر يناسب طباع الملوك ، وشطر يناسب طباع العوام ، ليعامل كلا من الفريقين بما يوجب له القبول والمحبة ... والوزارة لم تتمهد قواعدها ، وتتقرر قوانينها الا فى دولة بنى العباس . فأما قبل ذلك فلم تكن متفننة القواعد ، ولا مقرَّرة القوانين ، بل كان لكل واحد من الملوك أتباع وحاشية ، فاذا حدث أمر استشار ذوى الحجا والآراء الصائبة ، فكل منهم يجرى مجرى وزير ، فلما ملك بنو العباس تقررت قوانين الوزارة ، وسمِّى الوزير وزيرا ، وكان قبل ذلك يسمى كاتبا أو مشيرا » .

وفصَّل ابن خلدون [2] واجبات الوزير وأعماله فى العصر العباسى ، فقال : « فلما جاءت دولة بنى العباس ، واستفحل المُلك وعظمت مراتبه وارتفعت ، عظم شأن الوزير ، وصارت اليه النيابة فى انفاذ الحل والعقد ، وتعيَّنت مرتبته فى الدولة ، وعنَت لها الوجوه وخضعت لها الرقاب ، وجعل لها النظر فى ديوان الحسبان ، لما تحتاج اليه خطته من قسم الأعطيات فى

---

(١) حسن ابراهيم : تاريخ الاسلام جـ ١ ص ١٩٦
(٢) مقدمة ابن خلدون ص ٢٠٧

الجند . فاحتاج الى النظر فى جمعه وتفريقه ، وأضيف اليه النظر فيه ، ثم جعل له النظر فى القلم والترسيل لصون أسرار السلطان ، ولحفظ البلاغة لما كان اللسان قد فسد عند الجمهور . وجعل الخاتم لسجلات السلطان ليحفظها من الذياع والشياع ، ودفع اليه ، فصار اسم الوزير جامعا لخطتى السيف والقلم ، وسائر معانى الوزارة والمعاونة » .

كان معظم وزراء الخلفاء العباسيين من الفرس ، فأبو سلمة الخلال أول وزير عباسى ، مولى فارسى ، وأبو أيوب الموريانى وزير المنصور فارسى من (موريان) وهى قرية من قرى الأهواز . ويعقوب بن داود وزير المهدى مولى كذلك . وكذلك كان البرامكة . وكان الوزير قائما مقام الخليفة فى كل الشئون ، فينظر فى الشئون الحربية ، وفى الشئون المالية ، ويكتب الرسائل الى الجهات المختلفة ، ويوقّع على ما يُرفع اليه من أوراق ، ولم يتعدّد الوزراء فى الدولة العباسية بتعدّد الأعمال ، فيجعل للحرب وزير ، وللمال وزير ، وهكذا . وانما كان تعداد الوزراء بتعداد الأعمال ، من نظام الدولة الأموية بالأندلس ، ولكن العباسيين جمعوا بين السيف والقلم [1] .

وكان الوزراء فى العصر العباسى الأول يخافون على أنفسهم من بطش الخلفاء بهم ، فكان كل منهم يتجنّب أن يسمّى وزيرا بعد أن مات أبو الجهم على يد المنصور . وكان خالد بن برمك

---

(١) ضحى الاسلام جـ ١ ص ١٧٣

يعمل عمل الوزراء ، ويأبى أن يسمَّى وزيرا ، على الرغم من علو منزلته عند الخلفاء .

استوزر الخليفة المنصور بعد خالد البرمكى أبا أيوب الموريانى اشتراه المنصور صبياً قبل أن يلى الخلافة ، فثقفه وعلَّمه ، واتفق أن أرسله مرة الى أخيه الخليفة أبى العباس السفاح ومعه هدية له ، فلما رآه أعجب بهيئته وفصاحته ، فأبقاه عنده وأعتقه ، وجعله من أخص رجاله المقربين اليه ، وأدر عليه عطاءه وصلاته ، وظل على ذلك حتى ولى المنصور الخلافة ، فقلده الوزارة ، وكان نصيبه نصيب من سبقه من الوزراء الا خالد بن برمك .

تحدث المؤرخ ابن طباطبا [1] عن الوزارة فى عهد المهدى فقال : « فى أيامه ظهرت أبهة الوزارة بسبب كفاءة وزيره أبى عبد الله معاوية بن يسار ، فانه جمع له حاصل المملكة ، ورتب الديوان وقرر القواعد ، وكان كاتب الدنيا ، وأوحد الناس حذقا وعلما وخبرة » .

وقد اختار المهدى أحسن الوزراء سيرة وعدلا ودراية بشئون الدولة ، وأثبتوا كفاءة واضحة . ورغم ذلك ، فقد كان المهدى يشاركهم أعباءهم ومسئولياتهم . فكان كما وصفه ابن طباطبا [2] « ينظر فى الدقائق من الأمور » .

---

(١) الفخرى ص ١٦٣

(٢) المصدر نفسه .

وزراء المهدى :

ولـّى المهدى الوزارة أبا عبيد الله معاوية بن يسار ، وهو مولى الأشعريين ، وكان كاتب المهدى ونائبه قبل أن يتولى الخلافة ، ضمه المنصور اليه ، وكان المنصور ينوى أن يستوزره ولكنه آثر ابنه المهدى ، فكان غالبا على أمور المهدى لا يعصى له قولا . وكان المنصور لا يزال يوصيه فيه ويأمره بامتثال ما يشير به . فلما مات المنصور وتولى المهدى الخلافة فوض اليه تدبير أمور الدولة ، وسلـّم اليه الدواوين ، وكان مقدما فى صناعته ، فابتكر أمورا كثيرة ، منها أنه نقل الخراج الى المقاسمة ، وكان الخليفة قبله يأخذ عن الغلات خراجا مقررا ولا يقاسم ، فلمـّا تولى أبوعبيد الله الوزارة قرر أمر المقاسمة ، وجعل الخراج على النخل والشجر ، واستمرت الحال على ذلك طوال العصر العباسى . كما وضع أبو عبيد الله كتابا فى الخراج ذكر فيه أحكامه الشرعية ودقائقه وقواعده ، وهو أول من صنـّف كتابا فى الخراج ، وتبعه غيره فى ذلك [١] .

كان الوزير معاوية بن يسار متكبرا متعاليا ، وكان الربيع ابن يونس حاجب المهدى يحقد عليه ويبغضه لتكبره عليه وعدم اكتراثه به ، وأقسم الربيع على أن يعمل على عزل الوزير ، فأخذ يدس له عند الخليفة ، فأوغر صدره على ابن الوزير واتهمه بالزندقة ، حتى اذا اختبر الخليفة ابن الوزير فى القرآن الكريم ،

---

(١) الفخرى ص ١٦٤

وأدرك جهله بالآيات القرآنية ، حجب الوزير عنه ، واضطر الوزير الى اعتزال الوزارة ، ولزم داره حتى مات سنة ١٧٠ هـ ، وسنفصل الحديث عن ابن الوزير عند حديثنا عن (المهدى والزنادقة) [١] .

ثم ولى المهـدى الوزارة أبا عبد الله يعقوب بن داود بن طهمان مولى بنى سليم ، وكان أبوه داود واخوته كتّابا لنصر ابن سيار أمير خراسان الأموى . وكان يعقوب فى أول الأمر يعتنق مذهب الشيعة ، مؤيدا للزعيم العلوى عبد الله بن الحسن ابن الحسن « ثم ان المهدى خاف من بنى الحسن أن يحدثوا أمرا لا يتدارك ، فطلب رجـلا ممن له أنس ببنى الحسن ، ليستعين به على أمرهم ، فدلّه الربيع على يعقـوب بن داود لصـداقة كانت بين الربيع وبينه ، وليتفقـا على ازالة دولة أبى عبيد الله معاوية الوزير ، فاستحضره المهدى وخاطبه ، فرأى أكمل الناس عقلا ، وأفضلهم سيرة ، فشغف به واستخلصه لنفسه ، ثم استوزره ، وفوّض الأمور اليه » [٢] .

ويروى الطبرى [٣] قصة طريفة عن سبب تولية المهدى يعقوب ابن داود الوزارة ، فروى : « قال المهدى : وُصف لى يعقوب ابن داود فى منامى ، فقيل لى ان اتخذه وزيرا ، فلمّا رآه قال :

---

(١) الطبرى جـ ٦ ص ٣٧١ ، الفخرى ص ١٦٥
(٢) الفخرى ص ١٦٦
(٣) الطبرى جـ ٦ ص ٣٧٢

هذه والله الخلقة التى رأيتها فى منامى ! فاتخذه وزيرا عنده غاية الحظوة » .

وروى ابن طباطبا أن يعقوب بن داود عرض مو [illegible] ى المهدى مما أكسبه رضا واعجاب المهدى ، فولاّه الوزارة وقربه اليه . فقد قال يعقوب للمهدى : يا أمير المؤمنين هاهنا أمور لا تنتهى الى عملك ، فان وليتنى عرضتها عليك بذلت جهدى فى نصيحتك ، « فقرّبه وأدناه ، فصار يعرض عليه من قبل ، فاستخصه وكتب كتابا بأنه أخوه فى الله تعالى ، واستوزره ، وفوّض اليه الأمور كلها ، وسلّم اليه الدواوين ، وقدمه على جميع الناس ، حتى قال بشار يهجوه :

بنى أميـــة هبـــوا طال نومكم
ان الخليفة يعقوب بن داود »[1]

كانت السعاية بيعقوب بسبب ميله لاسحاق بن الفضل ، وزعم الحاقدون على يعقوب أنه يمهد الأمور ليتولى اسحاق الخلافة بدلا منه ، وأن ذلك من الأمور اليسيرة على يعقوب ، فقد أصبحت ولايات المشرق والمغرب فى يده ويد أصحابه ، وانما يكفيه أن يكتب لهم فيثوروا جميعا فى وقت واحد ، ويتولى اسحاق الخلافة . وصدّق المهدى هذه الوشايات « ولم يزل مواليه يحرضونه عليه ويوحشونه منه حتى عزم على ازالة النعمة عنه »[2] .

ثم حدث بعد ذلك أن طلب يعقوب من المهدى أن يولى

---

(۱) الفخرى ص ١٦٦
(۲) الطبرى جـ ٦ ص ٣٨٣

اسحاق بن الفضل حكم مصر ، مما أثار غضب المهدى ، وتأكد من صحة الوشايات . ثم دس اليه جارية من جواريه ، وهبها له ، لتنقل اليه أخبــاره . ثم أراد المهدى أن يختبر وزيره ، فسلّم اليه علويا وأمره بقتله ، ولكن العلوى استعطف يعقوب فأطلق سراحه دون أن يستأذن الخليفة ، وزعم له أنه نفذ أمره وقتله . ونقلت الجارية الى المهــدى خبر اطلاق سراح هــذا العلوى ، مما أغضب المهدى ، وأمره بالقائه فى سجن مظلم ، فظل مسجونا حتى أطلق هارون الرشيد سراحه ، وكان قد فقد بصره . ثم أمر المهدى بعزل جميع أنصار يعقوب وولاته فى الأمصار الاسلامية ، وسجن بعض أهــل بيته ، فكانت مدة وزارة يعقوب نحو خمس سنوات [1] .

ثم استوزر المهدى بعده الفيض بن أبى صالح ، ويتحدث ابن طباطبا [2] عنه فيقول : « هو من أهــل نيسابور ، وكانوا نصارى ، فانتقلوا الى بنى العباس ، وأسلموا ، وتربّى الفيض فى الدولة العباسية وتأدب وبرع ، وكان سخيّا مفضالا متخرقا فى ماله ، جوادا عزيز النفس كبير الهمة ، كثير الكبر والتيه ، حتى قال فيه بعض الشعراء :

أبا جعفــر جئناك نســأل نائلا

فأعــوزنا من دون نائلك البشر

---

(١) الطبرى جـ ٦ ص ٣٨٥ ـ ٣٨٦ ، الفخرى ص ١٦٨ ـ ١٦٩

(٢) الفخرى ص ١٦٩

فما برقت بالوعـــد منك غمامة

يرجى بها من سيب نائلك القطر

فلو كنت تعطينـــا المنى وزيادة

لنغصـــها منك التجبر والكبر »

واستمر الفيض يتولى الوزارة حتى مات المهدى ، ولم يستوزره أحد من الخلفاء بعده ، حتى مات فى أوائل عهد هارون الرشيد سنة ١٧٣ هـ .

كانت الوزارة فى عهد المهدى من نوع (وزارة التنفيذ) ولم تكن (وزارة تفويض) كما كانت فى عهد خلفائه من بنى العباس . وقد تحدث الماوردى [١] عن الفرق بين النوعين ، وقارن بينهما . فذكر أن الفروق أربعـــة ، أولها ، أنه يجوز لوزير التفويض مباشرة الحكم والنظر فى المظالم ، وليس ذلك لوزير التنفيذ . وكان المهدى كما رأينا يجلس للمظالم واشتهر ــ كما ذكر المؤرخ ابن طباطبا ــ بالتـــدقيق فى كل الأمور . وثانى الفروق ، أنه يجوز لوزير التفويض أن يستبد بتقليد الولاة ، وليس ذلك لوزير التنفيذ .

والمصادر التاريخية تتحدث عن تدخـــل المهدى دائما فى اختيار الولاة ، بل كان يعزل الوزراء ــ كما رأينا ــ اذا شعر بانحرافهم . وثالث الفروق ، أنه يجوز لوزير التفويض أن ينفرد بتسيير الجيوش وتدبير الحروب ، وليس ذلك لوزير التنفيذ .

---

(١) الأحكام السلطانية ص ٢٦

وقد رأينا كيف كان المهدى يخرج بنفسه فى مقدمة جيوشه ، أو يولّى ابنه هارون الرشيد القيادة ، أو يولى غيره من القادة .
ورابع الفروق : أنه يجوز لوزير التفـويض أن يتصرّف فى أموال بيت المال بقبض ما يسـتحق له ويدفع ما يجب فيه ، وليس ذلك لوزير التنفيـذ . وكان المهـدى يتدخل فى جباية ايرادات الدولة ويشرف على مصروفاتها ، وقد رأينا كيف أمر المهدى بتعديل نظم الخراج ، كما أنشأ ديوان الأزمة للاشراف على سائر دواوين الحكومة ومراقبة الايرادات والمصروفات فكان يشبه ديوان المحاسبة اليوم ، كما أوجـد وظيفة الأمين لأول مرة ، فبعث الأمناء الى الولايات لمراقبـة ولاة الأمصار الاسلامية .

البرامكة فى ظل المهدى :

بدأ مجد أسرة البرامكة فى عهد الخليفة أبى جعفر المنصور ، وبرز البرامكة فى عهد الخليفة المهدى ، ثم بلغوا أوج عظمتهم فى عهد ابنه الخليفة هارون الرشيد ، ثم انهار مجدهم فجأة ، بعد أن كانوا فى القمة ، فقد نكبهم الرشيد ونكّل بهم .

كان برمك جـدّ الأسرة البرمكية سادن بيت النار ببلخ ، فكان يقوم بالاشراف على هذا البيت . وكان برمك وأسرته يدينون بالمجوسية دين الفرس القديم . وبعد الفتح الاسلامى للدولة الفارسية ، أسلم بعض البرامكة ، وظهر منهم فى أوائل الدولة العباسية خالد بن برمك ، الذى تقلّد الوزارة فى عهد

الخليفتين أبى العباس والمنصور ، واتخذ هارون الرشيد يحيى ابن خالد قبل أن يلى الخلافة كاتبا له ، يرجع الى رأيه وتدبيره ، كما يرجع الخليفة الى رأى الوزير وتدبيره . ولما ولى الخلافة استوزر يحيى ، فعلا شأنه ، وبعد صيته ، وأصبح هو وأولاده كعبة الآمال ، وغدت تشد اليهم الرحال [1] .

ظهر نبوغ خالد بن برمك فى عهد أبى العباس ، فولاّه الوزارة ، وان لم يتخذ لقب وزير ، فيقول المؤرخ ابن طباطبا [2] : « وكان خالد بن برمك من رجال الدولة العباسية فاضلا جليلا كريما حازما يقظا ، استوزره ، وخفّ على قلبه ، وكان يسمى وزيرا ، وقيل ان كل من استوزر بعد أبى سلمة كان يتجنب أنه يسمّى وزيرا تطيرا مما جرى على أبى سلمة ، ولقول من قال :

ان الوزير وزير آل محمد
أودى فمن يشناك كان وزيرا

فكان خالد بن برمك يعمل عمل الوزراء ولا يسمّى وزيرا ، وكان خالد عظيم المنزلة عند الخلفاء » .

ومما يدل على علو منزلة خالد عند الخليفة أبى العباس ، أن أبا العباس قال يوما لخالد : يا خالد ما رضيت حتى استخدمتنى ؟ ففزع خالد وقال : كيف يا أمير المؤمنين وأنا عبدك وخادمك ؟ ! فضحك أبو العباس وقال : ان ريطة ابنتى

---

(١) حسن ابراهيم : تاريخ الاسلام جـ ٢ ص ٤٩
(٢) الفخرى ص ٥١

تنام مع ابنتك فى مكان واحد ، فأقوم بالليل فأجدهما قد سرح الغطاء عنهما فأرده عليهما . فقبّل خالد يده وقال : مولى يكتسب الأجر فى عبده وأمته . وريطة هذه هى التى تزوجها المهدى فيما بعد .

وكثر الوافدون على باب خالد بن برمك ومدحه الشعراء ، وانتجعه الناس ، وكان الوافدون قبل ذلك يسمّون سوّالا ، فقال خالد : انى أستقبح هذا الاسم لمثل هؤلاء ومنهم الأشراف والأكابر . فسمّاهم الزوار ، وكان خالد أول من سمّاهم بذلك ، فقال له بعضهم والله ما تدرى أى أياديك عندنا أجل ، أصلتنا أم تسميتنا [1] .

ولما بنى المنصور مدينة بغداد عظمت النفقة عليه ، فأشار عليه أبو أيوب المورياني بهدم ايوان كسرى واستعمال أنقاضه . فاستشار المنصور خالد بن برمك فى ذلك ، فقال : لا تفعل يا أمير المؤمنين فانه آية الاسلام ، فاذا رآه الناس علموا أن مثل هذا البناء لا يزيله الا أمر سماوى ، وهو مع ذلك مصلّى على بن أبى طالب عليه السلام ، والمؤونة فى نقضه أكثر من نفعه . فقال له المنصور : أبيت يا خالد الا ميلا الى العجمية ! ثم أمر المنصور بهدمه . فهدمت بعض أجزائه ، فكانت نفقات هدمه أكثر مما عاد على المنصور من فائدة ، فأمسك المنصور عن هدمه ، وقال : يا خالد قد صرنا الى رأيك ، وتركنا هدم

---

(١) الفخرى ص ١٣٩

الايوان . فقال خالد : يا أمير المؤمنين ، أنا الآن أشير بهدمه لئلا يتحدث الناس أنك عجزت عن هدم ما بناه غيرك . فأعرض المنصور عن الايوان وأمسك عن هدمه[1] .

وكان يحيى بن خالد البرمكى أشهر رجال عصره ، علما وأدبا وفضلا ، وجودا ونبلا . وكان فى الثانية عشرة من عمره ، لمّا قامت الدولة العباسية ، فتربى فى كنفها ، وشمله الخليفة المنصور بعطفه ، فولاه أذربيجان سنة ١٥٨ هـ ، واختاره المهدى كاتبا ونائبا لابنه هارون ، فخرج معه فى الصائفة لغزو البيزنطيين . ولمّا تولى هارون بلاد المغرب ، ساعده يحيى على النهوض بأعبائها ، ولمّا أراد الهادى أن يخلع أخاه هارون من ولاية العهد ، نصح له يحيى بالعدول عن هذا الرأى .

تحدّث ابن طباطبا عن أمجاد البرامكة فى الدولة العباسية ، فقال : « اعلم أن هذه الدولة كانت غرّة فى جبهة الدهر ، وتاجا على مفرق العصر ، ضربت بمكارمها الأمثال ، وشدت اليها الرحال ، ونيطت بها الآمال ، وبذلت لها الدنيا أفلاذ أكبادها ، ومنحتها أوفر اسعادها ، فكان يحيى وبنوه كالنجوم زاهرة ، والبحور زاخرة ، والسيول دافعة ، والغيوث ماطرة ، أسواق الآداب عندهم نافقة ، ومراتب ذوى الحرمات عندهم عالية . والدنيا فى أيامهم عامرة ، وأبهة المملكة ظاهرة ، وهم ملجأ اللهف ومعتصم الطريد » .

---

(١) الفخرى ص ١٤٠

كما تحدث المؤرخ المسعودى [1] عن نبوغ خالد بن برمك ، الذى برز فى عهد الخليفة المهدى ، فقال : « لم يبلغ مبلغ خالد ابن برمك أحد من ولده فى جودة رأيه وبأسه وجميع خلاله ، لا يحيى فى رأيه ووفور عقله ، ولا الفضل فى جوده وبراعته ، ولا جعفر بن يحيى فى كتابته وفصاحته ، ولا محمد بن يحيى فى سروه وبعد همته ، ولا موسى بن يحيى فى شجاعته وبأسه . وفيمن ذكرنا يقول أبو الغول الشاعر :

أولاد يحيى بن خالد وهمُ
أربعة سيد ومتبوع
الخير فيهم اذا سألت بهم
مفرق فيهم ومجموع »

النظم الحكومية فى عهد المهدى :

كان الوزراء الظاهرون فى العصر العباسى من الموالى الفرس ، فأبو سلمة الخلال أول وزراء العباسيين مولى فارسى ، وأبو أيوب الموريانى وزير المنصور فارس ، ويعقوب بن داود وزير المهدى مولى كذلك ، وكذلك كان الوزراء البرامكة فى عصور المنصور والمهدى والرشيد .

وكان الوزير يجمع الى الادارة الحربية والمالية خطة القلم ، أى انفاذ الرسائل الى الجهات ، والتوقيع على ما يُعرض عليه من مطالب ورسائل ، ولذا كان من شروط تولية الوزير أن

(١) المسعودى : مروج الذهب جـ ٣ ص ٣٧٧

يكون عالما مطلعا ، كاتبا بليغا . وتاريخ الوزراء العباسيين ، يدلنا على أن أكثر من اختير للوزارة لوحظ فى اختيارهم الكفاية العلمية والبلاغة .

وقد مرّ بنا كيف كان المهدى يختبر وزراءه قبل أن يوليهم ، وقد أحسن المهدى الاختيار ، فكان وزراؤه على جانب كبير من الكفاءة والصلاحية . وقد رأينا وصف المؤرخ ابن طباطبا لوزير المهدى معاوية بن يسار ، فقد وصفه بأنه كان مقدما فى صناعته فابتكر أمورا كثيرة ، وقد وضع معاوية أول كتاب فى الخراج . وكان يعقوب « أكمل الناس عقلا ، وأفضلهم سيرة » . كما أشاد ابن طباطبا ببراعة الفيض بن صالح الوزير الثالث للمهدى .

وهذه القدرة الكتابية التى كان يشترطها الخلفاء فى الوزير ، كانت من أكبر الأسباب فى قصر الوزارة على الفرس — غالبا — فالعرب كانوا أهل فصاحة لسانية أكثر منهم أهل بلاغة كتابية . ولعل هذا هو السبب فى أنهم وضعوا للفصاحة كلمة مشتقة من اللسان ، فقالوا رجل لَسِن اذا كان ذا بيان وفصاحة ، ولم يشتقوا مثل ذلك من الكتابة[1] .

لمّا كثرت أعمال الوزراء فى العصر العباسى الأول ، أصبح من الضرورى تعيين موظفين يعاونون الوزير للاشراف على الدواوين المختلفة وادارة شئونها . ومن أشهر الكتّاب فى هذا

---

(١) أحمد أمين : ضحى الاسلام ج ٢ ص ١٧٤

العصر كاتب الرسائل يتولى مكاتبة الأمراء والملوك عن الخليفة . وقد حرص الخلفاء على أن تدوّن الرسائل بأسلوب شائق بليغ ، كما حرصـــوا على اختيار كتابهم من رجال الأدب من أعرق الأسر ، وممّن عرفوا بسعة العلم ورصانة الأسلوب [1] .

وكانت طائفة الكتاب تؤلف وحدة على رأسها الوزير ، بل وتتدرج فى الرقى الى الوزارة ، معتمدة على كفايتها وبلاغها ، وكان لهؤلاء الكتّاب أثر كبير فى نشر نوع من الثقافة خاص ، ذلك أن ثقافتهم كانت أوسع من ثقافة غيرهم ، وكانت معارفهم ودائرة اطلاعهم واســـعة شاملة ، لأنهم — بحكم مناصبهم — مضطرون أن يعرفوا أحوال الناس الاجتماعية وتقاليدهم ، وأن يعرفوا من اللغـــة والأدب وعلوم الدين والفلسفة والجغرافيه والتاريخ طرفا ، لأن كثيرا من مواقفهم يحتاج الى ذلك ، وقد تَعْرِض للخليفة أو الوالى مسائل من هذا القبيل ، ويضطر الكاتب ازاءها أن يكون ملمّا بجميع ذلك ، اذ هم الذين كانوا يعرضون على الخلفاء ما يرد عليهم ويحررون ما يصدر منهم [2] .

كان الخلفاء الراشدون لا يحتجبون عن رعاياهم ، فكانوا يجلسون يومهم فى مسجد الرسول بالمدينة ، ويلتقون بالمسلمين على اختلاف مراتبهم بدون حجاب . ثم احتجب معاوية بن أبى سفيان عن الناس بعد مصرع على بن أبى طالب ومحاولة اغتيال

---

(١) حسن ابراهيم : النظم الاسلامية ص ١٨٠

(٢) ضحى الاسلام ١٧٧

معاوية ، وازدحام الناس على أبواب قصره فى دمشق ، وحذا الخلفاء الأمويون حذو معاوية فى الاحتجاب عن الناس .

والحاجب موظف كبير يشبه كبير الأمناء فى العصر الحديث ، وكان يقوم بادخال الناس على الخليفة حسب مراتبهم ومراكزهم فى المجتمع . واتخذ الخلفاء العباسيون الحجاب ، فلم يقابلوا رعاياهم الا من قدم لأمر خطير . وصار بين الناس وبين الخليفة داران : دار الخاصة ، ودار العامة ، يقابل الخليفة كل طائفة فى مكان معيَّن ، كما يحدده الحاجب . وكان الحاجب من كبار الموظفين ، وموضع ثقة الخليفة ، فكان يستشيره فى مهام الأمور ، ومرتبته بعد الوزير مباشرة .

اشتهر أمر الربيع بن يونس حاجب المهدى . وكان يتولى الحجابة أيضا فى عهد أبيه المنصور . وقد مرَّ بنا الدور الهام الذى قام به الربيع بعد وفاة المنصور قرب مكة ، فقد أخفى نبأ موت المنصور حتى أخذ البيعة للمهدى . كما مرَّ بنا الدور الكبير الذى قام به الربيع للخلاص من الوزير معاوية بن يسار ، فعزله المهدى بسعى من الربيع ، ثم رشح الربيع للمهدى يعقوب بن داود ليتولى الوزارة .

كان النظام الادارى فى العصر العباسى نظاما مركزيا ، وأصبح العمَّال على الأقاليم مجرَّد عمال لا ولاة مطلقى السلطة ، على عكس ولاة الأمويين الحجاج بن يوسف الثقفى وزياد بن أبيه . كما أنهم لم يكونوا من الشخصيات البارزة ، ولذلك استحال النظام اللامركزى الى نظام مركزى ، مما يشعر

بتقلص نفوذ العمّال . وكان من أهم الموظفين فى الولايات الاسلامية فى العصر العباسى الأول : صاحب بيت المال ، وصاحب البريد ، والقاضى . واقتصر عمل الوالى على الصلاة وقيادة الجند .

اهتم الخليفة العباسى فى هذا العصر بأن يختار عمّال الأقاليم بنفسه لادارة شئونها . بيد أن سلطتهم المدنية والقضائية لم تكن خالصة من كل قيد ، فلم يترك العامل فى ولايته زمنا طويلا . واذا عزل عن منصبه طلب منه أن يقدم بيانا مفصّلا عن شئون ولايته . وكان أقل شك فى صدقه كافياً لمصادرة أملاكه جميعها [1] . وفى أيام المنصور والمهدى ، لم تكن مهمة الولاية أكثر من وظيفة صورية . واهتم المهدى باختيار ولاته ، ولم يترك الوزراء يستبدون بتعيين الولاة ، فقد رأينا كيف استشار الوزير يعقوب بن داود المهدى فى اختيار اسحاق بن الفضل لولاية مصر ، ورفض المهدى هذا الاختيار . وكان الخلفاء العباسيون يولون أولادهم حكم الولايات الهامة ، فقد ولى المنصور ولى عهده المهدى حكم خراسان ، وولّى الخليفة المهدى ولى عهده الهادى حكم جرجان ، وولى ابنه الثانى هارون الرشيد حكم البصرة ثم مصر .

وكانت الدولة العباسية فى عهد المهدى تنقسم سياسيّا الى عدة ولايات هى : (١) الكوفة والسواد . (٢) البصرة واقليم

---

(١) حسن ابراهيم : تاريخ الاسلام جـ ٢ ص ٢٠٣

دجلة والبحرين وعمان . (٣) الحجاز واليمامة . (٤) اليمن . (٥) الأهواز ويشمل : خوزستان وسجستان . (٦) فارس . (٧) خراسان . (٨) الموصل . (٩) الجزيرة . (١٠) أرمينية وأذربيجان . (١١) سورية . (١٢) فلسطين . (١٣) مصر وافريقية (١٤) السند .

وقد جرت العادة أن يولى الخلفاء العباسيون الولايات الاسلامية البعيدة بعض أفراد البيت العباسى وأكابر القواد ، وخاصة خراسان ومصر .

وقد ظل نظام الحكم فى الدولة العباسية كما وضعه المنصور الى عهد الرشيد ، على الرغم من أن أصحاب الدواوين وأبناء البيت العباسى كانوا بمثابة مستشارين غير رسميين . أما الخليفة فكان مصدر كل قوة ، كما كان مرجع كل الأوامر المتعلقة بادارة الدولة . ولكن ظهر بتوالى الأيام أن هذه الأعباء كانت مرهقة لا يستطيع القيام بها رجل واحد ، ومن ثم أصبح من الضرورى تعيين موظفين يعاونون الوزير فى الاشراف على الدواوين المختلفة وادارة شئونها [١] .

تحدث السيد أمير على عن الادارة فى الدولة العباسية فقال : أما الادارة فكانت قائمة على قواعد محدودة مماثلة للنظم الحديثة فى الأمم المتحضرة . فكانت كل مناصب الدولة ، كما

(١) المصدر السابق .

كان الحال فى الدولة العثمانية ، مفتوحة أمام كل من المسلمين واليهود والنصارى على السواء [1] .

وكان النظام الادارى فى عصر المهدى من حيث توزيعه العمل ، يعادل خير النظم الحديثة . وهذه هى أهم دواوين الدولة التى كانت تشبه الوزارات فى العهد الحاضر : ديوان الخراج ، وديوان الدِّية ، وديوان الزمام ، وديوان الجند ، وديوان الموالى والغلمان (وتسجل فيه أسماء موالى الخليفة وعبيده) ، وديوان البريد ، وديوان زمام النفقات ، وديوان الرسائل ، وكانت مهمة صاحبه اذاعة المراسيم والبراءات وتحرير الرسائل السياسية وختمها بخاتم الخلافة ، وديوان النظر فى المظالم ، وديوان الأحداث والشرطة ، وديوان العطاء ، وديوان الحوائج ، وديوان الأحشام ، وديوان المنح أو المقاضاة ، وديوان الأكره وكان يشرف على الترع والجسور وشئون الرى .

أنشأ الخليفة المهدى ديوانا جديدا ، هو ديوان الأزمة أو الزمام ، ويشبه ديوان المحاسبة اليوم ، وأصبح من أهم دواوين الدولة . وكانت مهمة صاحب هذا الديوان جمع ضرائب بلاد العراق وهى أغنى أقاليم الدولة العباسية ، وتقديم حساب الضرائب فى الأقاليم الأخرى . ومن اختصاص صاحب هذا الديوان جمع الضرائب النوعية المسماة بالمعادن ، التى كانت تجمع لرجل يضبطها بزمام يكون له على كل ديوان ، فيتخذ دواوين الأزمة ويولى على كل منها رجلا .

---

(١) سيد أمير على : مختصر تاريخ العرب والتمدن الاسلامى .

ولم تكن الحكومة العباسية تتدخل فى شئون الجماعات الا بمقدار ، بل كانت كل بلدة أو قرية تدير شئونها الخاصة بنفسها ، ولا تتدخل الحكومة الا فى حالة نشوب الفتن أو الامتناع عن دفع الضرائب ، غير أنها ـــ مع ذلك ـــ كانت تقـــوم بالرقابة الفعلية على جميع الشئون التى تتصل بالزراعة والرى من بناء القنوات وترميمها [1] .

اهتم الخليفة المهدى بالبريد ، وقد رأينا كيف أقام محطات البريد بين بلاد اليمن وبلاد الحجاز وبلاد العراق ، فمهد الطرق بين هذه البلاد ، وأنشأ المنازل ، وأمدها بالمياه . وتحدث المؤرخ (فون كريمر) عن نظام البريد فى الدولة العباسية ، فقال : كان على رأس كل مصلحة فى الولايات الاسلامية عامل بريد ، مهمته موافاة الخليفة بجميع الشئون الهامة والاشراف على أعمـــال الولاة ، كما كان بعبارة أخرى ، مندوبا أولته الحكومة المركزية ثقتهـــا .

أولى المهدى الجيش العباسى اهتمامه ، فأصبح يضم مئات الألوف من الجند من مختلف أجناس الدولة ، وقام الجيش فى عهد المهدى بأعمال حربية كبيرة ، فقد بعث بجيش كثيف بقيادة ابنـــه هارون الرشـــيد لغزو بلاد الروم ، ووفر له الامدادات والتموين . وكان هجوم الجيش العباسى مستمرا على الأراضى الرومانية ، صيفا وشتاء . وأثبت جيش المهدى كفاءته فى قتاله

---

(١) النظم الاسلامية ص ١٢٢

للروم ، وانتصر انتصارات رائعة . كما بعث المهدى بجيش كبير لغزو بلاد الهند بطريق البحر . كما كان الجيش العباسى مستعدا دائما للقضاء على ما يقوم من فتن أو ثورات يقوم بها أعداء الدولة العباسية ، وخاصة الحزب العلوى . ونجح المهدى فعلا فى اخماد بعض الثورات الصغيرة التى قامت فى عهده ، كما نجح فى القضاء على جيش المقنع والزنادقة .

وكان تقسيم الجند تابعا لجنسية أفراده ، فمنهم الحربية ، وهم الفرسان الذين كانوا يتسلحون بالرماح وهم من جند العرب ، والمشاة وكانوا من الفرس ولا سيما الخراسانيين . وكان الجيش الأموى يعتمد على الجند العربى ، حتى اذا قامت الدولة العباسية على أكتاف الفرس ، أصبحت العناصر الفارسية تمثل غالبية الجيش العباسى . ولم يكن اعتماد الخلفاء على الفرس راجعا الى مساعدة هؤلاء لهم فى اقامة دولتهم ، بل كان راجعا أيضا الى العصبية التى كانت متفشية بين الجنود العرب ، فقد انقسموا الى عرب يمنية وعرب مضرية ، وكانت هذه العصبية من عوامل اخفاق الجيش الأموى أمام الجيش العباسى بقيادة أبى مسلم الخراسانى مما أدى الى سقوط الدولة الأموية . ولذا فكر الخليفة المنصور فى انشاء الكرخ فى جنوب بغداد ، ليقيم فيها الجند العرب ، وليصبح بعيدا عن الصراع الناشب بينهم . كما أقام المنصور مدينة الرصافة ليقيم فيها ابنه المهدى وجيشه بعد عودتهم من خراسان بعد اخماد الثورات التى قامت هناك .

وقد اهتم كل من المنصــور والمهدى باســتعراض الجيش فى المناسبات .

اهتم الخليفة المهدى بشئون الضرائب ، وعمل على تخفيف أعباء رعاياه . فقــد رأيناه يغــيِّر نظام الخراج الذى اتبعــه أبو العباس والمنصور ، وأمر باتباع نظام المقاسمة ، وهو نظام عادل أبدى الناس ارتياحهم له ، كما وضع وزير المهدى يعقوب ابن داود أول كتاب عن الخراج ، وسار خلفاؤه على نهجــه ، فوضع أبو يوسف بعد ذلك كتابه المشهور عن الخراج .

ونال القضاء اهتمام المهدى ، فقد كان حريصا على تحقيق العدل . وكان أول الخلفاء الذين يجلسون للنظر فى المظالم ، وقد شهدنا عند حديثنا عن المهدى (الخليفة العادل المصلح) صورا كثيرة لعدله وحرصه على مصالح رعاياه . فقــد أطلق سراح المسجونين الســياسيين الذين سجنهم المنصــور ، ورد اليهم أموالهم المصادرة . وكان يسمح للناس بالدخول عليه وعرض مظالمهم ، ولو كانت الشكوى منه شخصيا . ويقول ابن طباطبا [1] عن المهدى : « وكان يجلس فى كل وقت لرد المظالم . روى عنه أنه كان اذا جلس للمظالم قال : أدخلوا علىَّ القضاة ، فلو لم يكن ردى للمظالم الا للحياء منهم لكفى » .

(1) الفخرى ص ١٦١

تدعيم الدولة العباسية

دعائم الدولة العباسية :

بدأت الدعوة العباسية فى سنة ١٠٠ هـ فى عهد الخليفة الأموى عمر بن عبد العزيز ، وأكمل العباسيون ــ باعتبارهم من الأسرة الهاشمية ، أسرة الرسول ــ ما بدأه العلويون ، وهم الفرع الآخر من البيت الهاشمى . فقد حاول العلويون مرارا القضاء على الدولة الأموية ، واقامة خلافة هاشمية علوية ، ولكنهم أخفقوا فى هذه المحاولات طوال العصر الأموى ..

ولا شك أن العلويين يعدون مسئولين عن الهزائم التى لحقت بهم ، فقد انقسموا الى عدة فرق ، وادّعت كل فرقة منهم الامامة لأحد أبنائها ، وشُغلوا بالجدال والنقاش ، فى وقت كانت الدعوة العباسية تمتاز بالوحدة والقوة . مما هيأ لهم الانتصار . وكان بنو العباس أكثر دهاء ، فأعدوا وسائل نجاحهم فى أقاصى البلاد ، وحرصوا على استغلال تنازل العلويين لهم الى أقصى حد ، وحرصوا على كتمان أمرهم ، وهو ما كان ينقص العلويين والأمويين .

ونادى العباسيون بعزمهم على تحسين أوضاع الموالى ومساواتهم بالعرب ، واشراكهم فى الأمر متخذين ذلك أساسا لبرنامجهم الاجتماعى . ووعدوا بالعدل واتخاذ السنة والكتاب

دستورا ، وبذلوا الجهود فى جمع كل العناصر المتذمرة ، وبعثوا الوعى العام عند الفرس ، وقووا فيهم روح التوثب والسيادة ، بل روح احياء المجد القديم المفقود ، وعملوا على أن يخلقوا جواً من التعاون والتفاهم بين العرب والفرس على أساس اسلامى ، وتحقيق التعاون بين الدين والسياسة . والقضاء على العصبية القبلية ، متعظين فى ذلك بالمشكلات التى أضعفت الأمويين .

وهكذا كان العباسيون أوسع أفقا من أبناء عمومتهم العلويين ، فوضعوا برنامجا دينيا وسياسيا واجتماعيا يسيرون بمقتضاه فى حكمهم ، بينما اكتفى العلويون بالدعوة الى أنفسهم اعتمادا على حب المسلمين للرسول ولعلى بن أبى طالب وأولاده. ولذلك كتب الله للعباسيين النصر فيما أخفق فيه أبناء عمومتهم من العلويين وشيعتهم [1] .

تولى الدعوة العباسية فى آخر مراحلها ، فترة النضوج والاكتمال ، الأخوان أبو العباس وأبو جعفر المنصور . وكان أبوهما محمد أول من بدأ الدعوة العباسية فى أواخر العصر الأموى حتى وافته المنية سنة ١٢٥ هـ . وكان قد أوصى بالامامة من بعده لابنه ابراهيم ، وقد بدأ ابراهيم مرحلة جديدة من الجهاد. ولما قبض على ابراهيم وحبس فى حرّان ثم قتل ، انتقلت أسرته الى الكوفة (صفر ١٣٢ هـ) ، وهناك اختفوا عن الأنظار

---

(١) انظر كتابنا (تاريخ العراق فى ظل الحكم الأموى ، وكتابنا (الدولة العربية الاسلامية) تجد كثيرا من التفاصيل .

فترة ، ولكن سرعان ما التف حولهم أنصارهم وطلبوا منهم الجهر بالدعوة العباسية ، وبايعوا أبا العباس بالخلافة ، وذلك فى اليوم الثالث من شهر ربيع الأول سنة ١٣٢ هـ . وكان مروان ابن محمد آخر الخلفاء الأمويين لا يزال على قيد الحياة ، وما لبث أن قُتل مروان فى ٢٧ من ذى الحجة سنة ١٣٢ هـ ومنذ ذلك اليوم بدأت خلافة أبى العباس الحقيقية ، وظل خليفة الى أن توفى بمدينة الأنبار فى ١٣ من ذى الحجة سنة ١٣٦ هـ .

ثم خلفه أخوه المنصور ، وهو المؤسس الحقيقى للدولة العباسية ، فقد وضع أسس الحكم العباسى ، وشاركه ابنه وولى عهده المهدى جهاده وكفاحه . فقد رأينا المنصور يعهد الى المهدى بالكثير من مهام الدولة ، كما جعله فى مقدمة الجيش الذى وجهه الى خراسان لاخماد بعض الثورات التى قامت هناك ، ثم ولاّه حكم هذه البلاد ، وكان المهدى ينوب عن المنصور فى الحكم عند تغيُّبه عن بغداد ، سواء عندخروجه لاخماد ثورات العلويين فى البصرة ، أو للحج .

وعمل المنصور على أن يعدّ المهدى ليتولى الخلافة بعده ، فاهتم بتربيته وتعليمه وتثقيفه ، ورسم له طريق النجاح ، ونصحه وأرشده . كما مهد المنصور الطريق له ، فأخمد ثورات الحزب العلوى ، وتخلص من أبى مسلم الخراسانى ، وأرغم عيسى بن موسى على أن يسمح للمهدى بأن يتقدمه فى ولاية العهد ، وبنى مدينة بغداد التى أصبحت قلب العالم النابض ، وملأ له بيوت الأموال ، وأضعف شوكة الزنادقة .

ورث المهدى عن أبيه دولة عظمى ، تتمتع بالرخاء وبالحضارة الزاهرة ، يسـودها الأمن والهدوء والاستقرار ، ويحكمها رجالات اشتهروا بالعدل والكفاءة . فكان على المهدى أن يمضى فى نفس الطريق الذى عبّده أبوه له ، ويتم رسالته ، ويدعّم أسس الدولة العباسية ، وكان المهدى خير خلف لخير سلف ، جديرا بأن يكون ثالث الخلفاء العباسيين .

وجنى هارون الرشيد ثمار ما غرسه أبوه المهدى . وان كانت المصادر التاريخية تشيد دائما بالدولة العباسية فى عهد الرشيد ، وتبرز جوانب عظمتها فى عصره ، الا أن ذلك البناء الضخم كان على الأسس التى وضعها المنصور ثم المهدى ، فقد كانت جهود المهدى واصلاحاته وعدله هى التى دفعت بالدولة العباسية الى ذروة المجد فى عهد الرشيد .

اخماد ثورة أموية فى بلاد الشام :

قامت ثورة فى بلاد الشام فى عصر المهدى فى سنة ١٦١ هـ ، تزعمها عبد الله بن مروان بن محمد ، الذى تزعم البيت الأموى بعد مصرع أبيه مروان آخر الخلفاء الأمويين .

ولم تكن هذه الثورة ثورة شخصية ، قام بها ثائر عادى ضد الخليفة ، بل كانت حلقة فى سلسلة صراع طويل بين البيت الهاشمى والبيت الأموى . وقد بدأ الصراع بين فرعى قريش فى العصر الجاهلى . فقد تنافس الهاشميون والأمويون حول السيادة فى مكة ، وزعامة قريش ، والاشراف على الكعبة . وكان الأمويون

أكثر مالا ، ولكن الهاشميين كانوا أكثر جاها وعزة وموضع احترام العرب جميعا . تنازع عبد المطلب زعيم الهاشميين وأميّة ابن عبد شمس زعيم الأمويين حول الزعامة فى مكة ، واحتكما الى بعض العرب ، فحكموا لعبد المطلب ، فخرج أمية منسحبا من الميدان ، ورحل الى بلاد الشام ، وارتبطت منذ ذلك الحين بلاد الشام بالأسرة الأموية[1] .

ثم ظهر الاسلام ، ونزلت الرسالة السماوية على محمد الهاشمى ، فازداد بنو هاشم مجدا وعزة ، وحمل الأمويون لواء المعارضة للدعوة الاسلامية والرسول . وكان التنافس بين عثمان وعلى حول الخلافة بعد مصرع عمر ، فى الحقيقة تنافسا بين الأمويين والهاشميين . واستمر هذا التنافس واضحا فى الصراع بين على ومعاوية . ثم قامت الدولة الأموية ، وبدأ الهاشميون يناهضون الحكم الأموى ، وقاد العلويون لواء المعارضة الهاشمية ، فكانت ثورات الحسين بن على ، ثم زيد بن على ، ثم عبد الله بن معاوية بن جعفر . ثم ركن العلويون الى الهدوء بعد تكرار اخفاقهم ، وتتبع الأمويون زعمائهم بالتنكيل . وحمل العباسيون اللواء ، ودعوا الى تولية (الرضا من آل محمد) دون تحديد اختياره من العلويين أو العباسيين .

ونجح العباسيون فى القضاء على الدولة الأموية ، وبدأت الخلافة العباسية ، واتخذت بلاد العراق مركزا لخلافتهم ، فقد

---

(١) انظر كتابنا (عبد المطلب جد الرسول) تجد كثيرا من التفاصيل .

أدركوا أن بلاد الشام لم تعد تصلح لتكون مقرا للخلافة ، فقد اعتادت طاعة الأمويين ولا ترضى عنهم بديلا ، بينما كانت بلاد العراق موطن الفرس ، وهم عماد الدولة العباسية .

شعر أهل الشام بالألم والحسرة لسقوط الدولة الأموية ، وهم يعتبرونها دولتهم ، وأدركوا أن فى انتقال العاصمة من دمشق الى بغداد ، نهاية عصر ذهبى شهدوه ونعموا به ، فتصبح بلاد الشام ولاية عادية مثلها فى ذلك مثل سائر ولايات الدولة العباسية .

وأبدى أهل الشام ألمهم لما نال الأسرة الأموية من تنكيل وقتل وتعذيب ، فقد قتل أبو العباس ثلاثمائة من بنى أمية وصلب جثثهم ، كما قتل عددا كبيرا من أنصارهم ومواليهم ، وصادر أموالهم . كما تألم أهل الشام حينما شاهدوا العباسيين ينبشون قبور الخلفاء الأمويين فى دمشق ، ويضربون جثثهم بالسياط . كما أمر العباسيون بلعن الخلفاء الأمويين على المنابر . مما أدى الى اشتعال نيران الغضب والثورة فى نفوس أهل الشام .

وكتم أهل الشام ثورتهم الكامنة فى نفوسهم ، طوال خلافة أبى العباس وأبى جعفر المنصور ، فقد كانت فترة شدة وقمع . حتى اذا بدأت خلافة المهدى ، ظهرت هذه الروح الثورية . فقد تميز عهد المهدى بالهدوء واللين والتسامح ، مما شجَّع أهل الشام على الجهر بما كتموه طوال خلافة الخليفتين الأولين .

وتزعم ثورة أهل الشام فى عهد المهدى عبد الله بن مروان ، وهو ابن آخر الخلفاء الأمويين . فقد أراد أن يأخذ بثأر أبيه

الذى قتله القائد العباسى أبو مسلم الخراسانى ، وبثأر قتلى البيت الأموى ، ونحن نعــرف مدى اهتمام العــرب بالأخذ بثأرهم . ولذا نعتبر هذه الثورة الأموية موجهة ضد الدولة العباسية ، وليست موجهة ضد شخص المهدى . ومن الانصاف للخليفة المهدى ، ما يجعلنا تقول انه لم يقدم على ما يسىء الى البيت الأموى ، ولم يرتكب ما ارتكبه أبوه وعمه من قتــل وتنكيل ، أو ما قام به خلفاؤه ، الهادى والرشيد والمأمون ، وغيرهم . بل ان المهدى ــ كما سنرى ــ قد عفا عن عبد الله ابن مروان رغم قيامه بالثورة ضده ، وأغدق عليــه الأموال والأرزاق .

كان عبد الله بن مروان حين قُتل أبوه حدثا صغيرا ، ولذا نجا من القتل . حتى كانت سنة ١٦١ هـ ، فقام بالثورة فى بلاد الشام ضد الدولة العباسية ، وأعلن أنه يريد الثأر لأبيه ولبنى أميــة ، واحياء الدولة الأموية . وقد شجعه على الثــورة ، ما شاهده من نجاح أحد أبناء البيت الأموى ، وهو عبد الرحمن الداخل ، فى انشــاء دولة أموية فى بلاد الأندلس ، أصبحت منافسة خطيرة للدولة العباسية . كما شجعه انتشار روح الثورة والحنق فى نفوس أهل الشام ، وظن أنهم يهبون للثــورة اذا دعاهم اليها .

وبعث الخليفة المهــدى بجيش بقيــادة نصر بن محمد بن الأشعث الخزاعى ، نجح فى اخماد الثورة والقبض على زعيمها عبد الله بن مروان ، وحمله الى الخليفة المهدى فى بغداد .

مثل عبد الله بن مروان فى حضرة المهدى . وصوّر المؤرخ الطبرى [1] لقاء الرجلين ، فقال : « ان المهدى أتى بعبد الله بن مروان بن محمد ، وكان يكنى أبا الحكم ، فجلس المهدى مجلسا عاما فى الرصافة ، فقال : من يعرف هذا ؟ فقام عبد العزيز بن مسلم العقيلى فصار معه قائما ، ثم قال له : أبو الحكم ؟ قال : نعم ابن أمير المؤمنين . قال : كيف كنت بعدى ؟ ثم التفت الى المهدى فقال : نعم يا أمير المؤمنين هذا عبد الله بن مروان . فعجب الناس من جرأته ، ولم يعرض له المهدى بشىء » .

وأراد أحد رجال المهدى أن يرضيه وأن يوجد للخليفة مبررا لقتل عبد الله بن مروان . فتقدم عمرو بن سهلة الأشعرى الى الخليفة زاعما أن عبد الله بن مروان قد قتل أباه . ولكن المهدى كان عادلا ، فعهد الى أحد قضاته ، وهو عافية القاضى ، بالتحقق من ذلك الاتهام ، وما لبث أن تقدم عبد العزيز بن مسلم العقيلى الى القاضى واعترف بأنه هو الذى قتل هذا الأب ، وبذلك أعلن القاضى براءة عبد الله بن مروان من الاتهام .

وما لبث المهدى أن عفا عن عبد الله بن مروان ، فقد كان من طباعه التسامح والعفو ، ثم أدرّ عليه الأرزاق والصلات . وكسب المهدى بذلك اعجاب أهل الشام ، فقد قابل الاساءة بالاحسان . كما أن المهدى لم يعاقب أهل الشام لانضمامهم الى هذا الثائر ، بل عمل على الاحسان اليهم ، فكان يختار لحكم

---

(١) الطبرى جـ ٦ ص ٣٦٨

الشام أكثر ولاته عدلا وكفاءة ، واهتم بالقيام بالاصلاحات فى هذه البلاد . وقام المهدى برحلة طويلة الى بلاد الشام ، فزار حلب ودمشق وبيت المقدس ، وصلّى بالمسلمين فى مساجدها ، وشهدت بلاد الشام صورا كثيرة من بذخه وسخائه ، فسكنت الخواطر ، وهدأت النفـوس ، واختفت روح الثورة فى بلاد الشام طوال عهده .

ثورات صـغيرة :

قامت فى عهد المهدى ثورات صغيرة ، لم تكن لها أهمية كبرى ، ولم تؤد الى نتائج وخيمة ، ونجح المهدى فى القضاء عليها ، وأبدى شجاعة وثباتا وتسامحا .

ففى سنة ١٦٢ هـ ثار عبد السلام بن هاشم اليشكرى فى اقليم الجزيرة ، وكثر أتباعه واشتدت شوكته ، وبعث المهدى عدة جيوش أخفقت فى القضاء على هذه الثورة ، وتولى قيادة هذه الجيوش على التوالى عيسى بن موسى وشبيب بن واج المروروذى . ثم أمدّ المهدى قائده شبيباً بألف فارس ، ومنح كل فارس ألف درهم ليشجعهم على القتال ، ونجح شبيب فى الحاق الهزيمة بعبد السلام ، الذى هرب الى قنسرين ، ولحقه شبيب الى هناك حيث قتله [1] .

ثم قامت ثورة أخرى فى مدينة الموصل ، ولكنها كانت ثورة

---

(١) الطبرى جـ ٦ ص ٣٧٢ — ٣٧٣

محدودة ، قام بها رجل من بنى تميم يدعى (ياسين) فاستولى على معظم ديار ربيعة ومضر . وهذه الثورة ليست موجهة نحو الخليفة المهدى ، ولكنها نتيجة العصبية القبلية بين العناصر العربية المختلفة ، وتحقيقا لأطماع شخصية ، ولذا يمكننا أن نصفها بأنها (فتنة) أو (شغب) أكثر مما هى (ثورة) . وقد بعث المهدى بجيش قضى على هذه الفتنة فى يُسر وسهولة .

كما قامت ثورة ثالثة فى مصر ، حيث قامت محاولة أموية للثورة ضد الخلافة العباسية ، وتزعم هذه الثورة دحية بن مصعب بن الأصبغ بن عبد العزيز بن مروان .

وكان عبد العزيز بن مروان بن الحكم من أشهر الولاة الأمويين الذين تولوا حكم مصر ، وقد نجح فى الفوز بحب المصريين وتقديرهم له ، وترتبط مدينة حلوان بشخصية هذا الوالى ، ولذا التف كثير من أهالى مصر حول هذا الثائر الأموى حفيد عبد العزيز بن مروان .

أعلن دحية ثورته فى صعيد مصر ، ونجح فى السيطرة على جميع مدنه ، وأخفق الوالى العباسى ابراهيم بن صالح فى اخماد هذه الثورة . فعزله الخليفة المهدى ، وولى بدله واليا ثانيا ثم ثالثا . ولم ينجح هؤلاء الولاة فى القضاء على ثورة دحية الذى عمل على اقامة دولة أموية فى مصر ، مثلما نجح عبد الرحمن الداخل فى انشاء دولة أموية فى الأندلس .

كثر أتباع دحية فى صعيد مصر ، وبعث اليه أهل الفسطاط يدعونه للقدوم الى مدينتهم . ورأى المهدى أن يختار أحد أبناء

الأسرة العباسية ، ليكون أكثر اهتماما باخماد هذه الثورة ، فولّى الفضل بن صالح بن على العباسى حكم مصر فى آخر المحرم سنة ١٦٩ هـ ، وأمره باخماد هذه الثـورة ، واشتبك الفضل مع دحية فى معارك عنيفة استمرت عدة شهور حتى نجح فى اخماد هذه الثورة ، وقتل دحية وصلب جثته .

وكان القضاء على دحية الأموى هو نهاية لأول المحاولات العلنية وآخرها من جانب الأمويين فى مصر لاسترداد الخلافة . على أنهم بعد ذلك كانوا ينضمون أحيـانا الى الثائرين على الخلافة العباسية من العلويين ، وذلك رغبـة فى الكيد للدولة العباسية [1] .

موقف المهدى من الحزب العلوى :

كان العـلويون يرون أن على بن أبى طالب وأولاده من بعده هم أحق المسلمين بالخلافة بعد الرسول ، وتشيع كثير من المسلمين لهم ، فظهر الحزب الشيعى بعد وفاة الرسول مباشرة ، وتطورت مبادىء الشـيعة السياسية والدينية تطورا كبـيرا سريعا ، فأصبحوا ينادون بأن الامامة ليست من الأمور التى تفوض الى الأمة الاسلامية ، بل ان تولّى الأئمة هو بالتعيين والنص . وقد نص الرسول على تولية على بن أبى طالب بعده يوم غدير خمّ ، ثم أصبح الأئمة العلويون يتولون واحدا بعد

---

(١) سيدة كاشف : مصر فى عصر الولاة ص ٨٧

آخر بناء على وصية كل واحد منهم لخلفه . واعتبرت الشيعة أئمتهم معصومين عن الأخطاء ، ورفعوهم فوق مصاف البشر .

وكافح العلويون كثيرا من أجل الوصــول الى الخلافة ، وانتزاعها من الخلفاء الأمويين (٤٠ هـ ـــ ١٣٢ هـ) . وناهضهم الأمويون وتتبعوهم بالقتل والتنكيل ، حتى لجأوا الى الكتمان والتَّقيــة ، وركنوا فى أواخــر العصر الأموى الى الهــدوء والاشتغال بالتجارة أو الانصراف الى الدين ، بدلا من الاشتغال بالسياسة والحرب . وتولى أبناء عمومتهم العباسيون الكفاح والنضال ، ونجحوا فى القضاء على الدولة الأموية ، وأقاموا الدولة العباسية .

وشعر العلويون أن العباسيين قد خدعوهم حين كانوا ينادون بتولية (الرضا من آل محمد) دون تحديد ، اذ انفرد العباسيون بالخلافة دولتهم ، وبدأ العلويون يناضلون الخلفاء العباسيين كما كانوا يناهضــون الخلفــاء الأمويين بالأمس . واضطر الخلفاء العباسيون الى الدفاع عن أنفسهم وعن دولتهم ، وبدأت مرحلة جديدة من العداء بين العباسيين والعلويين .

بدأت ثورات العلويين فى عهد الخليفة أبى جعفر المنصور ، بثورة محمد بن عبد الله ، حفيد الحسن بن على بن أبى طالب ، والذى اشتهر باسم محمد النفس الزكية ، فى بلاد الحجاز ، كما ثار أخوه ابراهيم فى البصرة بالعراق .

والحقيقة أن الخلفاء العباسيين قد حرصــوا على ارضــاء العلويين وتسكين خواطرهم ، فكانوا يقربونهم اليهم ، ويغدقون

عليهم الأموال والصلات . وأراد العباسيون أن يعود التعاون بين العباسيين والعلويين ، اذ يجمعهم البيت الهاشمى ، لمواجهة الأمويين الذين أنشأوا دولة أموية فى الأندلس ، وأخذوا يترقبون الفرص للثورة والقضاء على الدولة العباسية الهاشمية .

كان محمد النفس الزكية يرى أنه أحق بالخلافة من أبى العباس والمنصور ، ولذا أخذ البيعة لنفسه بالخلافة من بنى هاشم ، وتحدث ابن طباطبا [1] عن بيعة النفس الزكية فقال : « كان بنو هاشم ، الطالبيون والعباسيون ، قد اجتمعوا فى ذيل دولة بنى أمية ، وتذاكروا حالهم وما هم عليه من الاضطهاد ، وما قد آل اليه أمر بنى أمية من الاضطراب ، وميل الناس اليهم ومحبتهم لأن تكون لهم دعوة ، واتفقوا على أن يدعوا الناس سراً ، ثم قالوا : لا بد لنا من رئيس نبايعه . فاتفقوا على مبايعة النفس الزكية » .

ولذا امتنع النفس الزكية عن البيعة لأبى العباس والمنصور بالخلافة . ورأى المنصور حين تولى الخلافة ، أن يتخلص من محمد وأخيه ابراهيم ، فقد أصبحا منافسين خطيرين له . واختفى محمد عن الأنظار ، وتنقل بين المدينة وعدن والسند والكوفة ، ثم استقر فى المدينة . وأخذ المنصور ينكل بأسرة النفس الزكية ليرغمه على الظهور من مخبئه . وفى سنة ١٤٥ هـ ظهر محمد ، وبايعه أهل الحجاز بالخلافة ، وتلقب بأمير المؤمنين ، وبعث أخاه

---

(١) الفخرى ص ١٤٦

ابراهيم ليأخذ البيعة له من أهالى البصرة ، ونجح ابراهيم فى الاستيلاء على دار الامارة وهزم قوات الخليفة المنصور ، وانضم اليه الامام أبو حنيفة .

وكان المنصور قد بدأ فى بناء مدينة بغداد ، فتوقف عن اكمال البناء ليتفرغ للقضاء على ثورة الأخوين العلويين الثائرين . وبدأ المنصور بالطريق السلمى ، فحاول اقناع محمد أن يكف عن ثورته ، ولكن محمدا بعث برسالة الى المنصور أعلن فيها أنه انما يثور للمطالبة بحقه الذى سلبه الخلفاء العباسيون ، وجاء فى هذه الرسالة : « فان الحق حقنا ، وانما ادعيتم هذا الأمر بنا ، وخرجتم له بشيعتنا ، وحظيتم بفضلنا ، وان أبانا عليًا كان الوصى وكان الامام ، فكيف ورثتم ولايته وولده أحياء ؟ ! ثم قد علمت أنه لم يطلب هذا الأمر أحد له مثل نسبنا وشرفنا وحالنا وشرف آبائنا » . وتبادل المنصور والنفس الزكية الرسائل ، وتساءل المنصور : من هم أصحاب الحق فى ميراث الرسول ، نسل العباس بن عبد المطلب عم الرسول ، أم نسل على بن أبى طالب ابن عم الرسول ؟ . فكان مما قال المنصور فى رسالته : « .... ولقد علمت أنه لم يبق أحد من بنى عبد المطلب بعد النبى صلى الله عليه وسلم غيره — أى العباس — فكان وارثه من عمومته . ثم طلب هذا الأمر — يقصد الخلافة — غير واحد من بنى هاشم ، فلم ينله الا ولده ، فلم يبق شرف ولا فضل فى جاهلية ولا اسلام ، فى دنيا ولا آخرة ، الا والعباس وارثه ومورثه » .

هذا هو رأى كل من العلويين والعباسيين فى الآخرين ، وهذه هى القضية بينهما ، والخلافة هى محور القضية . وسكت اللسان ، ليتكلم السيف . وبعث المنصور بجيش كثيف تولى قيادته ولى عهده عيسى بن موسى . وأراد المنصور أن يضرب عصفورين بحجر واحد ، فان قُتل عيسى ، فقد تخلص منه ومهد الطريق أمام ابنه المهدى ليصبح ولى عهده ، وان نجح عيسى فى مهمته ، فقد تخلص المنصور من الثائرَيْن العلويَّيْن . فقد قال المنصور عند انفاذه عيسى لقتال النفس الزكية : لا أبالى أيهما قتل صاحبه ! . ونجح المنصور فى القضاء على هذه الثورة العلوية الخطيرة .

ضعف شأن الحزب العلوى فى عصر الخليفة المهدى فقد وجَّه المنصور اليه ضربة عنيفة ، اذ قتل أبرز زعمائه ، النفس الزكية وأخاه ابراهيم ، فانكمش العلويون ، وأخذوا يضمدون جراحهم ، ويقضون فترة هدوء ، يستعدون فيها لمعركة قادمة ، فهم لا يتنازلون عن حقهم فى الخلافة . وقد تلقى الحزب العلوى ضربات قوية فى العصر الأموى ، ولكن العلويين استمروا فى مناهضة الخلفاء الأمويين ، فتعددت ثوراتهم ، واعتمدوا على اعتناق كثير من الفرس المسلمين مبادىء الشيعة ، وحبهم لآل الرسول ، ولأولاد على بن أبى طالب . وخاصة بعد زواج الحسين بن على من ابنة يزدجرد الثالث آخره أكاسرة الفرس .

وجنى المهدى ثمار جهود أبيه المنصور ، فلم تقم للحزب العلوى فى عهده قائمة ، واضطر العلويون الى الاستكانة

والركون الى الهدوء . ولجأ المهدى الى سلاحين يتقى بهما أخطار العلويين ، فقد أغدق عليهم الصلات والأموال ، كما استدعى اليه بعض زعماء العلويين ليقيموا فى بغداد ، ووفّر لهم أسباب الحياة الرغدة ، حتى يكونوا تحت ناظريه ، أما من أراد من العلويين الاقامة فى المدينة المنورة ، فقد كلف المهدى ولاته فى المدينة بمراقبة حـركاتهم ، وأمر هؤلاء الولاة بأن يحسنوا معاملتهم .

ركن العلويون الى الهدوء طوال خلافة المهدى ، ثم عادوا الى الثورة فى عهد ابنه الخليفة الهادى ، فقـد ثاروا فى مكة والمدينة بزعامة الحسين بن على حفيـد الحسـن بن على بن أبى طالب ، فى سنة ١٦٩ هـ ، وهى السنة التى مات فيها المهدى. واضطر الهادى الى مواجهة هذه الثورة بقواته الحربية ، ونجح فى القضاء على الثورة ، وقتل زعيمها . ومن واجبنا أن نُنصف الخلفاء العباسـيين فنقول انهم كانوا يقاتلون العـلويين وهم كارهون لذلك ، فقد كانوا يدافعون عن خلافتهم . وحدث أن أبدى رجال الخليفة الهادى سرورهم حين حملوا رأس الحسين ابن على الى الهـادى ، فزجـرهم وبكى وقال : أتيتمـونى مستبشرين ، كأنكم أتيتمونى برأس رجل من الترك أو الديلم ، انه رأس رجل من عترة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ألا ان أقل جزائكم عندى أن لا أثيبكم شيئا [1] .

---

(١) المسعودى : مروج الذهب جـ ٣ ص ٣٣٦

وكان عداء الحزب العلوى للعباسيين دافعا للمهدى الى عزل وزير من أكفأ وزرائه ، وهو يعقوب بن داود . فقد كان هذا الوزير مقرّبا الى المهدى ، لعدله وكفاءته ، مما جعله موضع حسد وحقد باقى رجال الدولة ، فكادوا له ، واتهموه بالميل الى العلويين ، وأنه يعمل على تحويل الخلافة اليهم ، وخاصة الى الزعيم العلوى اسحاق بن الفضل . حتى اذا طلب يعقوب من المهدى أن يولى اسحاق حكم مصر ، تأكد من صدق السعايات . ثم حدث أن أطلق يعقوب سراح أحد العلويين دون اذن الخليفة ، وكان المهدى قد أمره بقتله ، فأصبح شك المهدى يقينا ، فعزل الوزير .

المهدى يحفظ التوازن بين العرب والفرس :

يدعو الاسلام الى المساواة بين المسلمين جميعا ، عربهم وعجمهم ، فقد قال المولى عز وجل (ان أكرمكم عند الله أتقاكم) . كما قال سبحانه وتعالى (انما المؤمنون اخوة ، فأصلحوا بين أخويكم) . كما قال الرسول صلى الله عليه وسلم « لا فضل لعربى على عجمى الا بالتقوى » .

ولكن خابت آمال الموالى الفرس بعد اعتناقهم الاسلام ، فلم يصبح لهم فى العهد الأموى من الحقوق ما للمسلمين العرب . وترفّع العرب وتعصبوا على الفرس . ولم يكن هؤلاء الموالى من طبقات الفلاحين ، بل من الذين يعترف العرب أنفسهم بثقافتهم ، وكان فريق كبير منهم من أصل رفيع معروف .

وبجانب هؤلاء كان هناك آلاف الموالى يمثلون الأيدى العاملة فى الدولة . وقد أبى العرب الاختلاط بالعناصر غير العربية ، وحافظوا على طابعهم العسكرى ، لتكون مهنتهم الحرب والسياسة ، واعتمدوا على الموالى فى الصناعة والتجارة والحرف . ولا شك أن فى ذلك كسبا للموالى ، فقد سيطروا على الحياة الاقتصادية والاجتماعية ودواوين الحكومة .

أغفلت الدولة الأموية وضع تنظيم العلاقات بين المسلمين العرب وشعوب البلاد التى فتحها المسلمون ، بل أدّت سياسة الأمويين الى تعقيد الحياة القانونية والمسائل الدينية الداخلية [1] . وزاد المشكلة تعقيدا أن الأمصار المفتوحة عرفت الحركات الاجتماعية قبل الفتح الاسلامى [2] . وكان الأمويون فى حاجة الى الأموال الكثيرة ، فحادوا فى أواخر العصر الأموى عن نظام عمر بن الخطاب الذى يعفى الداخلين فى الاسلام من دفع الجزية .

وبجانب هذه الدوافع الاجتماعية والاقتصادية ، كانت هناك دوافع سياسية لثورات الموالى الفرس على الحكم الأموى . فقد ظهرت بينهم نزعة قومية تدفعهم الى احياء المجد الفارسى القديم [3] .

أدّى التنافس بين العرب والفرس فى العصر الأموى الى ظهور الشعوبية التى بدأت تنادى بمساواة العرب بالموالى ، ثم

---

(١) جولد تسيهر : العقيدة والشريعة فى الاسلام ص ٣٩

(٢) جوزى : من تاريخ الحركات الفكرية فى الاسلام ص ٤٠

(٣) ابن حزم : الفصل فى الملل جـ ٢ ص ١١٥

تطورت فى العصر العباسى ، فصارت تنادى بأن الفرس أرفع درجة من العرب . فزعم الشعوبيون أن أخطب الناس الفرس ، وأن الفرس أكثر معرفة من العرب بأمور الحرب . وكان معظم العرب لا يحسنون الكتابة والحساب ، فاعتمدوا على الموالى فى وظائف الدولة . ومن ثم شعر الموالى بأهميتهم وعلو شأنهم ، وأدركوا حاجة الدولة الأموية اليهم فى الحرب ، كما شعروا بفضلهم على الأدب والعلم والدين ، وعلى تقدم الزراعة والصناعة والتجارة [1] .

ولا شك أن هذا الشعور الذى اختلج فى نفوس الموالى أدى بهم الى التفكير فى الخروج على الخلافة الأموية ، فانضموا الى كل حزب وكل ثائر يعارض الأمويين ، مما أدى الى حرج الدولة الأموية [2] .

حاول الدعاة العباسيون منذ سنة ١٠٠ هـ استمالة الشيعة والموالى الفرس الى جانبهم ، فأعلنوا أنهم لا يسعون الى الخلافة ، وانما يعملون على القضاء على الدولة الأموية ، وأخذوا البيعة للرضا من آل محمد . وعرف العباسيون كيف يغرون الموالى على الانضمام اليهم ، فاتخذوا حق بنى هاشم فى الخلافة أساسا سياسيا ، ونادوا بتحسين أوضاع الموالى ومساواتهم بالعرب واشراكهم فى الأمر متخذين ذلك جوهر برنامجهم الاجتماعى ، ووعدوا بالعدل واتخاذ السنة والكتاب دستورا .

---

(١) انظر كتابنا (تاريخ العراق فى ظل الحكم الأموى) ص ١٦٢

(٢) Nicholson : Lit. Hist. of the Arabs. P. 247.

وعملت الدعوة العباسية على جمع كل عناصر المتذمرين تحت لوائها ، وبعثت الوعى القومى عند الفرس ، وقوت فيهم روح التوثب والسيادة ، بل روح احياء المجد القديم المفقود [1] .

كانت معركة الزّاب التى قامت بين الأمويين والخراسانيين فى جمادى الآخرة سنة ١٣١ هـ ، هى الفاصلة فى حياة الدولة الأموية ، واستعاد الموالى حريتهم وحقوقهم بعد أن فاز العباسيون بالخلافة ، وصار الفرس يلون المناصب الكبرى فى الدولة الجديدة [2] . كما حلت محل العناصر العربية طبقة من الموظفين من كافة الأجناس التى دانت لسلطان الخلافة ، واختلط الموالى بالعرب ، وانتقل مركز العالم الاسلامى من الشام الى العراق [3] .

أقام العباسيون بغداد لتكون حاضرة لخلافتهم ، وتحولوا عن دمشق عاصمة الأمويين ، فقد كان أهل الشام هم الجند المخلص لبنى أمية . كما أن دمشق بعيدة عن خراسان منبع الثورة ، ومصدر الدعوة ، وذخيرة العباسيين وعمادهم . كما أن دمشق منتحية ناحية الغرب وليست فى الوسط ، وقد أصبحت الدولة تمتد من الصين شرقا الى المحيط الأطلسى غربا . والعراق يحقق هذه الأغراض ، فبغداد قريبة من خراسان ، قريبة من

---

(١) الدورى : مقدمة فى تاريخ صدر الاسلام ص ٨٨ — ٨٩

(٢) الفخرى ص ١١٤ ، ومن ص ١٢٨ — ١٣١

(٣) Lammens : Etudes sur le Siecte des Omayyades, P. 408.

الشرق ، بعيدة عن الروم ، كثيرة الخيرات ، صالحة لأن تكون نقطة اتصال بين الفرس والأمم السامية[1] .

ومن الحقائق التاريخية الثابتة ، أن الطابع الفارسى ظهر واضحا فى العصر العباسى الأول ، واقتبس الخلفاء العباسيون كثيراً من نظم الفرس الحكومية ، وألوانا من حياتهم الاجتماعية ، واعتمدوا على العناصر الفارسية فى حكم الدولة العباسية ، واحتفلوا بالاعياد الفارسية ، وكان هذا نتيجة حتمية طبيعية ، لأن العباسيين اعتمدوا على الفرس فى القضاء على الدولة الأموية واقامة الخلافة العباسية . ولكن الخلفاء العباسيين ، رغم تقريبهم للفرس ، لم يهملوا العناصر العربية ، بل عملوا على حفظ التوازن بين الفرس والعرب .

كان الخلفاء العباسيون عربا هاشميين ، وكانوا يفخرون بذلك . وهم وان حفظوا للفرس جميلهم فانهم لم ينسوا عروبتهم .وكان الخلفاء العباسيون اذا شعروا بطغيان الفرس على نفوذهم وضعوا حداً لاستبدادهم بل ونكلوا بهم . كما فعل أبو العباس بأبى سلمة الخلال ، والمنصور بأبى مسلم الخراسانى، والمهدى بيعقوب بن داود ، والرشيد بالبرامكة ، والمأمون بالفضل بن سهل .

حقاً كان للفرس فى العصر العباسى الأول نفوذ كبير فى الدولة ، ولكن ليس هذا معناه انعدام نفوذ العرب . وان كانت

---

(١) أحمد أمين : ضحى الاسلام جـ ١ ص ١٨٠

المناصب الكبرى فى أيدى الفرس ، فقد كان الخليفة عربيا هاشميا ، وكان له قواده من العرب وولاته من العرب ، الى جانب القواد والولاة الفرس . ولذا يمكننا أن نقول ان الدولة العباسية جعلت كفة الفرس هى الراجحة ، ولكن الخلفاء العباسيين لم يهملوا العرب ، وعملوا على أن يمسكوا بميزان القوى فى أيديهم .

واتبع الخليفة المهدى هذه السياسة الرشيدة ، فقد عمل على أن يحفظ التوازن بين العناصر العربية والعناصر الفارسية ، وسخر هذه العناصر كلها لخدمة الدولة العباسية وتدعيم أسسها . ولم يكن من حسن السياسة فى العصر العباسى أن يعتمد الخليفة على العناصر العربية وحدها واهمال الفرس تماما . فقد قامت الدولة العباسية على أكتاف الفرس والخراسانيين ، وكانت العناصر الفارسية تمثل حينئذ غالبية أهالى العراق . كما أن العصبية القبلية ، وعصبية العرب المضريين والعرب اليمنيين ، أدت الى ضعف العناصر العربية ، وكان العرب يميلون الى بنى أمية ويتمنون عودة دولتهم التى تعصبت للعنصر العربى . ولذا كان المهدى يساير الظروف ، ويتمشى مع تيار الأحداث السياسية وتطور الحياة الاجتماعية .

ولم يهمل الخليفة المهدى العناصر العربية ، فقد كان معظم ولاة الأمصار الاسلامية من العرب . كما أغدق صلاته على زعماء ووجوه العرب ، وخاصة من بنى هاشم . وقد رأيناه يرحل الى بلاد الحجاز قلب العروبة وقتئذ ، ويغدق الأموال

على أهلها ، حتى اذا عاد الى بغداد صحب معه خمسمائة من العرب الأنصار ليكونوا حرسا خاصا له . كما رحل المهدى الى بلاد الشام والتقى بزعمائها العرب ، وصلى بهم فى مساجدهم ، وأجزل لهم العطاء .

ولا ننسى أن المهدى نشأ نشأة عربية ، من والدين عربيين ، وكان أستاذه ورائده المفضل الضبى الذى أمده بالثقافة العربية الأصيلة ، ونشأ يجيد اللغة العربية ، وتميز بالبلاغة والفصاحة ، وقرب اليه العلماء والفقهاء والشعراء من العرب . ولم تذكر المصادر التاريخية أى نبأ عن تعصب المهدى ، سواء للعرب أو الفرس ، بل هى تشـيد بعدله وتسامحه وميله الى المساواة ، وعفوه عن أعدائه .

المهدى والزنادقة

تميز العصر العبـــاسى بظهور حركات خطيرة ، هى حركات الزنادقة ، التى ظهرت فى شكل سلسلة طويلة ذات حلقات متتالية مترابطة ، وكان من نصيب عصر المهدى حلقة من هذه الحلقات . وحركة الزندقة تهدد الدين الاســـلامى ، فهى تدعو الى آراء تخالف تعاليم الاسلام ، مما يحتّم على الخلفاء العباسيين وعلى عامة المسلمين محاربة الزنادقة دفاعا عن الاسلام الحنيف . كما اعتَبر الخلفاء العباسيون الزنادقة خارجين على طاعة الدولة ، وثواراً سياســـيين ، فقد عملوا على احياء الدولة الفارســـية المجوسية البائدة ، والقضاء على الدولة العباسية الاسلامية . ولما كان الزنادقة يحاربون الاسلام ، فانهم بالتالى لا يخضعون لدستور الاسلام وهو القرآن الكريم ، وهو دستور الدولة العباسية ومصدر قوانينها ونظمها وتقاليدها .

بدأت حركات الزنادقة فى العصر العباسى الأول فى عهد الخليفة الثانى أبى جعفر المنصور ، فظهرت حركة الراوندية ، ثم ظهرت حـــركة المقنعية فى عهد المهـــدى ، وتوالت حركات الزنادقة ، وكان أكثرها خطورة حركة الأفشين والمازيار فى عهد الخليفـــة المعتصم . وقد ارتبطت حـــركات الزنادقة بالعقائد المجوسية (الزرادشتية ، والمزدكية ، والمـــانوية) من جهة ،

وبالروح القومية الفارسية من جهة أخرى ، مما يجعلنا نبحث عن هذه الجذور والأصول .

المجوسية كأساس للزندقة :

اشتهر الفرس — والجنس الآرى عامة — بأنهم ميالون الى عبادة المظاهر الطبيعية ، فالسماء الصافية ، والضوء ، والنار ، والهواء ، والماء ينزل من السماء ، جذبت أنظارهم ، وجعلتهم يعبدونها ، على أنها كائنات الهية ، وسموا الشمس « عين الله » ، والضوء « ابن الله » ، كما أن الظلمة والجدب ونحوهما كائنات الهية شريرة ملعونة [1] .

عبد الفرس أول أمرهم ما عبده قدماء الآريين من قوى الطبيعة ، وخاصة الشمس التى تبدو لهم ظاهرة فى السماء ، وأسبغوا عليها صفات الألوهية ، واعتبروها أعظم الموجودات . ووقف الفرس أمام آلهة الخير يستمدون منها المعونة ، ويتوجهون اليها بالصلاة ، ويقدمون لها الضحايا ، ورأوا أن آلهة الخير فى نزاع دائم مع آلهة الشر ، وأعمال الانسان من صلاة ونحوها ، تعين آلهة الخير فى منازلتها آلهة الشر ، واتخذوا النار رمزا للضوء ، وبعبارة أخرى رمزا لآلهة الخير ، يشعلونها فى معابدهم ، حتى تقوى على آلهة الشر وتنتصر عليها ، وكانت هذه النار منبعا لخيال شعرى خصب .

---

(١) أحمد أمين : فجر الاسلام ص ٩٩

عرف الشهرستانى [1] المجوس فقال : « المجوس وأصحاب الاثنين المانوية وسائر فرقهم المجوسية ، يقال لهم الدين الأكبر والملة العظمى ، اذ كانت دعوة الأنبياء بعد ابراهيم الخليل عليه السلام فى العموم كالدعـوة الخليلية ولم يثبت لها من القوة والشوكة والملك والسيف مثل الملة الحنيفية ، اذ كانت ملوك العجم كلها على ملة ابراهيم ، وجميع من كان فى زمانه كل واحد منهم من الرعايا فى البلاد على أديان ملوكهم ، وكان لملوكهم مرجع هو موبذ موبذان أعلم العلماء وأقدم الحكماء يصدرون عن أمره ولا يرجعون الا على رأيه ، ويعظمونه تعظيم السلاطين لخلفاء الوقت . وكانت دعوة بنى اسرائيل أكثرها فى بلاد الشام وما وراءها من المغـرب ، وقـل ما سرى من ذلك الى بلاد العجم » .

الزرادشتيه والمانوية والمزدكية :

اعتمدت حركات الزنادقة فى عهد المنصـور والمهدى على الديانات المجوسية القديمة ، وخاصة الزرادشتية ، والمانوية ، والمزدكية ، فقد حاول الزنادقة بعث هـذه الديانات الفارسية القديمة البائدة ، التى تخالف تعاليم الاسلام ، ولذا قاومها كل من المنصور والمهدى لحماية الدولة من هؤلاء الأعداء ؛ أعداء الدين والدولة والمجتمـع ، مما يجعلنا نسـتعرض أسسها فى ايجاز :

---

(١) الملل والنحل جـ ١ ص ٤٨

ظهر زرادشت ــ نبى الفرس ــ فدعا الى تعاليم جديدة أسست على الديانة القديمة بعد اصلاحها . وظهر أمره نحو منتصف القرن السابع قبل الميلاد ، ومات نحو سنة ٥٨٣ ق.م. وجوهر مبادىء زرادشت ، أن فى العالم حوادث كثيرة ، منها الخير ومنها الشر ، وهذه الحوادث لا توجد نفسها ، بل لا بد لها من أصل تستند عليه . ويرى زرادشت استحالة نسبة الخير والشر الى أصل واحد . ولذا من الضرورة الايمان بوجود قوتين متضادتين ، واحدة طاهرة مقدسة تفيض عنها الحياة والخير والنور وتسمى (مزدا) ، والأخرى خبيثة تسبب البلاء والشر وتسمى (أهريمان) .

وبين هذين الالهين ، مزدا وأهريمان ، عداء دائم وحرب مستمرة . فهما يتنازعان الانسان ويحاول كل منهما الانتصار على الآخر . ولكن فى النهاية يكون النصر لمزدا ، اله الخير . وتحدث الشهرستانى [1] عن هذين الالهين فقال : « زعموا أن الدنيا كانت سليمة من الشرور والآفات والفتن ، وكان أهلها فى خير ونعيم خالص ، فلما وجد أهريمان حدثت الشرور والآفات والفتن » .

ولزرادشت كتاب مقدس يسمى (أفستا Avesta) وعليه شرح يسمى (زندافست) قال المسعودى [2] : « واسم هذا الكتاب (الايستا) واذا عرب أثبتت فيه قاف فقيل (الايستاق)

(١) الشهرستانى : الملل والنحل جـ ١ ص ٤٩

(٢) المسعودى : مروج الذهب جـ ١ .

وعدد سوره احدى وعشرون سورة تقع كل سورة فى مائتى ورقة » . وكان الفرس يدينون بالبعث والنشور ، ويؤمنون بالحياة الآخرة .

من أبرز مبادىء زرادشت أن أشرف عمل للانسان الزراعة والعناية بالماشية ، فحث الناس على أن يجدوا ويعملوا حتى انه حرم على أتباعه الصوم لأنه يضعفهم عن العمل . ويرى أن الماء والهواء والنار والتراب عناصر طاهرة لا تنجس ، فقدس النار واتخذها رمزا ، وحرم تنجيس الماء الجارى ، وحرم دفن الموتى فى الأرض[1] .

سادت الديانة الزرادشتية فى بلاد فارس وما جاورها حتى انتصر الاسكندر المقدونى على الفرس سنة ٣٣١ ق.م. فانحط شأنها . ثم نهضت فى عصر الأسرة الساسانية التى ابتدأ حكمها فى البلاد سنة ٢٢٦ م. وبقيت الزرادشتية دين الفرس حتى كان الفتح الاسلامى ، ففر بعض أتباعها الى الهند حيث لا تزال طائفة (الفريسيين) منهم قائمة حتى الآن . وبقيت فئة فارس تقيم شعائر دينها وتوقد النار فى المعابد فى كل ولاية فارسية تقريبا من بعد انتشار الاسلام بنحو ثلاثة قرون للهجرة .

ومن أشهر المذاهب المجوسية المانوية نسبة الى (مانى) مؤسس المذهب ، وهو رجل فارسى ولد سنة ٢١٥ أو ٢١٦ م . ويرى مانى أن العالم نشأ من أصلين : النور والظلام ، فنشأ عن

---

(١) أحمد أمين : فجر الاسلام ص ١٠٢

النور كل خير ، وعن الظلام كل شر فى العالم . وقد امتزج الخير بالشر امتزاجا تاما ، وما يصدر عن الانسان من خير فمصدره اله الخير ، وما يصدر من شر فمصدره اله الشر .

وهذه التعاليم تشابه الى حد كبير تعاليم زرادشت ، ولكنهما يختلفان فى أمر جوهرى . ذلك أن زرادشت كثير الأمل فى المستقبل ، فهو يتوقع أن يتغلب الخير على الشر ، وان طال الأمر . وكان زرادشت متفائلا ، أمّا مانى فكان متشائما يائسا يرى أن هذا الامتزاج لا مخلص منه الا بالموت . ويرى زرادشت أن يعيش الانسان حياة طبيعية ، فيتزوج وينسل ، ويعنى بزرعه ونسله وماشيته ويقوى بدنه ولا يصوم ، وأنه بهذه المعيشة ينصر اله الخير على اله الشر .

أمّا مانى فانه يميل الى الرهبنة ، ويرى ان امتزاج النور بالظلمة فى هذا العالم شر ، ومن أجل هذا حرّم النكاح حتى يستعجل الفناء ، ودعا الى الزهد ، وشرع الصيام سبعة أيام فى كل شهر ، وفرض صلوات كثيرة ، يتوجه فيها المصلى نحو الشمس ، ونهى أصحابه عن ذبح الحيوان لما فيه من ايلام . ويرى مانى أن وجود الانسان جناية جناها أهله ويجب انقراضه [1] .

اعتنق هرمز ملك الفرس مذهب مانى وأيده ، كما اعتنقه كثير من الفرس . فلما مات هرمز وخلفه بهرام الأول ، أقدم

---

(١) يرى بعض المفكرين أن هذه النظرة التشاؤمية تشبه فلسفة أبى العلاء المعرى وفلسفة شوبنهاور فى العصور الحديثة .

على قتل مانى واضطهد أصحابه . ولكن التعاليم المانوية لم تمت ، بل حاول أتباعها احياءها فى عصرى المنصور والمهدى .

أما المزدكية ، فقد ظهر مزدك فى القرن الخامس الميلادى (حوالى سنة ٤٨٧ م) ، وهو رجل فارسى من نيسابور ، دعا الناس الى مذهب ثنوى (ثنائى) جديد ، فكان يقول بالنور والظلمة ودعا الى شيوعية فوضـــوية . فكان يرى أن الناس ولدوا سواء فليعيشوا سواء ، وأهم ما تجب فيه المساواة المال والنساء . وكان مزدك ينهى الناس عن التباغض والقتال ، ورأى أن السلام يتحقق اذا أباح النساء والأموال وجعلها شركة شائعة بين الناس جميعا [1] . وتحدث الطبرى [2] عن اعتناق سفلة الناس هذه المبادىء لأنها ترضى شهواتهم فقال : « ... فافترض السفلة ذلك واغتنموه ، وكانفوا مزدك وأصحابه وشايعوهم ، فابتلى الناس بهم ، وقوى أمرهم ، حتى كانوا يدخلون على الرجل فى داره فيغلبونه على منزله ونسائه وأمواله ، وحملوا (قباز) على تزيين ذلك وتوعدوه بخلعه ، فلم يلبثوا الا قليلا حتى صاروا لا يعرف الرجل منهم ولده ، ولا المولود أباه ، ولا يملك الرجل شيئا مما يتسع به » .

ونجح المسلمون فى القضاء على الدولة الفارسية الساسانية، وتنفس كثير من الفرس الصعداء ، فقد غضبوا لمناصرة الأكاسرة الساسانيين لديانة زرادشت وافساح المجال لكهنتها حتى أصبح

---

(١) الشهرستانى : الملل والنحل جـ ١

(٢) الطبرى جـ ٢ ص ٨٨ وما بعدها .

لهم نفوذ كبير فى الدولة ، ثم اضطهدوا كل الديانات الأخرى . وأزال العرب الفاتحون نظام الطبقات والدين ، ولم يبق من المعتنقين للزرادشتية القديمة الا قليل من الأتباع يسمون (كبر) أو (بارث) .

انتصر الاسلام على الديانات المجوسية ، واعتنق كثير من الفرس الدين الاسلامى وتعلموا اللغة العربية ، ولكنهم لم يصبحوا فى جملتهم كالعرب فى عقيدتهم أو فى نزعاتهم أو فى عقليتهم . بل اعتنقوا الاسلام وحاولوا صبغه بصبغتهم الفارسية، ولم يتجردوا من كل عقائد الدين القديم وتقاليده ، ففهموا الاسلام بالقدر الذى يسمح به دين قديم اعتنقه قومه أجيالا ، وكذلك تعلم الكثير منهم اللغة العربية ولكن لم يترك خياله الفارسى . ولذا دخلت فى الاسلام تعاليم جديدة ، ونزعات دينية جديدة ، ظهر أثرها فيما بعد ، وأظهرها فى الاسلام التشيع والتصوف ، وكان من أثر ذلك أيضا أن يغمر الأدب العربى بالحكم والقصص الفارسية [١] .

لم يتخذ المسلمون الحروف العربية وحدهم بل اتخذها الزرادشتيون أيضا ، فنشأت لغة فارسية حديثة ومحتوية على كثير من الكلمات العربية . أما بقايا الآداب الفهلوية القديمة فقد كثر الغلط فى فهمها ، لأنها فهمت بصعوبة كثيرة وبدراسات العلماء الأوروبيين [٢] .

---

(١) أحمد أمين : فجر الاسلام ص ٩٨

(٢) بارتولد : تاريخ الحضارة الاسلامية ص ١٩٩

ولم يكن ارتداد الفرس الزرادشتيين عن ديانة زرادشت بالأمر الصعب ، فقد تبع سقوط الأسرة الساسانية تدهور هذه الديانة ، حتى انه لم يعد لأتباعها هناك مركز يجتمعون حوله ، فوجدوا السبيل سهلا وميسورا لتدينهم بالاسلام . ويؤكد أرنولد [1] أن القوة والعنف لم تكن السبب فى اتساع نطاق تحويل الناس الى الاسلام ، بدليل هذه المعاملة الطيبة التى عامل بها العرب من ظل من الفرس على تمسكه بدينه القديم .

تأثر الفرس بزواج الحسين بن على بن أبى طالب من (شاهبانو) احدى بنات يزدجرد الثالث آخر أكاسرة الفرس الساسانيين . وقد رأى الفرس فى أولاد شاهبانو والحسين وارثين لملوكهم الأقدمين ، كما رأوا فيهم ورثة لتقاليدهم القومية . وهذا الشعور الوطنى يفسر لنا تعلق الفرس الشديد بعلى بن أبى طالب والأسرة العلوية ، واتخاذهم أحيانا موقف العداء من الأسرة العباسية ، ومحاولتهم تحويل الخلافة من العباسيين الى العلويين .

ومن تسامح المسلمين ، أنهم اعتبروا المجوس أهل ذمة وأخذوا منهم الجزية ، فيذكر الماوردى [2] أن « أهل الكتاب هم اليهود والنصارى ، وكتابهم التوراة والانجيل ، ويجرى المجوس مجراهم فى أخذ الجزية منهم ، وان حرم أكل ذبائحهم ونكاح نسائهم . وتؤخذ من الصابئة والسامرة اذا وافقوا

---

(١) أرنولد : الدعوة الى الاسلام ص ٢٣٨

(٢) الماوردى : الأحكام السلطانية ص ١٣٧

« والنصارى فى أصل معتقدهم » . ويذكر الشهرستانى [1]
ـ مجوس لهم شبهة كتاب ، ولكن الثابت تاريخيا أن الرسول
صالح مجوس أهل هجر على أن يأخذ منهم الجزية . وقد أكد
عبد الرحمن بن عوف للخليفة عمر بن الخطاب أن الرسول قال :
(سنوا بهم سنّة أهل الكتاب) [2] . واستمر الولاة الأمويون
يجمعون الجزية من المجوس مثل سائر أهل الذمة .

واتبع العباسيون سياسة الخلفاء الراشدين والأمويين ،
وعاملوا المجوس معاملة طيبة ، واعتبروهم أهل ذمة . وكان
الفرس والخراسانيون عماد الدولة العباسية ، فحرص الخلفاء
العباسيون على ارضائهم .

عوامل ظهور حركات الزندقة فى عهدى المنصور والمهدى :

تميز العصر العباسى ، وخاصة فى عصرى المنصور والمهدى ،
بشيوع لفظ « الزندقة » ، وارتباطه بالمجوسية فى معظم
الأحيان . وان كان هذا اللفظ قد شاع فى أواخر العصر
الأموى ، الا أن ذلك كان على نطاق محدود . ففى العصر
الأموى ، اتهم عبد الصمد بن عبد الأعلى مؤدب الوليد بن
يزيد بن عبد الملك بالزندقة فى العصر الأموى ، كما اتهم الوليد
ابن يزيد بنفس الاتهام . كما كان الجعد بن درهم ، مؤدب

(١) الملل والنحل جـ ١ ص ٤٨
(٢) البلاذرى : فتوح البلدان ص ٢٧٦

مروان بن محمـــد آخر الخلفاء الأمويين ، زنديقا [1] . ويرجع السبب فى عدم انتشار الزندقة فى العصر الأموى ، أن الدولة الأموية كانت دولة عربيـــة ، وكانت منزلة الموالى ، وخاصة الفرس ، أدنى من العـــرب . والعرب لا تعـــرف الزندقة ولا تميل اليها .

فلما قامت الدولة العباســية ، انتعش الموالى الفـــرس ، ووصلوا الى كثير من النفوذ ، وقد كانت لهم ديانات سابقة لم ينسوها جميعا لمَّا اعتنقوا الاســـلام ، وكانوا لا يجـــرأون فى العصر الأموى أن يرفعوا أصـــواتهم ، فكان همهم الأول أن يتحرروا سياسيا لا دينيا ، فكانت دعوتهم السرية واجتماعاتهم وتدابيرهم للسياسة لا للدين والزندقة . فلما نجحوا فى القضاء على الدولة الأموية ، واعتبروا الدولة العباسية دولتهم ، ظهرت الديانات القديمة ، وكانت الزندقة . ويرى (فون كريمر) [2] أن بعض الموالى ظلوا مخلصين فى قرارة نفوسهم لمعتقداتهم الدينية القديمة ، وقبلوا الاســـلام ظاهريا فقط . ويرى (ديومبين) [3] أن كبار المـــلاك من الموالى اعتنقوا الاســـلام ليخضـــعوا للنظام الاسلامى ولكنهم احتفظوا بدينهم وعاداتهم .

كان هناك دوافع سياسية لثورات الموالى الفرس على الحكم العربى الاسلامى . فقد ظهرت بينهم نزعة قومية تدفعهم الى احياء

---

(١) ابن النديم : الفهرست ص ٢٧٢
(٢) فون كريمر : الحضارة الاسلامية ص ٧٤
(٣) ديومبين : النظم الاسلامية ص ٧٥

المجد الفارسى القديم ، وفى ذلك يقول ابن حزم [1] : « ان الفرس كانوا من سعة الملك وعلو اليد على جميع الأمم وجلالة الخطر فى أنفسهم حتى انهم كانوا يسمون أنفسهم الأحرار والأبناء ، وكانوا يعدون سائر الناس عبيداً لهم . فلما امتحنوا بزوال الدولة عنهم على أيدى العرب ، وكانت العرب أقل الأمم عند الفرس خطرا ، تعاظمهم الأمر وتضاعفت لديهم المصيبة وراموا كيد الاسلام بالمحاربة » .

ظهرت حركات الزندقة فى العصر العباسى الأول بصورة خطيرة ، تهدد كيان الدولة العباسية والمجتمع الاسلامى ، فتعاليم الزنادقة تبعد تماما عن تعاليم الاسلام وعقائده ، وتقوم على نوع من التعاليم الفاسدة ، التى تبيح المحرمات وتعبث بالآداب الاجتماعية ، وتعرض الحياة السياسية والاجتماعية للانهيار .

وكانت الكوفة — التى ظهر فيها الدعاة العباسيون — فى مستهل القرن الثانى للهجرة مهدا لتشيع متطرف غير اسلامى . وخلط بعض الفرس بين الاسلام والديانات والعقائد القديمة التى كانت سائدة فى بلاد العراق قبل ظهور الاسلام (كديانة الفرس القدماء (**Parsece**) والمانوية والصابئة وغيرها) . وذلك للتوفيق بينه وبين تلك الديانات المختلفة . وكان الدعاة يقومون بنشر الدين الاسلامى بين الناس بحماس وحمية رغم

(١) ابن حزم : الفصل فى الملل جـ ٢ ص ١١٥

هذا التغيير الذى طرأ عليه فى ذلك الحين ويدافعون عنه باخلاص وغيرة . يدل على ذلك ما كان من الحكم بالاعدام على كثير من الغــلاة والمبتدعين منــذ أيام على بن أبى طالب الى عصرى المنصور والمهدى [1] .

ارتبطت الزندقة بالمجوسية عامة والمانوية خاصة . فالجاحظ الذى عاش فى عصر المأمون العباسى تحدث عن كتب الزندقة فوصفها وصفا دقيقا ، يشابه تماما ما نعلمه عن كتب المانوية . ثم جاء الأصفهانى بعده (+ ٣٤٨ هـ) فتحدث عن الزنادقة فى كتابه (الأغانى) [2] فقال : انهم «كانوا يعرفون بالثنوية وعبادة الهين اثنين ، واتباع تعاليم مانى » . كما أن ابن النديم فى كتابه (الفهرست) يذكر أن كلمة الزنادقة كانت تطلق على أصحاب مانى ومعتنقى مذهبه ، وليست كلمة عامة تطلق على كل كافر أو ملحد .

أما من الناحية اللغوية ، فيذكر الجوهرى فى المصبــاح : « والزنديق من الثنوية ، وهو معرب ، والجمع الزنادقة ، وقد تزندق ، والاسم الزندقة » . وجاء فى لسان العرب : « الزنديق القائل ببقاء الدهر ، فارسى معرَّب (زندكر) أى يقول ببقاء الدهر » . ويرى البعض أن كلمة زنديق فى الأصــل معناها بالفارسية الذى يتبع (زند) ، ثم أطلق على المانوية ، لأنهم

---

(١) فان فلوتن : السيادة العربية ص ٩٦

(٢) الأغانى ج ٣ ص ٧٣ و ٨٦

كانوا يأخذون (زند) وغيره من الكتب المقدسة ، ويشرحونها على مذهبهم بطريقة التأويل .

المنصور والزنادقة :

تتبعنا أصول وجذور حركات الزندقة فى العصور السابقة للعصر العباسى . ولكن الزندقة لم تتخذ الشكل الايجابى العملى الثورى ، الا فى العصر العباسى ، وبدأت أول حلقة فى سلسلة حركات الزنادقة فى عصر المنصور ، ثم كانت الحلقة الثانية فى عهد ابنه الخليفة المهدى ، تكمل ما بدأه الزنادقة فى عهد المنصور ، فقد كانت حركة المقنعية فى عهد المهدى تتمة لحركة الراوندية فى عهد المنصور .

ظهر فى عصر المنصور رجل أبرص ، يُدعى (الأبلق) ، وأسس جماعة الراوندية ، نسبة الى مدينة راوند القريبة من أصفهان ، التى كانت مهد دعوتهم . ونادى الأبلق بمبادىء غريبة على الاسلام ، فقد زعم أن الروح التى كانت فى عيسى بن مريم قد انتقلت الى على بن أبى طالب ، ثم حلت فى الأئمة العلويين على التوالى ، حتى انتهت الى الامام ابراهيم بن محمد ، وهو سبط العباس عم الرسول . وزعم الراوندية أن هؤلاء الأئمة العلويين آلهة ، واستحلوا الحرمات . فكان كل راوندى يدعو الآخرين من أعضاء الجماعة الى منزله ، فيقدم لهم الطعام والشراب ثم يبيح لهم الحرمات . وعلم الوالى أسد بن عبدالله القسرى بهذه الجماعة وبمبادئهم الخطيرة ، فقتل وصلب عددا كبيرا منهم .

ومضت جماعة الراوندية فى ضلالها والحادها ، وأرادوا استرضاء الخليفة المنصور ، فتوجهوا اليه بالعبادة واعتبروه الههم . وخرجت جماعة منهم يحملون السلاح الى الخضراء ، وهى القبة التى بناها المنصور فى بغداد ، حتى اذا رأوا المنصور صاحوا : أنت أنت . أى أنت الله . ولم يرض المنصور عن هذا الكفر والالحاد ، فخرج بنفسه فى جماعة من جنده فقاتلهم ، وقتل عددا منهم ، وهرب الباقون وهم يصيحون أيضا : أنت أنت [1] .

وأمر المنصور ولاته وعماله أن يتتبعوا الراوندية فى كل مكان ، فألقوا بكثير منهم فى السجن . ولكن الباقين جمعوا شملهم وأعلنوا الثورة المسلحة . وتوجهوا الى السجن ، وأطلقوا سراح المسجونين من الراوندية ، وخرجوا جميعا لقتال المنصور . وأبدى المنصور شجاعة وثباتا ، حتى انه خرج لقتالهم ماشيا ، فتكاثروا عليه وكادوا يقتلونه ، لولا أن سارع الى نجدته معن ابن زائدة الشيبانى ، الذى نجح فى صد الراوندية ، وكافأه المنصور بأن ولاه حكم بلاد اليمن .

كان أبو جعفر المنصور ينظر الى الراوندية كأعداء سياسيين لدولته ، لأنهم من أتباع عدوه أبى مسلم الخراسانى ، الذين يعملون على تحويل الخلافة الى مثلك كسروى ، كما كان ينظر اليهم باعتبارهم زنادقة ، يريدون أن تعود المجوسية أو شكل من أشكالها ، كالزرادشتية أو المانوية أو المزدكية أو غيرها ،

---

(١) الطبرى جـ ٦ ص ١٧٠

فعاملهم كما عامل أبا مسلم ، وقتلهم شر قتلة ، الا أنه لم يستطع مع ذلك أن يقضى عليهم قضاء تاما ، فظهروا فى صور مختلفة نراها فى مثل ثورات المقنع الخراسانى فى عهد الخليفة المهدى ، ثم فى ثورة بابك الحزمى فى عصر المأمون والمعتصم [1] .

اتهم ابن المقفع بالزندقة ، ومن أقدم النصوص فى ذلك ما حكى عن الجاحظ : « أن ابن المقفع ومطيع بن اياس ويحيى ابن زياد كانوا يتهمون فى دينهم » . ويروون أن الخليفة المهدى قال : « ما وجدت كتاب زندقة الا وأصله ابن المقفع » . ويروى الجهشيارى أن سفيان بن معاوية لما أراد قتل ابن المقفع بتحريض من المنصور قال له : « والله يا ابن الزنديقة لأحرقنك بنار الدنيا قبل نار الآخرة » .

الزنادقة فى عصر المهدى :

كانت الدوافع الى الزندقة فى العصر العباسى مختلفة منوعة ، فقوم دعاهم اليها دين ألفوه قديما وهو دين المجوسية ، وكان لهم فيه آباء عديدون ، وكانت لهم عادات وتقاليد أخذها الخلف عن السلف ، ولكنهم أسلموا ليصلوا الى المناصب الكبرى ، دون أن يدخل الايمان الى قلوبهم ، واتخذوا الاسلام ثيابا ظاهرة يخلعونها اذا خلوا الى أهليهم ، وهم اذا أمكنتهم الفرصة كادوا للاسلام والعرب ، ودعوا للشعوبية والمجوسية [2] .

---

(١) حسن ابراهيم : تاريخ الاسلام جـ ٢ ص ٩٤

(٢) أحمد أمين : ضحى الاسلام جـ ١ ص ١٦٢

وأشهر أنواع الزنادقة فى العصر العباسى من كانوا يتظاهرون بالاسلام بينما هم لا يزالون على الدين الفارسى وهو المجوسية ، وخاصة مذهب مانى . ذلك أنه كان فى ذلك العصر طائفة لم تؤمن بالاسلام ولكن آمنت بسلطانه ، ورأت أن لا سبيل لنيل الجاه والسلطان والمال الا بالاسلام ، فاعتنقته ظاهرا وظلت تخلص لدينها القديم . وقوم من هؤلاء كان لهم غرض أعمق من هذا ، اذ رأوا أنهم لا يستطيعون افساد العقيدة الاسلامية الا بالانتساب اليها أولا حتى يؤمن جانبهم ، وحتى يسهل على النفوس الأخذ بقولهم ، ثم هم بعد ينفثون تعاليمهم على أشكال مختلفة ، طورا فى العلم والدين ، وطورا فى الأدب ، وطورا فى وضع مثالب العرب ، ومن حين لآخر كان يُعثر على بعضهم فينكل بهم ، ولكنهم لا يبيدون ، أحيانا يعملون أفرادا ، وأحيانا يعملون جماعات .

من هؤلاء الزنادقة : عبد الكريم بن أبى العوجاء الذى وضع ألف حديث نبوى مكذوب واعترف بجريمته فقتله الخليفة أبو جعفر المنصور ، وحماد الراوية الذى أفسد الأدب واللغة . وصالح بن عبد القدوس الذى دس معانى الزندقة فى الأشعار . ويونس بن أبى فروة الذى ألف كتابا فى مثالب العرب والاسلام ليتقرب به الى ملك الروم . وكان هؤلاء وأمثالهم يتزندقون تزندقا علميا ، فهم يدينون بمبادىء مانى أو مزدك ، ويؤمنون بالنور والظلمة ، وبعبارة عامة يدينون بدين المجوس عن علم ،

ثم يتظاهرون بالاسلام ، حتى يتجنبوا تنكيل أولى الأمر والمسلمين بهم ، أو توسلا الى اضلال الناس [1] .

اشتهر بالزندقة فى هذا العصر كثيرون ، منهم الحمادون الثلاثة (حماد عجرد ، وحماد الراوية ، وحماد بن الزبرقان) ، وبشار ابن برد ، وابن المقفع ، ويونس بن أبى فروة ، ومطيع بن اياس ، وعبد الكريم بن أبى العوجاء ، وصالح بن عبد القدوس ، وعلى ابن الخليل ، وابن مناذر . ونجد فى ترجمتهم فى الأغانى للأصفهانى وغيره ضروبا من القصص التى توضح زندقتهم ، وكان بينهم علاقات ود أو عداء .

وكان معظم الزنادقة من الموالى الفرس ، وزندقتهم تستتر وراءها ديانة مجوسية . ولكننا نجد بعض الزنادقة من العرب ، بل من الهاشميين من اتهم بالزندقة ، مثل الحسين بن عبد الله بن عبيد الله بن العباس بن عبد المطلب ، وعبد الله بن معاوية بن عبد الله بن جعفر بن أبى طالب . وقد أمر الخليفة المهدى بالقبض على داود بن على ويعقوب بن الفضل ، وكلاهما من البيت العباسى ، واتهما بالزندقة ، وأقرّا بذلك للمهدى . ولكن انتشار الزندقة بين العرب كان نادرا ، ومعظمهم تزندقوا لميلهم الى المجون والعبث ، فقد كانت الزندقة تبيح الحرمات . كما أصبحت الزندقة وسيلة للخلاص من الخصوم السياسيين .

---

(٢) المصدر السابق جـ ١ ص ١٥٧

حركة المقنعية فى عهد المهدى :

ظهرت فى عهـد المهدى الحلقة الثانية من حلقات حركات الزندقة فى العصر العباسى ، واتخذت شكلا ايجابيا ثوريا . وركز المهدى جهوده حتى نجح فى القضاء عليها ، فقد كان المهدى من أكثر الخلفاء العباسيين تدينًا وتمسكا بتعاليم الاسلام ، وكما يقول ابن طباطبا [1] عنه : « كان المهدى شهما فطنا كريما شديدا على أهل الالحاد والزندقة لا تأخذه فى اهلاكهم لومة لائم » .

ظهر فى عهد المهدى فى سنة ١٦١ هـ ، فى قرية من قرى مرو بخراسان ، رجل يدعى حكيم المقنع ، وكان قبيح الخلقة ، أعور قصيرا . ويرجع سبب تسميته المقنع ، الى أنه أدرك قبح وجهه ممَّا يدعو الى نفور الناس ، فأراد اخفاءه عنهم ، فصنع قناعا من الذهب على صورة وجه انسان وركّبه على وجهه . ولم يفض المقنع الى أتباعه بسر اتخاذه هذا القناع الذهبى ، فذهب الى أنه يشع من وجهه نور ساطع يبهر الأنظار وقد يحرق من يقع عليه !!

وكان المقنع فى بداية الأمر يعتنق مذهب (الرزامية) ، وهم فرع من فروع حزب الشيعة الكيسانية الذى ساق الامامة الى محمد بن على بن أبى طالب المعروف باسم (ابن الحنفية) ، ثم الى ابنه هاشم ، ثم الى على بن عبد الله بن العباس ، ثم الى ابنه محمد ، ثم الى ابنه ابراهيم الامام ، ثم الى أخيه أبى العباس أول

---

(١) الفخرى ص ١٦١

الخلفاء العباسـيين . ثم انتقلت الامامة منه الى أبى مسـلم الخراسانى داعية العباسيين الأول .

نادى المقنع بنظـرية « تنـاسخ الأرواح » [1] ، كما ادعى الألوهية ، فزعم المقنع أن الله خلق آدم فتحوّل فى صورته ، ثم فى صورة نوح ، ثم الى صورة ابراهيم ، ثم الى صورة واحد فواحد من الأنبياء والحكماء ، ثم فى صورة محمد ، ثم تحول بعده فى صورة على بن أبى طالب ، ثم انتقل فى صورة أولاده ، ثم الى صورة أبى مسلم الخراسانى ، وزعم المقنع أنه انتقل من أبى مسلم اليه ، ولذا طلب من أنصاره أن يعبدوه ويسجدوا له .

ودعا المقنع الى تقديس أبى مسلم ، وزعم أن روح الله قد حلّت فى أبى مسلم ، وأن ذلك من عوامل انتصاره على بنى أمية ونجاحه فى قتل آخر الخلفاء الأمويين مروان بن محمد . وزعم أن أبا مسلم قد أصبح الها بحلول روح الله فيه ، وأنه حى لم يمت ، وأنه سيعود يوما لينتقم من أعدائه وينشر العدل والسلام ، وأن الذى قتله المنصور لم يكن أبا مسلم ، بل هو شيطان اتخذ صورة أبى مسلم [2] .

تحدث المؤرخ ابن طباطبا [3] عن تعاليم المقنع الزائفة ، فقال : « كان هذا المقنع رجلا أعور قصيرا من أهل مرو ، وكان قد

---

(١) الطبرى جـ ٦ ص ٣٦٧

(٢) الشهرستانى : الملل والنحل جـ ١ ص ٢٠٥ ـ ٢٠٧ ، البغـدادى : الفرق بين الفرق ص ٣٤١ وما بعدها .

(٣) الفخرى ص ١٦٢

عمل وجها من ذهب وركبه على وجهه لئلا يُرى وجهه ، وادَّعى الألوهية ، وكان يقول ان الله خلق آدم فتحول فى صورته ثم فى صورة نوح ، وهكذا هلمَّ جرًّا الى أبى مسلم الخراسانى ، وسمَّى نفسه هاشما ، وكان يقول بالتناسخ ، وبايعه خلق من ضلال الناس ، وكانوا يسجدون الى ناحيته أين كانوا من البلاد ، وكانوا يقولون فى الحرب : يا هاشم أعنَّا . واجتمع اليه خلق كثير » .

وعمل المقنع على هدم أركان الاسلام ، فأسقط الصلاة والزكاة والصوم والحج ، وأباح لأتباعه أن يتبعوا تعاليم مزدك التى تدعو الى الاباحية والفوضى الاجتماعية ، فهى تبيح المال والنساء للجميع . وقد حارب الأكاسرة الساسانيون المزدكية ، فمن المبادىء المقررة فى سياسة الساسانيين الداخلية المحافظة التامة على النظام الاجتماعى الفارسى القديم القائم على الأسرة والملكية ، فلمَّا ظهر مزدك فى أوائل القرن الخامس ، ودعا الى نحلته الشيوعية الهادمة لنظامى الأسرة والملكية ، وافتتن به العامة ، فان كسرى أنو شروان تجرد لمناهضته ، فقضى على مزدك وأتباعه ، كما قضى من قبل بهرام الأول على مانى وأصحابه [1] .

وأدرك المقنع أنه لكل نبى معجزة ، فما بالكم وقد ادعى الألوهية . ولذا فقد أظهر المقنع قمرا يطلع ويراه الناس على

---

(١) أرنولد : الدعوة الى الاسلام ص ٢٣٦

مسيرة شهر ، ثم يأفل . ولم تمدّنا المصادر التاريخية القديمة بمعلومات وافية نستطيع أن نصل بها الى حقيقة هذه الخدعة التى لجأ اليها المقنع ، ولكننا نعتقد أنه لجأ الى وسائل علمية وزعم أنها معجزة من معجزاته . وكان قد سبقه فى زمن سالف له رجل ادّعى النبوة فى بلاد ما وراء النهر فى ناحية كش ، تسميه كتب التاريخ (الممخرق) وتسمى أتباعه (الممخرقين) ، وادّعى أنه يطلع بدرا فى السماء ، فحفر بئرا واسعة فى بعض جبال تلك الناحية ، فطرح فيها الزئبق الكثير فوق الماء ، فكان شعاعه يظهر فى الجو كأنه البدر . ونعتقد أن المقنع لجأ الى مثل هذه الحيلة .

تحدث الشاعر أبو العلاء المعرى عن بدر المقنع الزائف ، فى بيت من أبيات شعره ، فأنشد :

أفق انما البدر المقنع رأسه ضلال وغى مثل بدر المقنع

كما أشار الشاعر أبو القاسم هبة الله بن سناء الملك الى بدر المقنع فى احدى قصائده :

اليك فما بدر المقنع طالعـــا بأسحر من الفاظ بدر المعمم

كانت المجوسية لا تزال لها رواسب فى أعماق بعض أهالى الأطراف الشرقية من الدولة العباسية ، فهى دين متوارث عن الآباء والأجداد ، ولذا لقيت دعوة المقنع الزائفة هوى فى نفوسهم ، وقبولا منهم . فانتشرت آراؤه ومبادئه فى بخارى وسمرقند ومنطقة بحر قزوين . والتجأ المقنع الى قلعة حصينة فى كش ،

وجمع فيها كمية وفيرة من الطعام حتى يمكنه أن يتحمل حصارا طويلا قد يُضرب حول القلعة[1] .

شعر الخليفة المهدى بخطورة دعوة المقنع ، فهى تهدم أركان الاسلام ، كما أنها تمجد أبا مسلم الخراسانى الذى تخلصت الدولة العباسية منه ، كما تدعو الى مبادىء مزدك الفوضوية التى تهدد سلامة المجتمع الاسلامى ونظم الدولة الاسلامية ، وقد رأينا كيف حاربت الدولة الفارسية المجوسية تعاليم المزدكية حين أدركت خطورتها كدعوة هدامة اباحية .

أمر المهدى واليه فى خراسان ، معاذ بن مسلم ، أن يقضى على دعوة المقنع ، فقاد جيشا يزيد عدد جنده على سبعين ألف مقاتل . وانضم اليه قواد من أعظم القواد العباسيين ، وهم عقبة بن مسلم ، وجبرائيل بن يحيى ، وليث مولى المهدى . وحاصر الجيش العباسى القلعة طويلا ، ورغم توافر التموين فى القلعة الا أن كثيرا من أنصار المقنع ضاقوا بالحصار الطويل ، وخرجوا من القلعة يسلّمون أنفسهم الى قائد المهدى ، وبقى المقنع فى عدد قليل من أنصاره[2] .

ورأى الخليفة المهدى وقد تخلى أنصار المقنع عنه ، أن يوجه اليه ضربة حاسمة ، فبعث بجيش كبير بقيادة سعيد الحرشى ، الذى حاصر قلعة كش طويلا ، وبدأ الطعام ينفد من القلعة ، وأخذت سهام الجيش العباسى تنهار على من فى القلعة فتقتل

---

(١) الطبرى جـ ٦ ص ٣٦٧

(٢) الطبرى جـ ٦ ص ٣٦٧

عددا كبيرا منهم ، وقذف العباسيون القلعة بأحجار المنجنيق فقوّضوا بناءها .

أدرك المقنع أن نهايته قد قربت ، فيقع فى أيدى العباسيين ، فيقتلوه ويصلبوه ويمثلوا بجثته ، ورأى أن تكون نهايته على يديه . فأشعل النيران فى القلعة ، وأحرق كل ما فيها من دواب وثياب ومتاع ، وأذاب النحاس والسكر فى تنور ، وجمع نساءه وأولاده ، وطلب من أصحابه أن يلقوا بأنفسهم فى النار ليرتفعوا الى السماء . وأبى أتباعه أن يستجيبوا الى طلبه ، اما لحبّهم الحياة أو لاكتشافهم كذبه واحتياله . ولكن المقنع أبى أن يموت وحده ، وأصرّ على أن يشاركه أتباعه مصيره ، فأعد سرًّا شرابا مسموما ، وطلب من أتباعه أن يشربوا منه ، وقال لهم : أنا صاعد الى السماء ، فمن أراد أن يصحبنى فليشرب من هذا الشراب . ولم يفطن أتباعه الى حقيقة هذا الشراب المسموم ، فشربوا منه ، فماتوا . وألقى المقنع بجثثهم ، وبجثث نسائه وأطفاله فى النيران . ثم ألقى بنفسه أخيرا فى النار ، حتى لا يظفر العباسيون بجثته وجثث أسرته وأتباعه [1] .

ولكن موت المقنع لم يضع حدًّا لتعاليمه التى اعتنقها بعض أهالى بلاد ما وراء النهر ، وأصبحوا يعرفون باسم « المقنعية المبيضة » الذين زعموا أن المقنع كان الها ، وأنه تصوّر فى كل زمان بصورة خاصة . وأصبح له أشياع فى بلاد ما وراء النهر

---

(١) الطبرى جـ ٦ ص ٣٧٤ ، الفخرى ص ١٦٢

وفى تركستان ، حيث اتخذوا فى كل قرية مسجدا يصلّون فيه ويستحلون الميتة والخنزير ، ويبيحون النساء ، وان ظفروا بمسلم لم يره مؤذن مسجدهم قتلوه ، وأخفوا جثته [1].

أُصيبت الحية ولكنها لم تُقتل ، فقد اختفت حركات الزندقة فى عهد المهدى وولديه الهادى وهارون الرشيد ثم الأمين ، لتظهر مرة أخرى فى عصر المأمون الذى ظهرت فى عهده حركة الخرميّة البابكية ، وهى استمرار لحركات الراوندية فى عصر المنصور ، والمقنعية فى عهد المهدى . وكانت طائفة الخرمية قد أسسها مزدك فى عهد قباذ أبى كسرى الأول المعروف بأنو شروان ، ولذا كانت تسمى الخرميّة المزدكية تمييزا لها عن الخرمية البابكية .

ومن مبادىء الخرمية البابكية تحويل المُلك من العرب المسلمين الى الفرس المجوس ، وكأنهم بهذه المبادىء يحاربون الاسلام والعروبة . فيذكر المؤرخ المقدسى : « فان الخرمية احتالوا فى ازالة المُلك الى العجم ، فموّهوا هذه النحلة وزيّنوها للجهال ودعوا اليها فى السر ، ومحصول أمرهم التعطيل والالحاد » [2] . كما يقول المقدسى عنهم أيضا : « هم فرق وأصناف ، غير أنهم يجمعهم على اختلاف شرائعهم وأديانهم يحصلون على روح واحدة ، وأن الوحى لا ينقطع أبدا ، وكل ذى دين مصيب ما لم ير كيد نحلتهم وخسف مذهبهم ،

---

(١) حسن ابراهيم : تاريخ الاسلام جـ ٢ ص ٩٦

(٢) المقدسى : البدء والتاريخ جـ ٥ ص ١٣٤

ويعظمون أمر أبى مسلم ، ويلعنون أبا جعفر على قتله ، ويكثرون الصلاة على فيروز ، لأنه من ولد فاطمة بنت أبى مسلم . ولهم أئمة يرجعون اليهم فى الأحكام ، ورسل يدورون بينهم يسمونهم (فريشتكان) ، ولا يتبركون بشىء مثل تبركهم بالخمور والأشربة . وأصل دينهم القول بالنور والظلمة . ووجدنا منهم من يقول باباحة النساء ، واباحة كل ما يستلذ النفس وينزع اليه الطبع »[1] .

وتحدّث نظام الملك فى كتابه (سياسة نامة) عن تعاليم الخرمية فقال : رفض الخرمية جميع الفروض الدينية كالصلاة والصيام والزكاة والحج ، وأباحوا لأنفسهم شرب الخمر والمحرمات وشيوعية النساء ، وهى مبادىء مزدك . وعملوا جهدهم للقضاء على الاسلام قضاء تاما . كما أنهم لم يشعروا بأى ميل أو عاطفة ازاء أحد من أهل البيت ، وان كانوا قد اتخذوا من أسمائهم سبيلا الى جذب الأنصار اليهم ، لنشر دعوتهم التى ترمى الى هدم الاسلام .

المهدى ينشىء ديوان الزنادقة :

أدرك المهدى خطورة الزندقة على الاسلام والدولة ، فاجتهد فى « طلب الزنادقة والبحث عنهم فى الآفاق وقتلهم »[2] . وأنشأ المهدى ديوانا خاصا لمقاومة حركة الزنادقة ، بالطرق

---

(١) البدء والتاريخ ج ٤ ص ٣٠ ـ ٣١
(٢) الطبرى ج ٦ ص ٣٨٩

الايجابية أو الوسائل السلمية ، وأصبح رئيس هذا الديوان يطلق عليه اسم « صاحب الزنادقة » وعهد المهدى اليه بتتبع الزنادقة وقتلهم ، والعمل على محو تعاليمهم من النفوس بالتوعية والنصح والارشاد . ويتحدث ابن طباطبا [1] عن كراهية المهدى للزنادقة فقال : « وكان المهـــدى شديدا على أهـــل الالحاد والزندقـــة ، لا يزال يتطلع عليهم ويفتـــك بهم » . كما قال السيوطى [2] : « وجدّ المهدى فى تتبع الزنادقة وابادتهم ، والبحث عنهم فى الآفاق والقتل على التهمة » .

وقف المهدى من الزنادقة موقفا حاسما ، واعتبرهم كفارا لمحدين ، عقابهم القتل . وعند رحيله الى الشام ، زار مدينة حلب ، وكان قد علم بانتشار الزندقة بين بعض أهلها ، فأمر بقتلهم والتمثيل بجثثهم . واتُّهم الشاعر بشار بن برد بالزندقة ، فلما رحل المهدى الى البصرة أمر بالقبض على بشار ، وطلب من حمدويه صاحب الزنادقة أن يعاقبه ، وقال : اضربه ضرب التلف [3] .

مثل صالح بن عبد القدوس أمام المهدى متهما بالزندقة ، فأراد المهدى قتله ، فقال صالح : أتوب الى الله . ثم أنشد :

ما يبلغ الأعـــداء من جاهـــل
ما يبلغ الجاهل من نفســـه

---

(١) الفخرى ص ١٦٥
(٢) السيوطى : تاريخ الخلفاء ص ٢٧٣
(٣) الاصفهانى : الأغانى جـ ٣ ص ٧٣

والشـــيخ لا يترك أخـــلاقه

حتـّى يـُوارى فى ثرى رمسه

وكاد المهدى أن يطلق سراحه ، حتى اذا سمع البيت الأخير له قال : ألم تقل والشـــيخ لا يترك أخـــلاقه ؟ قال : بلى . فقال المهدى : فكذلك أنت لا تدع أخـــلاقك حتى تموت . ثم أمر بقتله [1] . واتهم البعض أبا العتاهية بالزندقة لأنه يذكر الموت فى شعره ولا يذكر الجنة والنار .

وكان بعض الذين اعتنقوا مبـــادىء الزندقة من جهـــلاء الناس الذين خـُدعوا بتعاليمها التى ترضى الشهوات والأطماع ، فأراد المهدى توعيتهم ومساعدتهم على العـــودة الى الطريق لقويم ، واقناعهم بفساد الزندقة . فألـّف المهدى هيئة علمية لمناظرتهم ، وأمر بتأليف الكتب التى تنقض تعاليم الزندقة وتبين فسادها ومناقضتها لتعاليم الاسلام . ممـّا أدى الى عودة بعض المنحرفين الجهلاء الى حظيرة الاسلام [2] .

المهدى يعزل وزيره لاعتناق ابنه الزندقة :

كانت الزندقة سببا فى عزل المهدى لوزيره معاوية بن يسار ، وكان من أخلص وأمهر الوزراء فى العصر العباسى . وكان اتهام بعض الحاقدين على الوزير لابنه بالزندقة كافيا ليأمر المهدى بقتل الابن ، وعزل الوزير .

---

(١) السيوطى : تاريخ الخلفاء ص ٢٧٥

(٢) الفخرى ص ١٦٤

كان الربيع بن يونس حاجبا للخليفة المنصور ، وصحبه فى رحلته الأخيرة الى مكة للحج ، حيث مات المنصور قرب مكة ، وقد مرّ بنا كيف أخفى الربيع موت المنصور ونجح فى أخذ البيعة للمهدى من عيسى بن موسى وسائر بنى هاشم ، ممّا مهد الطريق أمام خلافة المهدى ، فى جوّ من السلام والهدوء .

ولّى المهدى معاوية بن يسار الوزارة ، ووثق فيه ، وفوض اليه أمور الدولة ، وكان جديرا بهذا المنصب الكبير ، فقد كان كاتبا للمنصور ، وكان ينوى أن يوليه الوزارة . وأبدى ابن يسار كفاءة عظيمة فى ادارة شئون الدولة العباسية .

قدم الربيع بن يونس ، حاجب المنصور ، من مكة الى بغداد ، بعد أخذه البيعة للمهدى بالخلافة ، ورأى أن يبدأ بزيارة الوزير معاوية بن يسار قبل أن يمثل بين يدى الخليفة . وتعمّد الوزير أن تطول فترة انتظار الربيع قبل أن يأذن له . حتى اذا دخل الربيع الى مجلسه ، لم يقم له . ثم سأله معاوية عن مسيره وحاله ، فشرع الربيع يحدثه بما جرى فى مكة من موت المنصور ، واجتهاده فى أخذ البيعة للمهدى ، فقاطعه معاوية وقال : قد بلغنى الخبر فلا حاجة الى اعادته ! واغتاظ الربيع ، وقام من فوره وغادر المجلس غاضبا ، والتقى بابنه الفضل فأقسم له على الكيد للوزير والعمل على عزله عن منصبه فقال : علىّ كذا وكذا ان لم أبذل مالى وجاهى فى مكروهه وازالة نعمته .

ومضى الربيع الى قصر الخلافة ، فطلب المهدى منه أن يبقى

حاجبا له كما كان حاجبا لأبيه المنصور من قبل . وحاول الربيع بكل وسائله أن يوقع بين المهدى ووزيره ابن يسار ، دون جدوى . فرأى أن يتحالف مع أعداء الوزير ، ويرسمون خطة ترمى الى الخلاص منه .

سأل الربيع أحد أعداء الوزير عن حيلة يلجأ اليها للكيد للوزير ، فأجاب : لا والله ما عندى حيلة تنفذ عليه فانه أعف الناس فرجا ويدا ولسانا ، ومذهبه مستقيم ، وحذقه فى صناعته ما عليه مزيد ، وعقله وكفاءته كما علمت ، ولكن ابنه ردىء الطريقة مذموم السيرة والقول يسرع اليه ، فان تهيأ حيلة من جهة ابنه فعسى ذلك !.

وأبدى الربيع اعجابه بهذه الفكرة ، فقبّل هذا الرجل بين عينيه ، وبدأ يسعى بابن الوزير الى المهدى « أنواعا من السعايات ، فتارة يرميه ببعض حرم المهدى وتارة يرميه بالزندقة »[1] . وتكررت السعايات ، حتى أيقن المهدى بزندقة ابن الوزير ، ونحن نعلم كراهيته الشديدة للزنادقة .

ولكن المهدى كان عادلا ، فرأى أن يتحقق بنفسه من صدق الاتهام ، فأمر باستدعاء ابن الوزير ، فقدم اليه مع أبيه ، وسأله المهدى عن شيء من القرآن الكريم ، فلم يحر جوابا ، ولم يتمكن من تلاوة بعض الآيات الكريمة . فقال المهدى لوزيره : ألم تخبرنى أن ابنك يحفظ القرآن ؟ فأجاب الوزير :

---

(١) الفخرى ص ١٦٥

بلى يا أمير المؤمنين ولكن فارقنى مذ مدة فنسيه . فقال المهدى : قم فتقرب الى الله بدمه . فقام ابن يسار فعثر ووقع وارتعد . فالتمس العباس بن محمد ، عم المهدى ، من الخليفة أن يعفى الوزير من قتل ابنه بيده ، وأن يتولى غيره ذلك عنه . فأمر المهدى بعض من كان حاضرا بقتله فضربت عنقه .

استمر معاوية بن يسار يتولى الوزارة « الا أنه ظهر عليه الانكسار ، وتنمّر قلبه ، وتنمّر أيضا قلب المهدى منه »[1] . حتى كان يوم دخل فيه الوزير يعرض على المهدى بعض الرسائل التى وردت من الولايات الاسلامية ، وطلب المهدى اخلاء مجلسه حتى ينفرد بالوزير ، فخرج الحاضرون عدا الربيع الذى أصرّ على البقاء فى المجلس ، حتى اذا استفسر المهدى منه عن سر اصراره على المكوث ، قال الربيع : كيف أخرج وأنت وحدك وليس معك سلاح ، وعندك رجل من أهل الشام اسمه معاوية ، وقد قتلتَ بالأمس ولده ، وأوغرت صدره ، فكيف أدعك معه على هذه الحال وأخرج ؟!

وتمالك المهدى نفسه وقال : يا ربيع انى أثق بأبى عبد الله فى كل حال . ثم قال للوزير : اعرض ما تريد فليس دون الربيع سر . ثم رأى المهدى أن يتخلّص من وزيره ، فقال لحاجبه الربيع : انى أستحيى من أبى عبيد الله بسبب قتل ولده ، فاحجبه

---

(١) الفخرى ص ١٦٥

عنى . فحجبه عنه ، وانقطع الوزير فى داره ، وعاش فى زوايا النسيان ، وما لبث أن مات سنة ١٧٠ هـ [١] .

الزنادقة فى وصية المهدى للهادى :

آمر المهدى بتتبع الزنادقة فى كل مكان ، وقتلهم . وتحدث المؤرخ المسعودى [١] عن جهود المهدى فى محاربة الزنادقة ، فقال : « انه أمعن فى قتل الملحدين والمداهنين عن الدين لظهورهم فى أيامه ، واعلانهم باعتقاداتهم فى خلافته لما انتشر من كتب مانى ، وابن ديصان ومرقيون ، مما نقله عبد الله بن المقفع وغيره ، وترجمه من الفارسية والفهلوية الى العربية ، وما صنّف فى ذلك ابن أبى العوجاء ، وحماد عجرو ، ويحيى بن زياد ، ومطيع ابن اياس ، من تأييد المذاهب المانوية والديصانية والمرقونية . فكثر بذلك الزنادقة ، وظهرت آراؤهم فى الناس . وكان المهدى أول من أمر الجدليين من أهل البحث من المتكلمين بتصنيف الكتب فى الرد على الملحدين ممن ذكرنا من الجاحدين وغيرهم ، وأقاموا البراهين على المعـاندين ، وأزالوا شـبه الملحدين فأوضحوا الحق للشاكين » .

ورأى المهـدى أن يلفت نظر ابنه الهـادى الى خطورة الزنادقة ، حتى لا تتعرض الدولة اذا تولى الهادى الخلافة الى

---

(١) المسعودى : مروج الذهب جـ ٣ ص ٣٢٢ ، الفخرى ص ١٦٦
(٢) مروج الذهب جـ ٣ ص ٣٢٢

الأخطار التى لمسها المهدى فى عهده وعهد أبيه أبى جعفر المنصور .

قال المهدى لابنه الهادى : « يا بنى ان صار لك هذا الأمر ، فتجرد لهذه العصابة — يعنى أصحاب مانى — فانها فرقة تدعو الناس الى ظاهر حسن ، كاجتناب الفواحش والزهد فى الدنيا والعمل للآخرة ، ثم تخرجها الى تحريم اللحم ومس الماء الطهور وترك قتل الهوام تحرجا وتحوّبا ، ثم تخرجها من هذه الى عبادة اثنين : أحدهما النور والآخر الظلمة ، ثم تبيح بعد هذا نكاح الأخوات والبنات والاغتسال بالبول وسرقة الأطفال من الطرق ، لتنقذهم من ضلال الظلمة الى هداية النور . فارفع فيها الخشب ، وجرّد فيها السيف ، وتقرّب بأمرها الى الله لا شريك له . فانى رأيت جدّك العباس فى المنام قلّدنى سيفين ، وأمرنى بقتل أصحاب الاثنين »[1] .

وقد عمل الهادى بوصية أبيه المهدى ، فقد اشتد — حين تولى الخلافة — على الزنادقة ، فقتل كثيراً منهم ، وكان يقول : لئن عشت لأقتلن هذه الفرقة كلها ، حتى لا أترك منها عينا تطرف ! وأمر الهادى باعداد ألف جذع لصلب جثث الزنادقة عليها . وأدت هذه الشدة الى اختفاء حركات الزندقة فى عهد هارون الرشيد والأمين والمأمون ، ثم عودتها الى الظهور فى صورة خطيرة فى عهد الخليفة المعتصم .

---

(١) الطبرى جـ ٦ ص ٣٨٨

سياسة المهدى الخارجية

علاقات المهدى ببلاد المغرب :

فتح الأمويون بلاد المغرب ، وبنوا فيها مدينة اسلامية جديدة ، هى مدينة القيروان ، التى أصبحت حصن الاسلام ، ومركزا للعرب المسلمين ، توسعوا منه غربا حتى بلغوا شواطىء المحيط الأطلسى ، ثم عبر المسلمون مضيق جبل طارق وفتحوا شبه جزيرة أيبريا التى أصبح اسمها بعد الفتح العربى الاسلامى بلاد الأندلس .

ولم يكن فتح المغرب سهلا ، فقد قاوم البربر الفتح العربى، ولكنهم بعد فترة بدأوا يعتنقون الاسلام ويتعرّبون ، واستمر الولاة العرب على سياسة تعريب البربر ، وادماجهم فى جيوشهم، وتوليتهم المناصب الحكومية . وبرز منهم قواد عظماء مثل طارق ابن زياد فاتح الأندلس .

ولكن صلات الصداقة بين العرب والبربر لم تدم طويلا ، لأن البربر رأوا أنهم لم يكافأوا على ما قدموه من خدمات ، كما كانوا يؤملون . ورغم اعتناقهم الاسلام لم يعاملهم العرب معاملة تنم عن المساواة . ولذا اعتنق البربر مذهب الخوارج ،

لأنه كان يلائم نزعاتهم الديموقراطية ، وأخذوا يثيرون الفتن والقلاقل فى وجه العرب طوال العصر الأموى [1] .

وخفّت حـــدة مقاومة البربر للحكم العربى الاسلامى فى العصر العباسى وان لم تختف تماما . فقد كانت الدولة العباسية تساوى بين العناصر العربية والعنـــاصر الأخرى غير العربية ، بينما كانت الدولة الأموية عربيّة تماما ، تتعصب للعروبة ، ولكل ما هو عربى .

حدثت قلاقل وثورات فى بلاد المغرب فى عهـــد أبى جعفر المنصور ، فقد ثار عليه واليه بالمغرب محمد بن الأشعث ، فولّى حكم هذه البلاد الأغلب بن ســـالم ، فقدم الى القيروان سنة ١٤٨ هـ . وثار البربر على الأغلب وقتلوه على أبواب القيروان سنة ١٥٠ هـ . واعتنق البربر مبادىء الخوارج . وولى المنصور أبا جعفر عمر بن حفص ، فى سنة ١٥١ هـ ، فنجح فى القضاء على الثورة ، وهدأت الأمور نحو ثلاث سنين ، ثم عادوا الى الثورة ضد عمر بن حفص ، فبعث المنصور جيشاً يتألف من ستين ألف فارس سنة ١٥٤ هـ نجح فى اخماد الثورة تماما ، فعاد الأمن والسلام مرة أخرى الى بلاد المغرب [2] .

ولذا هدأت الأمور فى بلاد المغرب طوال خلافة المهدى ، فلم تقم فتن أو ثورات ، وشعر أهلها بالطمأنينة والهدوء . وكان من أبرز جوانب سياسة المهدى أن يحفظ التوازن بين العناصر

---

(١) حسن ابراهيم : تاريخ الاسلام جـ ١ ص ١٧٦

(٢) ابن الأثير : الكامل جـ ٦ ص ٥٦

العربية والعناصر غير العربية ، تلافيا لخطر الصدام بين طبقات المجتمع الاسلامى فى الدولة العباسية . ولم تعد الفتن والقلاقل الى المغرب الا بعد وفاة المهدى بسنوات .

العلاقات بين المهدى وبلاد الأندلس :

نجح العباسيون فى القضاء على الدولة الأموية سنة ١٣٢هـ، وبدأ عهد الدولة العباسية . وتتبَّع أبو العباس ، أول الخلفاء العباسيين ، أفراد الأسرة الأموية بالقتل والتنكيل ، ونجح أحد الأمويين ، وهو عبد الرحمن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك ، المعروف بالداخل ، فى الهرب من أيدى أبى العباس ، ولجأ الى بلاد الأندلس ، آخر حدود الدولة الاسلامية فى الغرب ، حيث أنشأ دولة أموية جديدة . وأصبحت الدولتان العباسية فى المشرق والأموية فى الأندلس فى عداء وخصام .

وأخذت الدولة العباسية تناهض الدولة الأموية فى الأندلس وتعمل على القضاء عليها . فقد التقى جيش عباسى بقيادة العلاء ابن مغيث اليحصبى ، قدم من افريقيّة ، بجيش عبد الرحمن الداخل فى نواحى اشبيلية ، انتهت بانتصار الأمير الأموى [1] .

ولا شك أن انسلاخ بلاد الأندلس عن الدولة العباسية قد فتّ فى عضدها . ولم يتمكن أبو جعفر المنصور من اعادة سلطان العباسيين الى هذه البلاد ، فعمل على استمالة

---

(١) ابن الأثير : الكامل جـ ٥ ص ٢٠٠

عبد الرحمن ، وأرسل اليه الرسل . وكثيرا ما كان يظهر اعجابه به وبمقدرته ، وعزيمته التى جعلته وهو شريد طريد يستطيع أن يؤسس هـذا الملك الواسع فى تلك البلاد البعيـدة ، وكان المنصور يسمى عبد الرحمن (صقر قريش)[1] .

وأخفقت سياسة المنصور فى التقرب من عبد الرحمن الداخل أمير الأندلس الأموى ، ورأى أن يكيد له بأن يتحـالف مع أعدائه ، فأرسل سـفرائه الى بلاط (ببن) ملك الفرنجة ، وطلب منه أن يساعده ضد عبد الرحمن الداخل ، وأقام سفراء المنصور فى بلاط (ببن) عدة سنين ، ثم عادوا الى بغداد وفى رفقتهم بعض سـفراء الفرنجة الذين عادوا الى ببن بالهدايا الفاخرة التى تمثل الحضارة العباسـية الزاهرة . ولكن هـذه الصلات الدبلوماسية لم تؤد الى نتيجة مثمرة ، سوى ما ولدته فى نفس عبد الرحمن الداخل من خوف هجوم الفرنجة على الدولة الأموية بالأندلس ، كما كفّ عبد الرحمن عن أن يتخذ عداؤه للخليفة العباسى شكلا ايجابيا حربياً .

ولذلك نرى أن المنصور ، وان كان لم ينجح فى القضاء على عبد الرحمن الداخل فى الناحية الحربية ، فانه قد نجح الى حد بعيد فى الناحية السياسية ، ووضع أسس السياسة التى سار عليها أبناؤه فيما بعد[2] .

---

(١) حسن ابراهيم : تاريخ الاسلام جـ ٢ ص ١٨٢

(٢) المصدر السابق .

وصف المرحوم الشيخ الخضرى [1] الموقف بين المنصور والمهدى وبين عبد الرحمن الداخل فقال : كما كان منظر الخلافة فى داخل المملكة باهرا ، كان كذلك مظهرها فى نظر الأمم الأخرى ، الا أنه يؤسف له سوء العلاقة بين الخلافة المشرقية ببغداد وبين أمير الأندلس عبد الرحمن الداخل ، فقد كان المنصور والمهدى يهتمان بأمره ويودان ازالة دولته ، ولكن الشقة بين الرحلتين بعيدة ، فلم يمكن واحدا منهما أن يجرد له جيشا يخترق صحارى افريقية ويغزوه فى بلاد الأندلس ، فاكتفى كل من الفريقين بمعاداة الآخر .

تحدث المؤرخ ابن الأثير عن العداء بين المهدى وبين عبد الرحمن الداخل فقال : ان المهدى وجّه عبد الرحمن بن حبيب الفهرى الى بلاد الأندلس ، فسار من افريقية وعبر البحر ، وكتب الى سليمان بن يقظان ببرشلونة ، يحثه على الدخول فى طاعة العباسيين . فلم يجب سليمان طلبه ، فثارت ثائرة الفهرى ، وطرد الداخل الغالة من جنده ، وأحرق سفنه ليحول ذلك دون هربه على أن قائد المهدى تحصّن بناحية بلنسية وصمد للأمويين ، وأوقع الرعب فى قلوبهم ، وبذل عبد الرحمن الداخل ألف دينار لمن يأتيه برأسه ، فاقتفى أثره رجل من البربر وتتبع خطواته حتى عثر عليه وقتله غيلة وحمل رأسه الى أمير بلاد الأندلس .

---

(١) تاريخ الأمم الاسلامية ج ٢ ص ٩٢

وروى المؤرخ الطبرى [1] أن المهدى وعبد الرحمن الداخل تبادلا رسائل حوت قذفاً وشتما . فقد روى الطبرى عن هشام الكلبى أنه قال : « بينا أنا فى منزلى منذ أيام بين الظهر والعصر ، اذ أتانى رسول المهدى فسرت اليه ودخلت عليه وهو جالس خال ليس عنده أحد وبين يديه كتاب ، فقال : ادنُ يا هشام . فدنوت فجلست بين يديه . فقال : خذ هذا الكتاب فاقرأه لا يمنعك ما فيه مما تستفظعه ، فألقيته من يدى ، ولعنت كاتبه . فقال لى : قد قلتُ لك ان استفظعته فلا تلقه ، اقرأه بحقى عليك حتى تأتى على آخره . فقرأته ، فاذا كتاب قد ثلبه فيه كاتبه ثلبا لم يبق له فيه شيئا . فقلت : يا أمير المؤمنين ، من هذا الملعون الكذاب ؟! قال : هذا صاحب الأندلس . قلت : فالثلب والله يا أمير المؤمنين فيه وفى آبائه وفى أمهاته . ثم اندرأت أذكر مثالبهم ، فسُرَّ بذلك وقال : أقسمتُ عليك لما أمليت مثالبهم كلها على كاتب ودعا بكاتب من كتّاب السرّ فأمره فجلس ناحية وأمرنى فصرت اليه . فصدّر الكاتب من المهدى جوابا ، وأمليت عليه مثالبهم ، فأكثرت ، فلم أبق شيئا حتى فرغت من الكتاب ، ثم عرضته عليه ، فأظهر السرور ، ثم لم أبرح حتى أمر بالكتاب فختم وجعل فى خريطة ، ودُفع الى صاحب البريد وأمر بتعجيله الى الأندلس . ثم دعا لى بمنديل فيه عشرة أثواب من جياد الثياب وعشرة آلاف درهم

---

(1) الطبرى جـ ٦ ص ٣٩٥

وهذه البغلة بسرجها ولجامها فأعطانى ذلك وقال لى : اكتم ما سمعت . » .

العلاقات بين المهدى ودولة الفرنجة :

أدى تطور الأحــداث الداخلية فى كل من بلاد الأندلس ودولة الفرنجة الى دخول العــلاقات بين العرب والفرنجة فى دور جديد . ففى بلاد الأندلس انتهى عصر الولاة بنهاية الدولة الأموية فى المشرق وقيام الدولة العباسية ، فقد أخذ العباسيون ينكلون بأبناء البيت الأموى ، ونجح أحدهم ـــ كما شهدنا ـــ فى الفرار الى الأندلس ، وهو عبد الرحمن الداخل ، حيث نجح فى انشاء امارة أموية مستقلة .

تولى (ببن) الحكم فى دولة الفرنجة ، وبدأ يعمل على القضاء على البيت الميروفنجى ، واستعان بالبابوية فى روما ، وأعلن نفسه ملكا ، وأعلن نهاية حكم الميروفنجين وبداية حكم البيت الكارولنجى نسبة الى (كارل) أى (شارل مارتل) . وبدأ (ببن) يعمل على اجلاء العرب عن اقليم سبتمانية واخضاع الأمراء الفرنجة الموالين للعرب [١] .

فقد أدرك (ببن) خطورة وجود العــرب فى فرنسا على الدولة الكارولنجية ، وأراد (ببن) الاســتفادة من النزاع الداخلى الذى كان سائدا حينئذ فى بلاد الأندلس ، كما عمل

---

(١) انظر كتابنا (العرب فى أوروبا) ص ٣٤

على الاستفادة من الصراع التقليدى بين الدولة العباسية فى المشرق ، والدولة الأموية فى الأندلس .

شعر المنصور بالأسف اذ أفلت عبد الرحمن الداخل من قبضة العباسيين ، ثم نجح فى اقتطاع جزء كبير من الدولة العباسية ، ونجح فى انشاء دولة أموية جديدة تناوىء الدولة العباسية ، وكان البيت العباسى الهاشمى ، والبيت الأموى فى صراع أبدى منذ العصر الجاهلى . وبعث المنصور — كما مرّ بنا — بسفرائه وهداياه النفيسة الى (بين) وحرضه على قتال الأمير الأموى ، ولكن لم يكن ذلك سهلا ميسورا ، ورأى (بين) أن من مصلحة دولته أن يوثق صلته بالدولة العباسية ، فتبادل مع الخليفة السفراء والهدايا . واضطر عبد الرحمن الداخل الى أن يحدّ من عدائه للمنصور حتى لا يواجه عدوين قويين .

واستمر المهدى على سياسة أبيه ، فقد أبدى عداءه لعبد الرحمن الداخل أمير الأندلس ، ووثق صلاته بملك الفرنجة . وكان عهد المهدى مرحلة انتقال فى العلاقات بين الدولة العباسية ودولة الفرنجة ، فقد توثقت الصلات بين ابنه هارون الرشيد وشرلمان ملك الفرنجة ، فتبادلا السفراء والهدايا الفاخرة ، وعقدا معاهدات تجارية بين الدولتين ، وبدأ اطلاع الفرنجة على التراث العربى ، وأرسل الرشيد مفاتيح كنيسة بيت المقدس الى شرلمان . وقد أدى عداء الفرنجة للدولة البيزنطية من جهة ، وللدولة الأموية بالأندلس من جهة أخرى ،

الى توثيق صلات الفرنجة بالعباسيين ، وقد كانت الدولة العباسية على عداء مستمر للدولة البيزنطية وامارة الأندلس .

الصراع بين المهدى والدولة البيزنطية :

لم تنقطع الحرب بين العرب والروم منذ ظهور الاسلام . فقد حاول العرب الاستيلاء على القسطنطينية ثلاث مرات : المرة الأولى فى عهد عثمان بن عفان ، والثانية فى عهد معاوية بن أبى سفيان ، والثالثة فى عهد سليمان بن عبد الملك . وقد أضعفت الحروب الأهلية قوة العرب فى أواخر الدولة الأموية ، فاتخذ قسطنطين الرابع امبراطور الدولة البيزنطية من هذه الاضطرابات فرصة سانحة لشن الاغارات على البلاد الاسلامية المتاخمة لبلاده .

ولما انتقل الحكم الى العباسيين تغيرت صورة الصراع الحربى بين العرب وبين البيزنطيين ، وأصبحت عبارة عن اغارات ، الغرض منها الهدم والتخريب . وهذا يخالف ما كانت عليه الحال فى أيام الأمويين ، الذين كانت لهم سياسة مرسومة لمحاربة البيزنطيين ، ابتغاء احتلال القسطنطينية . ولا شك أن السبب فى ذلك يرجع الى عاملين هامين : أولهما : مناوأة أهالى بلاد الشام للعباسيين ، لأنهم كانوا لا يزالون على ولائهم للأمويين ، حتى ان عبد الرحمن الداخل فكر فى اعادة هذه البلاد الى سلطان الأمويين ، واعتمد فى تحقيق سياسته على ولاء أهالى بلاد الشام لبنى أمية . وثانيهما : عدم اهتمام

العباسيين بانشاء أسطول قوى فى البحر المتوسط يضارع أسطول الأمويين من قبل ، واعتمادهم على الجيوش البرية دون القوات البحرية [١] .

كان خط الحدود بين الدولتين العباسية والبيزنطية يتكون من سلسلتى جبال طوروس بمعاقلها وحصونها ذات المكانة الحربية الاستراتيجية الممتازة لوقوعها عند تقاطع الطرق التى تخترق تلك السلسلة الجبلية الضيقة . وحرص كل من المسلمين والروم على السيطرة على تلك الحصون والمعابر والممرات الهامة للهجوم أو الدفاع . فوضع الروم منطقة الأطراف التى واجهت أراضى الدولة الاسلامية التى سُميت باسم منطقة الممرات أو الثغور تحت اشراف رجال حربيِّين لقبوا بحكام الثغور .

وكان هذا الخط الدفاعى يسير على امتداد جبال طوروس من الفرات الأعلى الى حدود قيليقيا ، وينقسم الى قسمين : الأول يمتد من ملطية الى عين زربة ، وكان مخصصا لدفع الاغارات الاسلامية الآتية من شمال العراق . وأهم حصون هذا القسم ملطية التى تقع عند ملتقى الطرق الرئيسية المؤدية من سبيسطة أو سيواس وقيصرية الى أرمينيا وشمالى العراق . ويمر هذا الطريق من ملطية الى مرعش عبر جبال طوروس بقلعة زبطرة . أما القسم الثانى من خط دفاع الروم فكان يواجه

---

(١) حسن ابراهيم : تاريخ الاسلام جـ ٢ ص ١٨٥

الشام ومهمته الدفاع عن أراضى الروم ضد الحملات الشامية[1] .

وقد بدأ البيزنطيون يشنون اغاراتهم على أراضى الدولة العباسية فى عهد أبى جعفر المنصور ، فغزا قسطنطين الرابع بعض أراضى الشام سنة ١٣٧ هـ ، واستولى على ملطية وخرَّب حصونها . غير أن العرب تمكنوا من استردادها فى السنة التالية ، ورمموا حصونها ، وأقاموا فيها حامية كبيرة .

تحدث المؤرخ ابن الأثير عن هذه الغزوة فى حوادث سنة ١٣٩ هـ ، فقال : « وغزا مع صالح بن على (العباسى) أختاه أم عيسى ولبابه بنتا علىّ ، وكانتا نذرتا ان زال مُلك بنى أمية أن تجاهدا فى سبيل الله ... وكان الفداء بين المنصور وملك الروم ، فاستفدى المنصور أسرى قاليقلا وغيرهم من الروم ، وبناها وعمّرها ، وردّ اليها أهلها ، وندب اليها جندا من أهل الجزيرة ، فأقاموا بها وحموها . ولم يكن بعد ذلك صائفة فيما قيل الا سنة ١٤٦ هـ لاشتغال المنصور بابنى عبد الله بن الحسن بن على (وهما الثائران العلويان) » . ويقصد ابن الأثير بالصائفة أن الغزو كان فى الصيف ، أما الشواتى فهى الحروب بين العرب والروم فى فصل الشتاء[1] .

فقد كان للمسلمين أوقات معيّنة يغيرون فيها على أراضى

---

(١) العدوى : الدولة الاسلامية وامبراطورية الروم ص ٨٩

(٢) الكامل جـ ٥ ص ١٢٧ ، تاريخ الاسلام جـ ٢ ص ١٨٥

دولة الروم ، فتحدث بعض الاغارات فى فصل الربيع والصيف وتسمى الصوائف ، وأخرى فى الشتاء وتسمى الشواتى . فغزو الربيع يبدأ من منتصف مايو حيث تكون الخيول قد سمنت وقويت من رعيها فى كلأ الربيع ومراعيه ، ويستمر الغزو ثلاثين يوما أى الى منتصف الشهر التالى . وفى هذه الاغارات تجد الخيول غذاء وفيرا فى مراعى الروم التى تمـر بها . ثم يجنح المسلمون الى السكينة ويريحون خيولهم من منتصف يونيو الى منتصف يوليو حيث تبدأ اغارات الصيف ، وكانت هذه الحملات تستغرق ستين يوما .

أما اغارات الشتاء ، فلم يقدم المسلمون عليها الا فى حالات الضرورة القصوى ، دون أن يمعنوا فى التوغـل داخل أراضى الروم . فلم تستغرق الشواتى أكثر من عشرين يوما ، يأخذ فيها الجنـد مؤنهم الضرورية التى تقوم بأودهم خلال هـذه الأسابيع الثلاثة . وكانت تلك الشواتى تقع عادة فى الفترة ما بين أواخر فبراير والنصف الأول من مارس [1] .

وكانت الحرب بين العباسيين والبيزنطيين تشتعل من حين الى حين حتى سنة ١٥٥ هـ ، حيث طلب الامبراطور قسـطنطين الرابع الصلح مع العباسيين ، على أن يؤدى لهم جزية سنوية . ونقرأ فى الطبرى عن الصوائف فى سنة ١٥٦ و ١٥٧ و ١٥٨ هـ ، وذلك فى أواخر عهد الخليفة المنصور .

---

(١) الدولة الاسلامية وامبراطورية الروم ص ٩٥

وفى سنة ١٥٩ هـ خرج الخليفة المهـــدى على رأس جيش كثيف لغـــزو بلاد الروم ، ووصـــل الى البردان وعسكر به ، وأرسل العباس بن محمد فنجح فى الوصول الى أنقرة . وفى سنة ١٦١ هـ ، تولى قيادة الصائفة ثمامة بن الوليد ، الذى زحف بجيشه حتى نزل دابق ، والتقى بجيش الروم الذى بلغ عدده ثمانين ألفا ، فلم يحفل به ثمامة اغترارا بقوته وكثرة جنده وهزم الروم على مقربة من مرعش التى حاصرها ، ولكن الدائرة دارت عليه وقتل كثير من جنده .

وقوى الروم بهذا الانتصار ، فأغاروا على « الحدث » فى سنة ١٦٢ هـ وهدموا ســـورها ، فولّى الخليفة المهـــدى أمر الصائفة قائده الحسن بن قحطبة ، الذى لم ينجح فى الانتصار على الروم وعاد أدراجه .

وفى سنة ١٦٣ هـ ، احتفل المهـــدى بأمر الصائفة ، وولى أمرها ابنه هارون ، وفرض البعوث على جميع الأجناس من أهل خراسان وغيرهم ، وخرج المهدى مع الجيش حتى آتى (البردان) فأقام بها نحوا من شـــهرين يتعبأ ويتهيأ ويعطى الجنود ، وأخرج صلات لأهل بيته الذين شخصوا معه ، وكانت هذه الغزوة من أهم الغزوات فى عهد المهدى فتح الله عليهم فيها فتوحات كثيرة ، وأبلاهم فى ذلك الوجه بلاء جميلا ففتحوا حصن (سمالا) بعد أن أقاموا عليه ثمانية وثلاثين ليلة ، وقد نصب عليهـــا المنجنيق حتى فتحت ، وكان فتحهـــا على ثلاثة

شروط ، ألا يقتل أهلها ، ولا يرحلوا ، ولا يفرق بينهم ، فأعطوا ذلك ،فنزلوا ، ووفى لهم هارون ، ثم قفل بالمسلمين سالمين الا من كان أصيب منهم فى سمالا [1] .

وفى سنة ١٦٥ هـ ، أعاد المهدى الكرّة على بلاد الدولة البيزنطية ، فجمع جيشا يبلغ نحو مائة ألف جندى ، وعبر نهر الفرات . ثم ولّى ابنه هارون قيادة الجيش ، فوصل هذا الجيش الى سواحل البسفور ، وأرغم الملكة (ايرينى) أرملة (ليو الرابع) ، وكانت وصية على ابنها قسطنطين السادس ، على أن تدفع للمسلمين تسعين ألف دينار جزية سنوية تقضى على دفعتين ، وأن تقيم لهم الأسواق والأدلاء فى الطريق عند عودتهم الى بلادهم ، وأن تسلم أسرى المسلمين . وانتهت هذه الغزوة بعقد هدنة بين الفريقين لمدة ثلاث سنين . وبلغت هذه الحروب من الشدة بحيث ذهب بعض المؤرخين الى القول بأن عدد قتلى البيزنطيين بلغ ٥٤ ألفا والأسرى خمسة آلاف .

سجّل شاعر المهدى ، مروان بن أبى حفصة ، هذا الانتصار فى قصيدة رائعة ، فهو يخاطب هارون الرشيد فيقول :

أطفت بقسطنطينيّة الروم مسندا
اليها القنا حتى اكتسى الذل سورها
وما رمتها حتى أتتك ملوكها
بجزيتها والحرب تغلى قدورها

(١) الخضرى : تاريخ الامم الاسلامية جـ ٢ ص ٩٢

تحدَّث الطبرى [1] عن شروط هـذا الصلح ، وما غنمه المسلمون من البيزنطيين ، فقال : « والذى وقع عليه الصلح بينه ــ أى هارون بن المهدى ــ وبينها ــ أى ايرين ــ تسعون أو سبعون ألف دينار تؤديها فى نيسان الأول فى كل سنة ، وفى حزيران ، فقبل ذلك منها . فأقامت له الأسواق فى منصرفه ووجهت معه رسولا الى المهدى بما بذلت ، على أن تؤدى ما تيسر من الذهب والفضة والعرض ، وكتبوا كتاب الهدنة الى ثلاث سنين ، وسلمت الأسارى ، وكان الذى أفاء الله على هارون الى أن أذعنت الروم بالجزية خمسة آلاف رأس ، وستمائة وثلاثة وأربعين رأسا ، وقتل من الروم فى الوقائع أربعة وخمسون ألفا ، وقُتل من الأسارى صبرا ألفان وتسعون أسيرا ، ومماَّ أفاء الله عليه من الدواب الذُّلل بأدرانها عشرون ألف دابة ، وذبح من البقر والغنم مائة ألف رأس ، وكانت المرتزقة سوى المطوِّعة ، وأهل الأسواق مائة ألف ، وبيع البرذون بدرهم ، والبغل بأقل من عشرة دراهم ، والدرع بأقل من درهم ، وعشرون سيفا بدرهم » .

وهذه الحملة هى التى رفعت ذكر هارون ، مما جعل أباه يلقبه بذلك اللقب المشرف (الرشيد) ويعيّنه ولياً ثانيا للعهد بعد أخيه الأكبر موسى الهادى .

---

(١) الطبرى جـ ٦ ص ٣٨٠

ولقد ثبت أن هذه كانت آخر مرة وقف فيها جيش عربى أمام أسوار العاصمة المتكبرة . ولقد كانت جملة الحملات التى وجهت الى بيزنطة أربع ، ثلاث منها أرسلت فى عهد الأمويين أرسلها معاوية بن أبى سفيان وسليمان بن عبد الملك [1] .

وفى رمضان سنة ١٦٨ هـ ، أى قبل انقضاء مدة الهدنة ، نقض الروم الصلح وغدروا ، فوجه المهدى اليهم على بن سليمان ابن على وهو والى الجزيرة وقنسرين ، ويزيد بن بدر البطال فى سرية ، فردوا الروم وغنموا وظفروا .

وكان من أثر هذه الانتصارات التى أحرزها المهدى على البيزنطيين ، أن هابه الملوك ، وأرسل اليهم رسلا يدعونهم الى الطاعة ، فدخل أكثرهم فى طاعته ، ومنهم ملك كابل ، وملك طبرستان ، وملك السند ، وملك طخارستان ، وملك فرغانة ، وملك أشروسنة ، وملك سجستان ، وملك الترك ، وملك التبت ، وملك الصين ، وملوك الهند [1] . كما كانت جهود المهدى التى أدت الى هزيمة البيزنطيين ، عاملا على بداية سلسلة طويلة من الانتصارات فى عهد ابنه هارون الرشيد .

---

(١) حتى : تاريخ العرب ص ٣٧١

(١) انظر تاريخ اليعقوبى جـ ٢ ص ٤٧٩ ، تاريخ الاسلام جـ ٢ ص ١٨٧

المهدى يغزو الهند :

ترجع حملات المسلمين على بلاد الهند الى عهد بعيد ، فقد أرسلوا أولى حملاتهم بعد أن انتقل الرسول الى جوار ربه بخمس عشرة سنة . ومن ثم أخذ سيل العرب يتدفق على هذه البلاد الى القرن الثامن عشر الميلادى ، واستقر بعضهم فيها ، وكونوا ممالك كان لها أثر يذكر فى تقدم الحضارة الاسلامية .

وفى عهد معاوية بن أبى سفيان غزا المهلب بن أبى صفرة بلاد السند سنة ٤٤ هـ ، وامتدت فتوحه الى الأراضى الواقعة بين كابل رالملتان ، ثم امتدت فتوح المسلمين فى هذه البلاد ، فشملت البوقان والقيقان والدّيبل . ثم واصل محمد بن القاسم فتوحه فى هذه البلاد حتى بلغ نهر السند ، وكان يعرف اذ ذاك بنهرمران . وهناك التقى بداهر ملك السند ، وكان هو وجنده يقاتلون على ظهور الفيلة ، فاقتتلوا قتالا شديدا انتهى بقتل داهر وهزيمة أصحابه .

ولما قامت الدولة العباسية ، ولّى أبو جعفر المنصور هشام ابن عمرو الثعلبى بلاد السـند . وفى عهده فتحت كشمير ، وكانت قد انتقضت ، وهدم البدّ وهو مكان عبادتهم ، ويشبه الكنائس والبيع ، وبنى فى موضعه مسجدا [1] .

كان المسلمون يملكون الى نهر مران ، الفاصل بين السند والهند ، فأراد المهدى أن يغزو جيشه بلاد الهند ، فوجّه جيشا

---

(١) حسن ابراهيم : تاريخ الاسلام جـ ٢ ص ١٩٢

كثيفا بقيادة عبد الملك بن شهاب المسمعى ، ليغزو الهند بطريق البحر . وتحدَّث الطبرى [١] عن هـــذه الغزوة واستعدادات المهدى ، فقال : « وجَّه عبد الملك بن شهاب المسمعى فى البحر الى بلاد الهند ، وفرض معه لألفين من أهل البصرة من جميع الأجناد وأشخصهم معه ، وأشخص معه من المطوعة الذين كانوا يلزمون المرابطات ألفا وخمسمائة رجل ، ووجه معه قائدا من أبناء أهل الشام ، يقال له ابن الحباب المذحجىّ فى سبعمائة من أهل الشام ، وخرج معه من مطوعة أهل البصرة بأموالهم ألف رجل فيهم ، فيما ذكر الربيع بن صـــبيح ، ومن الأســـواريين والسبابيجه أربعة آلاف رجل ، فولى عبد الملك بن شهاب المنذر بن محمد الجارودى الألف رجل المطوعة من أهل البصرة ، وولى ابنه غسَّان بن عبد الملك الألفى رجل الذين من فرض البصرة ، وولى ابنه عبد الواحد بن عبد الملك الألف والخمسمائة رجل من مطوعة المرابطات ، وأفرد يزيد بن الحباب فى أصحابه ، فخرجوا ، وكان المهـــدى وجَّه لتجهـــيزهم حتى شخصـــوا أبا القاسم محرز بن ابراهيم ، فمضوا لوجههم حتى أتوا مدينة باربد من بلاد الهند فى سنة ١٦٠ هـ » .

وصل جيش المهدى الى مدينة باربد من بلاد الهند سنة ١٦٠ هـ ، فحاصروها بعد قدومهم بيوم ، وأقاموا محاصرين لها يومين ، فنصبوا المنجنيق وآلات الحصـــار ، وتحاشـــد الجند

---

(١) الطبرى ج ٦ ص ٣٥٣

العباسيون ، وحض بعضهم بعضا ، حتى فتحوها عنوة ، ودخلت خيولهم من كل ناحية الى المدينة ، وانكمش أهالى البلدة على أنفسهم ، وأشعل العباســيون النيران والنفط ، وغلبوا أهلها على أمرهم . ولم يقتل من المسلمين فى هذه المعركة الا بضعة وعشرون رجلا . وأقام العباسيون فى هذه المدينة حتى يطيب لهم الريح فيواصلون غزوهم ، ولكن تفشى بينهم عدة أمراض قضت على نحو ألف جندى ، واضطروا الى الانسحاب الى ساحل من سواحل فارس ، يقال له بحر حمدان ، فعصفت عليهم فيه الريح ، فكسرت كثيرا من سفنهم ، فغرق منهم بعض ، ونجا البعض الآخر . ويعلّق الخضرى على هذه الغزوة فيقول : ويظهر أن هذه الغزوة ليست الا اغارة لا عملا يقصد به توسيع المملكة [1] .

---

(١) تاريخ الامم الاسلامية جـ ٢ ص ٩٤

نصير الدين والعلم

الخليفة المتدين :

يجمع المؤرخون على أن الخليفة المهــدى كان من أعظم الخلفاء ، أمويين أو عباسيين ، تدينا ، وتمسكا بتعاليم الاسلام الرشيدة . فقد كان المهدى تقيا ورعا متواضعا ، تميز بأخلاق كريمة سمحة ، يعفو عن أعدائه ويغفر لهم هفواتهم ، كما كان كريما يـُغدق الأموال على رجاله وسائر رعاياه ، وحاكما عادلا ، يحرص على تحقيق الرخاء لشعبه ، ويخفف الضرائب والأعباء عن كاهلهم ، غيورا على الاسلام ، فقد تتبع الزنادقة والملحدين بالقتل والسجن ليكونوا عبرة لغيرهم .

تحدث السيوطى [1] عن تدين المهدى ، فقال « وكان جوادا ممدّحا ، مليح الشكل ، محببا الى الرعية ، حسن الاعتقاد ، تتبع الزنادقة ، وأفنى منهم خلقا كثــيرا ، وهو أول من أمر بتصنيف كتب الجدل فى الرد على الزنادقة والملحدين » .

اهتم المهــدى ، مثله مثل سائر الخلفاء العباسيين ، بصبغ الدولة العباسية فى جميع نواحيها بصــبغة دينية . فقــد كان الأمويون ــ باستثناء الخليفة عمر بن عبد العزيز ــ لا يتصلون

---

(١) السيوطى : تاريخ الخلفاء ص ٢٧١

برجال التشريع ورجال الدين على العموم اتصالا وثيقا ، الا فى أحوال نادرة ، بل قصر الخلفاء أنفسهم على النواحى السياسية مع قمع الثورات الداخلية والفتوحات الخارجية ، وتنظيم شئون الدولة المالية ، وما الى ذلك ، وتركوا العلماء يدرسون ويفتون ، وعيّنوا القضاة وتركوهم يقضون بما يرون ، كأن السياسة منفصلة عن الدين ، وكأن وظيفتهم سياسية بحتة .

حتى اذا سقطت الدولة الأموية ، وقامت الدولة العباسية ، صبغ الخلفاء العباسيون دولتهم بصبغة دينية ، ورأينا النزعة الدينية عند الخلفاء العباسيين الأولين واضحة جلية ، ورأينا اتصال الخلفاء بالعلماء ورجال الدين أقوى وأوضح ، فأبو جعفر المنصور يقرب العلماء ويصلهم ، ويهتم بتربية ابنه تربية دينية وينصحه ويعظه ، ورأينا المهدى يشتد على الزنادقة وينشىء ديوانا للبحث عنهم والتنكيل بهم ، ويعمل على توعية الناس حتى لا يتأثروا بآراء الزنادقة ، وتمسك المهدى بتعاليم الدين ، وعقد مجالسا حضرها الفقهاء والعلماء ، وكان المهدى راوية من رواة الأحاديث النبوية ، وغير ذلك مما سنراه مفصلا فى هذا الفصل .

فقد أراد الخلفاء العباسيون ألا يكونوا سياسيين فحسب ، بل سياسيين ودينيين معا . وقد كان لاتجاه العباسيين هذا الاتجاه أثر واضح فى التشريع ، وهو صبغ أعمال الدولة كلها بصبغة دينية ، فنظام الرى ، ونظام الضرائب ، وحفر الترع ، وجباية الأموال ، ونظام الدواوين ، كلها مسائل دينية ، يضع

الفقهاء كتبا حولها ، ويستفتى فيها الفقهاء ، ويجتهدون فيها اجتهادا دينيا . وهكذا كل ما دق من الأمور وعظم مرجعه فتوى المفتين وقضاء رجال الدين ، وهذا — من غير شك — يجعل مهمة الفقهاء واسعة النطاق [1] .

روى السيوطى [2] رواية تدل على تقوى المهدى وحبه للرسول صلى الله عليه وسلم ، فقال : « وأسند عن ابراهيم ابن نافع أن قوما من أهل البصرة تنازعوا اليه فى نهر من أنهار البصرة ، فقال : ان الأرض لله فى أيدينا للمسلمين ، فما لم يقع له ابتياع منها يعود ثمنه على كافتهم وفى مصلحتهم ، فلا سبيل لأحد عليه . فقال القوم : هذا النهر لنا بحكم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لأنه قال (من أحيا أرضا ميتة فهى له) ، وهذه موات ، فوثب المهدى عند ذكر النبى صلى الله عليه وآله وسلم حتى ألصق خده بالتراب وقال : سمعت لما قال وأطعت ، ثم عاد ، وقال : بقى أن تكون هذه الأرض مواتا حتى لا أعرض فيها ، وكيف تكون مواتا والماء محيط بها من جوانبها ؟ فان أقاموا البيّنة على هذا سلمت » .

روى الطبرى [3] قصة توضح ايمان المهدى ، وتوجهه بالدعاء الى الله فى كل شدة من الشدائد ، فقد روى : « قال الحسن الوصيف : أصابتنا ريح فى أيام المهدى حتى ظننا أنها تسوقنا

---

(١) أحمد أمين : ضحى الاسلام ج ٢ ص ١٦٣

(٢) السيوطى : تاريخ الخلفاء ص ٢٧٧

(٣) الطبرى ج ٦ ص ٣٨٦

الى المحشر فخرجت أطلب أمير المؤمنين ، فوجدته واضعا خده على الأرض ، يقول : اللهم احفظ محمدا فى أمته ، اللهم لا تشمت بنا أعداءنا من الأمم ، اللهم ان كنت أخذت هذا العالم بذنبى فهذه ناصيتى بين يديك . قال : فما لبثنا الا يسيرا حتى انكشفت الريح وانجلى ما كنا فيه » .

وكان المهدى يتأثر بالقرآن الكريم . فقد كان أمر بسجن موسى بن جعفر العلوى ، ثم حدث أن قرأ فى صلاته (فهل عسيتم ان توليتم أن تفسدوا فى الأرض وتقطعوا أرحامكم) ، فأتم صلاته والتفت الى حاجبه الربيع وأمره باحضار موسى ، فلما جىء به قال له : يا موسى انى قرأت هذه الآية فخفت أن أكون قطعت رحمك فوثق لى أنك لا تخرج علىّ . فقال : نعم . فوثق له فخلاّه .

ومن الأخبار الطريفة التى رويت عن المهدى ، أنه كان حريصا على الأخلاق والتمسك بالفضائل ، حتى أنه كان يشجع الشباب على الزواج ، كما كان يحسن الى المتعففين من هؤلاء الشباب [1] .

وروى الطبرى أن المهدى أمر بالصوم فى سنة ١٦٦ هـ ليستسقى للناس فى اليوم الرابع ، فلما كان فى الليلة الثالثة أصابهم الثلج ، فأنشد لقيط بن بكير المحاربى فى ذلك :

---

(١) المدور : حضارة الاسلام ص ٧٤

يا امام الهدى سُقينا بك الغيـ ث وزالت عنّا بك اللأواء
بت تعنى بالحفظ والناس نُوّا م عليهم من الظـلام غطاء
رقدوا حيث طال ليـلك فيهم لك خوف تضرُّع وبكاء

حقيقة شرب المهدى النبيذ :

كان الخليفة المنصور لا يحب الشراب ، ولا يسمح بشرب الخمر على مائدته . ولما قدم بختيشوع الطبيب ، أمر المنصور بطعام لغذائه . فلما وُضعت المائدة بين يديه طلب شرابا ، فقيل له : لا يُشرب على مائدة أمير المؤمنين . فقال : لا آكل طعاما ليس معه شراب . فأُخبر المنصور بذلك ، فقال : دعوه .

لم يشرب الخليفة المهدى الخمر ، كما كان يشربها غيره من الخلفاء الأمويين والعباسيين ، ولكنه شرب النبيذ مرات قليلة ، تكاد تكون نادرة ، دون أن يحب شربه أو يقبل عليه . فيروى الطبرى [1] : « وكان المهدى لا يشرب النبيذ الاّ تحرجا ، ولكنه كان لا يشتهيه » .

وقد اختلف الفقهاء فى تحليل أو تحريم النبيذ . فقد تناول بعض الخلفاء الأمويين والعباسيين النبيذ وقالوا انه غير محرم ، ووافقتهم على ذلك بعض فقهاء العراق ، بينما كان فقهاء الحجاز يحرمونه ، مثله مثل سائر أنواع الخمور . وقد بحث ابن عبد ربه هذه المسألة فى كتابه (العقد الفريد) [2] ، ثم ذكر أن تحريم الخمر

(١) الطبرى جـ ٦ ص ٣٨٦
(٢) ابن عبد ربه : العقد الفريد جـ ٦ ص ٣٥٢

مجمع عليه بحيث انه لا اختلاف فيه بين اثنين من الأئمة والعلماء . ولكن النبيذ كان موضع الاختلاف . ثم ذكر ابن عبد ربه أن الخمر حرّمه القرآن ، والنبيذ قد حرّمه السنة ، وما كان محرما بالكتاب فلا يحل منه لا قليل ولا كثير . وما كان محرّما بالسنة فان فيه فسحة أو فى بعضه . فقال البعض : قد جعل الله فيما أحل عوضا مما حرم ، فحرّم الربا وأحل البيع ، وحرم السفاح وأحل النكاح ، وحرم الديباج وأحل الوشى ، وحرّم الخمر وأحل النبيذ غير المسكر . ولذا ذهب بعض الناس الى أن نبيذ التمر ليس خمرا .

أجمع فقهاء الحجاز على تحريم النبيذ ، بينمـا أحل بعض فقهاء العراق شربه . ويذكر (جولد تسيهر) [1] أن الفقهاء فى المشرق أعملوا ذكاءهم ليحدّوا من دائرة هذا المنع الذى يتّسع لأشربة أخرى ، وذلك بواسطة التفسير ، فسعوا الى اثبات أنه فيما عدا خمر العنب لا تحرّم الأشربة الأخرى مثل نبيذ التفاح والتمر .

تساءل الناس كثيرا فى العراق : ما المراد بالخمر ؟ أهى عصير العنب وحده ، أم كل مسكر خمر ؟ وظهر فى عالم الفقه (مسألة النبيذ) . وذهب الأئمة الثلاثة مالك والشافعى وأحمد بن حنبل الى سد الباب بتاتا ، ففسروا الخمر بما يشـمل جميع الأنبذة المسكرة من نبيذ التمر والزبيب والشـعير والذرة والعسـل

(١) جولدتسيهر : العقيدة والشريعة فى الاسلام ص ٦١

وغيرها ، وقالوا : كلها تسمَّى خمرا ، وكلها محرَّمة . أما الامام أبو حنيفة ففسر الخمر فى الآية القرآنية التى حرمتها بعصير العنب مستندا الى المعنى اللغوى لكلمة الخمر وأحاديث أخرى ، وأداه اجتهاده الى تحليل بعض أنواع من الأنبذة كنبيذ التمر والزبيب ان طُبخ أدنى طبخ وشُرب منه قدر لا يسكر ، وكذلك نبيذ العسل والتين والبر والعسل [1] .

كان النبيذ فى العصر العباسى يُصنع من أنواع عديدة من الفاكهة ، وخاصة العنب والتمر والزبيب والتفاح والمشمش ، ومن الذرة ، ويختلف باختلاف طرق صناعته ، فقد يكون عصير بعض ثمار الفاكهة أو منقوعها ، وقد يضيفون اليه العسل ثم يضعوه على النار ، وكانوا اذا أقبلوا على شربه صفّوه ، وتناولوه فى أقداح كبيرة ، وربما صنعوا الخمر منه فيما بعد [2] .

كان المهدى ـــ كما روى الطبرى ـــ يشرب النبيذ فى أوقات نادرة ، مضطرا اليه ، امّا لارضاء بعض جالسيه ، أو مشاركة لهم فى سمرهم ، وكان غالبا لا يشرب النبيذ ، وانما يسمح لأصحابه بشربه فى مجلسه ، وكان وزير المهدى يعقوب بن داود يشير عليه بألا يسمح لأصدقائه بشرب النبيذ فى مجلسه .

قال الوزير يعقوب بن داود : « وكان أصحابه ـــ أى أصحاب المهدى ـــ عمر بن بزيع والمعلى مولاه والمفضل ومواليه يشربون عنده بحيث يراهم ، وكنت أعظه فى سقيهم النبيذ وفى

(١) أحمد أمين : ضحى الاسلام جـ ١ ص ١٢٤

(٢) انظر كتابنا (الحضارة العربية الاسلامية) ص ٢١٦

السماع وأقول انه ليس على هذا استوزرتنى ولا على هــذا صحبتك ، أبعــد الصــلوات الخمس فى المســجد الجــامع يـُشرب عندك النبيذ وتسمع السماع ؟ فكان ــ أى المهدى ــ يقول : قد ســمع عبد الله بن جعفر . قلت : ليس هــذا من حسناته » [1] .

هذه هى رواية الطبرى ، نقلها عن يعقوب بن داود وزير المهدى ، ونحن لا نعتقد فى صحتها ، فقد ساءت العلاقات بين المهدى ويعقوب ، اذ أقدم المهدى على قتل ابن الوزير لاتهامه بالزندقة ، ثم عزل الوزير من منصبه . مما أثار أحقاد الوزير على المهدى . ومهما كان الرأى ، فهذا الوزير ينفى عن المهدى شربه الخمر أو النبيذ ، ويقصر اتهامه للمهدى على أنه سمح لأصحابه بشرب النبيذ فى مجلسه . ونحن نعتقد أن المهدى لم يكن يشرب النبيذ على وجه الاطلاق ، لما لمسناه منه دائما من تديـُّن وتقوى وورع وتمسك بتعاليم الاسلام ، فى حياته العامة والخاصــة .

ومن الأدلة التى نسوقها على صحة رأينا ، ما رواه الأصفهانى فى كتابه الأغانى ، فقد كان المهــدى يستمع الى غناء ابراهيم الموصلى ويطرب لغنائه ، حتى اذا علم المهدى أن الموصلى يغرق فى شرب الخمر ، نهاه عن ذلك ، وأمره بالكف عن شرب الخمر ،

---

(١) الطبرى جـ ٦ ص ٣٨٦

حتى اذا عصا الموصلى أمره ، أمر بضربه ثلاثمائة سوط ، وقيَّده وحبسه [1]

اهتمام المهدى بالأماكن المقدسة :

اهتم المهدى بالأماكن المقدسة فى مكة والمدينة . وقد رأينا اهتمام المهدى بانشاء البريد بين مكة والمدينة وبين بلاد اليمن جنوبا وبلاد العراق شمالا . فأنشأ محطات البريد ، وزود الطريق بالماء ليرتوى منه الحجاج . كما اهتم المهدى بشئون الحج ، وتيسيره على المسلمين ، وكانت مواكب الحج التى تخرج الى الحجاز أعظم المواكب التى شهدتها بلاد العراق . كما حرص المهدى على التوسيع على أهالى مكة والمدينة ، فزاد من أعطياتهم وأغدق عليهم الصلات والمنح .

وعمل المهدى على احياء السنة النبوية ، فأمر بنزع المقاصير من المساجد الجامعة ، وتقصير المنابر وتصييرها الى المقدار الذى عليه منبر رسول الله صلى الله عليه وسلم [2] . وكان معاوية بن أبى سفيان قد ابتدع المقصورة فكان يصلى فيها هو وكبار رجال حاشيته ، فقد شهد مصرع الخليفتين عمر بن الخطاب وعلى بن أبى طالب فى المسجد أثناء الصلاة ، كما تعرض معاوية لمحاولة لاغتياله فى المسجد ، وسار الخلفاء الأمويون وولاتهم فى الأمصار الاسلامية على منواله فى اتخاذ المقاصير فى المساجد

---

(١) الأصفهانى : الأغانى جـ ٥ ص ٥

(٢) الطبرى جـ ٦ ص ٣٦٨

الجامعة . ولكن المهدى أمر بازالتها لأنهـا تتنافى مع الحكمة المقصودة من صلاة الجماعة ، حيث يتساوى المسلمون جميعا أمام خالقهم .

وأمر المهدى بنزع المقصورة التى فى مسجد الرسول صلى الله عليه وسلم فنزعت ، وأراد أن ينقص منبر رسول الله فيعيده الى ما كان عليه قبل اضافات معاوية بن أبى سفيان « فذكر عن مالك بن أنس أنه شاور فى ذلك فقيل له ان المسامير قد سلكت فى الخشب الذى أحدثه معاوية ، وفى الخشب الأول ، وهو عتيق فلا نأمن ان خرجت المسامير التى فيـه وزعزعت أن يتكسر ، فتركه المهدى »[1] .

أكرم المهـدى أهل المدينـة ، فاختار خمسمائة رجل من الأنصار ، وصحبهم معه الى حاضرته بغداد ليكونوا حرسـا خاصا له وأنصاراً ، وأجرى عليهم أرزاقا ، سوى أعطياتهم ، وأقطعهم عند قدومهم معه الى بغداد قطيعة تعرف بهم . وتزوج المهدى خلال اقامته فى المدينة بفتاة من أهلها هى رقيـة بنت عمرو العثمانية[2] .

وأمر المهدى بالزيادة فى المسجد الحرام ، فدخلت فيه دور كثيرة ، وتولى أمر ذلك يقطين بن موسى ، واستمر البناء حتى وفاة المهدى[3] .

---

(١) الطبرى ج ٦ ص ٣٦٧

(٢) المصدر السابق .

(٣) الطبرى ج ٦ ص ٣٩٠

نزع المهدى كسوة الكعبة التى كانت عليها ، وكساها كسوة جديدة ، ويروى الطبرى أن « حجبة الكعبة فيما ذكر رفعوا اليه أنهم يخافون على الكعبة أن تهدم لكثرة ما عليها من الكسوة ، فأمر أن يكشف عنها ما عليها من الكسوة حتى بقيت مجردة ، ثم طلى البيت كله بالخلوق وذكر أنهم لما بلغوا الى كسوة هشام وجدوها ديباجا تخينا جيدا ، ووجدوا كسوة من كان قبله عامتها من متاع اليمن » [1] .

وامتد اهتمام المهدى الى سائر المساجد ، فقد أمر بالزيادة فى المسجد الجامع فى البصرة ، فزيد فيه من مقدمه مما يلى القبلة ، وعن يمينه مما يلى رحبة بنى سليم ، وتولى بناء ذلك والى البصرة محمد بن سليمان [2] .

واهتم المهدى بتكريم أهل مكة والمدينة ، فأمر بمد الأسمطة الحافلة بأحسن أنواع الطعام ، فأطعمهم الطير وخبز السميذ ، وجلب لهم الثلج من بلاد الشام ، بسبب ارتفاع الحرارة فى بلاد الحجاز ، وكانت هذه أول مرة يُجلب فيها الثلج الى هذه البلاد كما أسلفنا .

روى المؤرخ السيوطى [3] أن المهدى استن سنّة جديدة ، فقال : « أسند عن الأصمعى قال : سمعت المهدى على منبر البصرة يقول : ان الله أمركم بأمر بدأ فيه بنفسه وثنى بملائكته

(١) الطبرى جـ ٦ ص ٣٦٦
(٢) الطبرى جـ ٦ ص ٣٦٨
(٣) السيوطى : تاريخ الخلفاء ص ٢٧٨

فقال : (ان الله وملائكته يصلّون على النبى) الآية ، آثره بها من بين الرسل اذ خصّكم بها من بين الأمم . قلت : وهو أول من قال ذلك فى الخطبة ، وقد استنها الخطباء الى اليوم » .

اهتمام المهدى برعاياه :

تجلّى اهتمام المهدى برعاياه فى صور كثيرة ، فقد دفع عنهم خطر حركات الزندقة ، ونصب ديوان المظالم وجلس للنظر فى مظالم رعاياه بنفسه ، وخفف من أعباء الضرائب ، واهتم بالزراعة والصناعة والتجارة مما حقق الرخاء الاقتصادى ، وأقام البريد بين الولايات الاسلامية ، واختار أحسن الوزراء سيرة وعدلا ، ودقق فى اختيار قواده وموظفيه ومعاونيه ، واهتم بالعمران والانشاء ، فاتسعت بغداد فى عهده ونمت حضارتها ، وشجع العلماء والأدباء والفنانين . فلا عجب أن أحبّته الرعية ، مسلمون وذميون ، عرب وفرس ، أحرار وأرقاء .

وهذه هى بعض روايات المؤرخين تدور كلها حول اهتمام المهدى بشئون الرعية . فيقول ابن طباطبا [1] : « وكان المهدى ينظر فى الدقائق من الأمور » كما قال أيضا : « فى أيامه ظهرت أبهة الوزارة » . وقال أيضا : « وكان يشاور فى الأمور دائما » ، وقال : « وكان يجلس فى كل وقت لرد المظالم » .

---

(١) الفخرى ص ١٦٢ – ١٦٣

وتحدث المسعودى [1] عن حب أهالى الدولة العباسية للمهدى ، وعلّل هذه المحبة فى قوله : « وكان المهدى محببا الى الخاص والعام ، لأنه افتتح أمره بالنظر فى المظالم ، والكف عن القتل ، وأمّن الخائف ، وانصف المظلوم ، وبسط يده فى الاعطاء » .

وروى السيوطى كثيرا من الروايات تدل كلها على حرص المهدى على تحقيق مصالح رعاياه . فروى أن المهدى كان يمرّ يوما بموكبه فى شوارع بغداد فسمع رجلا يصيح منشدا هذين البيتين :

قل للخليفة : حاتم لك خائن
فخف الاله وأعفنا من حاتم
ان العفيف اذا استعان بخائن
كان العفيف شريكه فى المأثم

فأمر المهدى بعزل كل عامل من عمّاله يتسمّى باسم حاتم ، فقد كان من العسير على المهدى أن يصل الى حاتم هذا المشكو منه [2] .

وحدث مرّة أن اعترضت امرأة موكب المهدى ، فقالت : يا عَصَبة رسول الله صلى الله عليه وسلم انظر فى حاجتى .

---

(1) المسعودى : مروج الذهب ج ٣ ص ٣٢٢
(2) السيوطى : تاريخ الخلفاء ص ٢٧٧

فقال المهدى لأصحابه : ما سمعتها من أحد قط ، اقضوا حاجتها ، وأعطوها عشرة آلاف درهم [1] .

وأمر المهدى بأن تقوم الدولة بالانفاق على المجذومين والمسجونين ، وتوفير ضروريات الحياة لهم [2] . وكانت الدولة قبل المهدى لا تتكفل بالمسجونين ، فكانوا يخرجون فى كل صباح من سجنوهم وهم فى قيودهم الحديدية ، الى الطرقات المجاورة للسجن ، يتسولون ، فيحسن الناس عليهم بما يسد رمقهم ، ولكنه كان مشهدا يدعو الى النفور . كما كان المجذومون عاجزين عن الكسب ، يلجأون الى التسول ، ويعرضون غيرهم للعدوى ، ولذا أمر المهدى بأن تعولهم الدولة ، وهذه هى صورة لانسانية المهدى .

أخذ الناس يشعرون بعد موت المنصور بشىء من الراحة ، وقد أجهدوا أنفسهم فى عهده بما يتطلبه تأسيس دولة من مشقة ، وتذليل صعوبات جمة ، وملوا الافراط فى الجد والاقتصاد اللذين اتصف بهما المنصور ، وتطلعوا لحياة فيها سعة فى المال ، وطرف من النعيم ، فوجدوا ذلك فى الخليفة المهدى . وفى الحق ان السنوات العشر التى حكمها كانت جسراً بين حياة الجد والجفاف والعمل فى عصر

---

(1) تاريخ الخلفاء ص ٢٧٤

(2) الطبرى جـ ٦ ص ٣٧٣

المنصور ، وحياة الرفاهية والترف فى عصر الرشيد ومن بعده [1] .

المهدى نصير العلم :

اشتهر المهدى باقباله على العلم ، واكتساب ألوان مختلفة من الثقافة ، تنيجة نشأته العربية . فقد حرص أبوه المنصور على تعليمه وتثقيفه ، فقد كان يعدّه ليتولى الخلافة بعده ، ولذا عهد بتربيته الى أحد علماء عصره وهو المفضل الضبى .

أما المفضل ، فعربى من ضبة ، ومن أشهر علماء الكوفة ، يروون أنه خرج على المنصور مع ابراهيم بن عبد الله بن حسن ، فظفر به المنصور ثم عفا عنه ، وعهد اليه بتربية ابنه المهدى ، وقد اشتهر بالنحو ومعرفة الانساب وأيام العرب وروايته للشعر ، وعُرف بالصدق فيما يروى . مات سنة ١٦٤ أو ١٦٨ أو سنة ١٧٠ هـ على اختلاف فى الروايات . وقد بقى لنا من أهم كتبه كتاب المفضليات [2] .

ألّف المفضل الضبى للمهدى أمثال العرب ، وجمع له مختارات شعرهم ، وكان يقول : ما تقرب الى أحد بوسيلة ولا تذرع بذريعة هى أقرب من تذكيره اياى يد أسلفت منى اليه أتبعها أختها فأحسن ربها لأن منع الأواخر يقطع شكر الأوائل .

ومن أشهر انتاج المفضل كتابه (المفضليات) وهى مجموعة

---

(١) أحمد أمين : ضحى الاسلام جـ ١ ص ١١١

(٢) ضحى الاسلام جـ ٢ ص ٣٠٦

من القصائد ، تحدث ابن النديم عنها فقال : « انه عملها للمهدى ، وهى مائة وثمان وعشرون قصيدة ، وقد تزيد وتنقص ، وتتقدم القصائد وتتأخر بحسب الرواية عنه ، والصحيحة هى التى رواها عنه ابن الأعرابى » . وما بين أيدينا الآن منها يحتوى على ١٢٦ قصيدة لسبعة وستين شاعرا ، منهم ستة عاشوا حياتهم كلها فى الاسلام ، وأربعة عشر مخضرمون عاشوا أكثر حياتهم فى الجاهلية ثم أسلموا ، وسبعة وأربعون عاشوا وماتوا فى الجاهلية .

وقد روى المفضل القصائد كلها كاملة ، فهى قصائد لا مقطعات ، كما فعل أبو تمام فى ديوان الحماسة ، فقد اختار من القصائد أجودها . أما المفضل فاختار من الشعر أجوده قصائد ، وقد وصلت الينا هذه القصائد ، ووصل الينا شرحها القيم لأبى القاسم بن محمد بن بشار الأنبارى [1] .

عاصر المهدى كثير من العلماء والفقهاء والأدباء ، نذكر منهم : شعبة ، وابن أبى ذئب ، وسفيان الثورى ، وابراهيم بن أدهم الزاهد ، وداود الطائى الزاهد ، وبشار بن برد ، وحماد ابن سلمة ، وابراهيم بن طهمان ، والخليل بن أحمد صاحب العروض ، والمفضل الضبى ، وأبو العتاهية ، وغيرهم [2] .

اهتم المهدى بتعظيم العلم وتكريم العلماء ، فهو يتخذ لأهل الأدب وأرباب الصناعة والغايات أياما معلومة من السنة ،

---

(١) ابن النديم : الفهرست ص ٦٨

(٢) السيوطى : تاريخ الخلفاء ص ٢٧٩

يعرضون فيها بضاعتهم من علم أو فن أو أدب أو صناعة حتى يحصل بينهم التنافس ، ويصدروا ما عندهم من النفائس ، ثم يجزيهم على ذلك بما هو مطبوع عليه من الكرم [1].

وكان المهدى يأذن للشعراء بالدخول عليه مرّة فى السنة فيجتمعون ببابه ويتفاخرون بما عندهم من محاسن الشعر وفصاحة الكلام .

وذكر المؤرخ السيوطى [2] أن المهدى كان من رواة الأحاديث ، وأمدنا ببعض الأمثلة ، فقال : « حدثنا أحمد بن عبد الرحمن بن مسلم المدائنى ــ وهو ثقة صدوق ــ قال : سمعت المهدى يخطب فقال : حدثنا شعبة عن على بن زيد عن أبى نضرة عن أبى سعيد الخدرى قال : خطبنا رسول الله صلى الله عليه وسلم خطبة من العصر الى مغيربان الشمس حفظها من حفظها ، ونسيها من نسيها ، فقال : (ألا ان الدنيا حلوة خضرة) الحديث بطوله » . ومن الأمثلة التى ذكرها السيوطى أيضا : « حدثنى أبو يعقوب بن حفص الخطابى ، سمعت المهدى يقول : حدثنى أبى عن أبيه عن على بن عبد الله بن عباس عن أبيه أن وفدا من العجم قدموا على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ــ وقد أحفوا لحاهم وأعفوا شواربهم ــ فقال النبى صلى الله عليه وسلم : (خالفوهم ، أعفوا لحاكم واحفوا شواربكم) ، واحفاء الشارب : أخْذ ما سقط على الشفة منه ، ووضع المهدى على أعلى شفته » .

---

(١) المدور : حضارة الاسلام ص ٧٤

(٢) السيوطى : تاريخ الخلفاء ص ٢٧٨ ، ٢٧٩

وضرب السيوطى مثلا ثالثا للأحاديث النبوية التى رواها المهدى : « عن يحيى بن حمزة قال : صلّى بنا المهدى المغرب فجهر ببسم الله الرحمن الرحيم : فقلت : يا أمير المؤمنين ما هذا ؟ قال : حدثنى أبى عن ابن اسحاق أن النبى صلى الله عليه وآله وسلم جهر ببسم الله الرحمن الرحيم : فقلت للمهدى : نأثره عنك ؟ قال نعم » .

وشارك موسى الهادى أباه الخليفة المهدى فى الاهتمام بالأحاديث النبوية ، فيروى السيوطى :[1] « وأخرج البغوى فى الجعديات عن حمدان الأصبهانى قال : كنت عند شريك ، فأتاه ابن المهدى ، فاستند وسأل عن حديث ، فلم يلتفت شريك ، ثم أعاد فعاد ، فقال : كأنك تستخف بأولاد الخلفاء ، قال : لا ، ولكن العلم أزيد عند أهله من أن يضيعوه ، فجثا على ركبتيه ثم سأله ، فقال شريك : هكذا يطلب العلم » .

وبعد أن كان فى عهد الصحابة المأثور هو حديث رسول الله ، أصبح فى عهد التابعين المأثور أقوال الرسول وكبار الصحابة ، وفى عهد التابعين المأثور هذا وقول كبار التابعين وهكذا ، فكلما جاء جيل ورث عن قبله آراء المجتهدين ، وفتوى المفتين ، وقضاء القضاة[2] .

أصبحت بغداد فى عهد المهدى ، كما يقول ابن رسته[3] :

---

(١) تاريخ الخلفاء ص ٢٧٥

(٢) ضحى الاسلام جـ ٢ ص ١٦٤

(٣) ابن رسته : الأعلاق النفيسة ص ٢٣٣

« وسط الدنيا وسرة الأرض ، والمدينة العظمى التى ليس نظير فى مشارق الأرض ومغاربها ، سعة وكبرا وعمارة ، سـ أصناف الناس ، وانتقلوا اليها من جميع البلدان ، وهى مدينة بنى هاشم ، ودار ملكهم ومحل سلطانهم . وباعتدال هوائها وعذوبة مائها حسنت أخلاق أهلها ، ونضرت وجوههم ، وانفتقت أذهانهم ، حتى فضلوا الناس فى العلم والفهم والأدب والنظر والتمييز . فليس عالم أعلم من عالمهم ، ولا أروى من رواتهم ، ولا أجدل من متكلمهم ، ولا أعرف من نحويهم ، ولا أصح من قارئهم ، ولا أمهر من متطببهم ، ولا أحذق من مغنيهم ، ولا ألطف من صانعهم » .

المهدى الشاعر :

كان المهدى شاعرا مجيداً ، فقد نشأ منذ حداثته نشأة عربية ، وربّاه أحد أعلام عصره ، المفضل الضبى ، الذى غرس فيه محبة الآداب العربية ، فنشأ فصيحا بليغا ، يقول الشعر ، ويتذوقه ، ويشجع الشعراء والأدباء والعلماء .

حرص الخليفة المنصور على تعليم ابنه المهدى ، فعهد به الى أدباء وعلماء عصره ، فيروى المؤرخ المسعودى [1] « أن المنصور كان قد ضمّ الشرقى بن القطامى الى المهدى ، حين خلفه بالرى وأمره أن يأخذه بحفظ أيام العرب ، ومكارم الأخلاق ، ودراسة الأخبار ، وقراءة الأشعار » .

---

(1) ص ٧٤

تحـدث (المدور) فى كتابه (حضارة الاسـلام فى دار السلام) [1] عن اهتمام المهدى بالأدب فقال : فهو يتخذ لأهل الأدب وأرباب الصناعة والغـايات أياما معلومة من السنة . يعرضون فيها بضاعتهم من علم أو فن أو أدب أو صناعة حتى يحصل بينهم التنافس ، ويصدروا ما عندهم من النفائس ، ثم يجذبهم على ذلك بما هو مطبوع عليه من الكرم .

وكان المهدى يأذن للشعراء بالدخول عليه مرّة فى السنة ، فيجتمعون ببابه ، ويتفـاخرون بما عندهم من محاسن الشـعر وفصاحة الكلام . فقصده ابن المولى من البـادية ، وسَلْم الخاسر من البصرة ، وابن الخياط من مكة ، وأشجع السلمى من الحجاز ، فقالوا فيه الشعر الذى لم يمدح بمثله أحد من الخلفاء .

تردد أبو العتاهية وبشـار بن برد على مجالس المهدى ، ولكن المهدى كان يقدم عليهم سلماً البصرى ومروان بن أبى حفصة ، ويعطيهما عطيّة واحـدة ، فأمّا مروان فانه يلتمس الفصاحة فى كلامه تشبها بأكابر الشعراء ، وأما سلم فانه يودع أبياته المجون والخلاعة لتكون أنسا فى عيون السلطان ، فوقع فيما يتصرفان به من مذاهب الشعر بون يشبه أن يكون ناشئا عمّا فيهما من تباين المشرب بين الافراط عند الأول والتفريط عند الآخر ، فانّ مروان بخيل يضن بماله ، وسلم سمح يبذل المال ، يأتى الى دار المهـدى على برذون قيمته عشرة آلاف

---

(١) انظر الأغانى جـ ٩ وحضارة الاسلام للمدور ص ٧٦

درهم ، ولباسه الخزّ والوشي . ويأتى مروان بأثواب رثه على حمار يكتريه بدرهم لا يخرج من يده الاّ بعصب الريق ، مع كثرة ما أصابه من الملك فى صلات تجاوزت خمسة آلاف دينار فى عطيَّة واحدة [1] .

وكانت الفصاحة فى كلام مروان أوضح منها فى شعر سلم . وكان مروان يعلم منافسة العلويين للعباسيين فى الخلافة ، فاتخذ من شعره وسيلة لتدعيم حق الأسرة العباسية فى الخلافة ، فاكتسب بذلك رضا الخليفة المهدى ، ومن هذا الشعر السياسى :

يا ابن الذى ورث النبى محمدا
دون الأقارب من ذوى الأرحام
أنَّى يكون وليس ذاك بكائن
لبنى البنات وراثة الأعمام

فقد كان العلويون الفاطميون يعتمدون فى طلبهم للخلافة على نسبهم الى السيدة فاطمة بنت الرسول ، بينما اعتمد العباسيون على انحدارهم من نسل العباس عم الرسول صلى الله عليه وسلم .

وكافأ المهدى مروان بن أبى حفصة على هذا الشعر بسبعين ألف درهم ، فأنشد مروان [2] :

بسبعين ألفا راشنى من حبائه   وما نالها فى الناس شاعر قبلى

وكان مروان بن أبى حفصة هو الشاعر الذى سجّل الأحداث

---

(١) المدور : حضارة الاسلام ص ٧٤
(٢) الطبرى جـ ٦ ص ٤٠٢

، عصر المهدى ، فلما أخذ المهدى البيعة لابنه موسى
ة العهد ، أنشد مروان [1] :

ـ موسى بالرصـــافة بيعة　　شدّ الاله بها عرى الاسلام
موسى الذى عرفت قريش فضله　　ولهـــا فضيلته على الأقوام
بمحمـــد بعـــد النبى محمـــد　　حيى الحلال ومات كل حرام
مهـــدى أمته الذى أمست به　　للذل آمنـــة وللاعـــدام

والى جانب تشجيع المهـــدى للشعراء ، واغداق الصلات والعطايا عليهم ، كان هو شاعرا مجيدا ، نظم كثيرا من القصائد الجيدة الرقيقة ، ومن أشعاره :

ما يكف النـــاس عنـّــا　　ما يمـلّ النـــاس منـّــا
انمـــا همتهـــم أن　　ينبشـــوا ما قد دفنـّــا
لو سكنا بطـــن الأرض　　فلـــكانوا حيث كنـّــا
وهم ان كاشـــفونا　　فى الهـــوى يوما مجنـّــا

كان للمهدى جارية شـُغـِف بها ، وهى كذلك ، الا أنهـــا تتحاماه كثيرا ، فدسّ اليها من عرف ما فى نفسها ، فقـــالت : أخاف أن يملنى ويدعنى فأموت . فأنشد المهدى هذه الأبيات :

ظفـــرت بالقلب منى　　غادة مثـــل الهـــلال
كلما صـــحّ لهـــا ودّ　　ى جاءت باعتـــلال
لا لحب الهجـــر منى　　والتنائى عن الوصال
بل لابقـــاء على حـــ　　بى لهـــا خوف الملال

---

(١) السيوطى : تاريخ الخلفاء ص ٢٧٤

وقد روى السيوطى [1] كثيرا من شعر المهدى ، ثم أبدى رأيه فى شعره ، فقال : « شعر المهدى أرق وألطف من شعر أبيه وأولاده بكثير » .

وروى الطبرى [2] قصة تبين اهتمامه بالشعر ، فقد رأى احدى جواريه ، وقد وضعت على رأسها تاجاً فيه نرجس من ذهب وفضة ، فاستحسنه ، وقال (يا حبذا النرجس فى التاج) ، ثم دعا شاعرا هو عبد الله بن مالك ، وطلب منه أن يضع بيتا من الشعر يحوى هذه العبارة ، فأنشد :

يا حبذا النرجس فى التاج   على جبين لاح كالعاج

وأنعم المهدى على الشاعر بأربعين ألف درهم .

وكان المهدى يكره الشعر الماجن ، فقد سأل يوما عمارة بن حمزة : من أرق الناس شعرا ؟ فأجاب : والبة بن الحباب الأسدى وهو الذى يقول :

ولها ولا ذنب لها   حبٌ كأطراف الرماح
فى القلب يقدح والحشا   فالقلب مجروح النواحى

فقال المهدى : صدقت . فقال عمارة : فما يمنعك من منادمته يا أمير المؤمنين ، وهو عربى شريف شاعر ظرف . فأجاب المهدى انه يمنعه من منادمته قوله الشعر الماجن ، وضرب المهدى له مثلا ببيتين ماجنين [3] .

---

(١) تاريخ الخلفاء ص ٢٧٦
(٢) الطبرى جـ ٦ ص ٤٠٤
(٣) الطبرى جـ ٦ ص ٤٠٢

ويروى الأصـفهانى فى كتابه الأغانى الكثير عن اهتمـام المهدى بالشعر والشعراء . وقد ظهر فى عهد المهدى فن متميز ، وهو فن رواية الأشعار والأخبار وأيام العرب وأحداثها . فبرز فى عهد المهدى اثنان نبغا فى هذا الفن ، أحدهما كوفى هو حماد الراوية ، والآخر بصرى هو خلف الأحمر ، وكلاهما غير عربى الأصل ، وكلاهما واسع العلم عارف بالشعر وفنونه ومميزات عصوره ، عالم بالأخبار والأيام والأحداث . وحماد هو الذى جمع السبع الطوال ، أى المعلقات . وأبدى الخليفة المهـدى اهتماما بجهود حماد ، وتقييم هذه الجهود [1] .

بين المهدى وأبى العتاهية :

ارتبط اسم الشاعر أبى العتاهية باسم الخليفة المهدى ، قبل أن يرتبط باسم ابنه الخليفة هارون الرشـيد . وكتب الأدب والتاريخ حفلت بكثير من أخبار أبى العتاهية فى عهد المهدى .

تحدث المؤرخ المسعودى [2] عن أبى العتاهية فى عصر المهدى فقال : « وكان أبو العتاهية بائع جرار ، وكان من أسهل الناس لفظا ، وأقدرهم على وزن الكلام ، وكان حلو الألفاظ ، حتى انه يتكلم بالشعر فى جميع حالاته ، ويخاطب به جميع أصناف الناس ، قد جعله شعرا ونثرا » .

وكان أبو العتاهية فى مقدمة الشعراء الذبن مدحوا المهدى

---

(١) أحمد أمين : ضحى الاسلام جـ ١ ص ٣١٠

(٢) مروج الذهب جـ ٣ ص ٣٢٧

حين تولى الخلافة ، فمدحه بأبيات نالت اعجاب المهدى واستحسان الناس ، وما زالت تتردد اليوم على الألسنة ، وهى :

أتته الخلافة منقادة   اليه تُجرِّرُ أذيالها
فلم تكُ تصلح الا له   ولم يك يصلح الاّ لها
ولو رامها أحد غيره   لزلزلت الأرض زلزالها
وان الخليفة من بغض لا   اليه ليبغض من قالها

وكان أبو العتاهية شابا فى عهد المهدى ، تجيش فى نفسه عواطف الحب ، وكان مُغرما بجارية من جوارى الخيزران زوجة الخليفة المهدى تدعى (عتبة) . ولم تُبد الجارية رضاها عن غزل أبى العتاهية ، بل ضاقت بتشبيبه بها ، وشكت الى مولاتها الخيزران ، ودخل المهدى يوما على زوجته والجارية تبكى فى حرارة شاكية لها أبا العتاهية ، وسألها المهدى عن حقيقة الأمر ، ثم استدعى اليه أبا العتاهية ، حتى اذا مثل فى حضرته ، قال المهدى : أنت القائل فى عتبة :

الله بينى وبين مولاتى   أبدت لى الصدّ والملامات

ثم سأله المهدى : ومتى وصلتك حتى تشكو صدّها عنك ؟ فقال أبو العتاهية : يا أمير المؤمنين ، ما قلت ذلك بل أنا الذى أقول :

يا ناق حُثى بنا ولا تهنى   نفسك فيما ترين راحات
حتى تجيئى بنا الى ملك   توجّه الله بالمهابات
يقول للريح كلما عصفت   هل لك يا ريح فى مباراتى
عليه تاجان فوق مفرقه   تاج جمال وتاج اخبات

فنكس المهدى رأسه ، ونكت بالقضيب الذى كان فى يده ، ثم رفع رأسه ، وسأل أبا العتاهية : أنت القائل :

ألا ما لسيِّدتى ما لها   أدلت بأجمل ادلالها
وجارية من جوارى الملو   ك قد أسكن الحسن سربالها

ثم سأله المهدى : وما علمك بما حواه سربالها ؟ فأجابه معارضا له فيه :

أتته الخلافة منقادة   اليه تجرر أذيالها
فلم تك تصلح الاّ له   ولم يك يصلح الاّ لها

ثم سأل المهدى أبا العتاهية عن أشياء مختلفة ، فأفحم أبو العتاهية فى الجواب ، فأمر المهدى بجلده نحوا من حد ، وخرج أبو العتاهية مجلودا ، فالتقى بالجارية التى يحبها (عتبة) ، وهو على تلك الحال من الجلد ، فأنشد :

بخ بخ يا عتب من أجلكم   قد قتل المهدى فيكم قتيلا

وتأثرت عتبة بما حدث لأبى العتاهية بسببها ، فتغرغرت عيناها ، وفاض دمعها . ودخلت الجارية الى دار الخيزران باكية ، وقصد المهدى دار الخيزران ، فوجد عتبة تبكى ، فسألها عن سبب بكائها ، فأخبرته بتأثرها لما لحق بأبى العتاهية ، فطيَّب المهدى خاطرها ، وأمر بمنح أبى العتاهية خمسين ألف درهم ، ففرّقها أبو العتاهية على من كانوا بباب الخليفة المهدى . وعلم المهدى بالخبر ، فاستدعى أبا العتاهية ، وسأله : ما حملك على أن أكرمتك بكرامة فقسمتها ؟ فقال أبو العتاهية : ما كنت لآكل

ثمن من أحببت . فمنح المهدى أبا العتاهية خمسين ألف درهم أخرى ، وحلف عليه أن لا يفرّقهـا ، فأخذها أبو العتاهيـة وانصرف [1] .

وكان المهدى ، مثله مثل سائر الخلفاء العباسيين ، يحتفل بالأعياد الفارسية ، فقد كان الفرس غالبية سكان بلاد العراق وخراسان ، وفى مقدمة هذه الأعياد يوم النوروز ويوم المهرجان، وكان الناس يتبادلون فيهما الهدايا . وحدث أن أبا العتاهية أهدى الى المهدى فى يوم نوروز (أو مهرجان) برنية صينية فيها ثوب ممسك فيه سطران مكتوبان عليه بالغالية :

نفسى بشىء من الدنيا معلقة   الله والقـائم المهدى يكفيها
انى لأيأس منها ثم يطمعنى   فيها احتقارك للدنيا وما فيها

فهم المهدى أن يحقق رغبة أبى العتاهية ، وأن يدفع اليـه عتبة الجارية التى يحبها ويتشبث بها ، وأبت عتبة أن تفارق مولاتها الخيزران الى ذلك الشاعر بائع الجرار ، فقالت للمهدى : يا أمير المؤمنين ، مع حرمتى وحقى وخدمتى تدفعنى الى بائع جرار يكتسب الشعر ؟ واستدعى المهدى أبا العتاهيـة اليه ، ووضّح استحالة تحقيق طلبه الذى أشار اليه فى بيتيه ، وقال له : أما عتبة فلا سبيل لك اليها ، وقد أمرنا لك بملء البرنية مالا. وخرجت عتبة فوجدت أبا العتاهية يناقش موظفى القصر ، فقد أرادوا أن يملأوا البرنية بالدراهم ، وأصر أبو العتاهية على أن

---

(١) المسعودى : مروج الذهب ج ٣ ص ٣٢٦

يملأوها له بالدنانير ، وتألـّمت عتبة لانشغال أبى العتاهية عنها بالمال ، فقالت له : أما لو كنت عاشقا لعتبة لشغلت عن العين الورق ! [1] .

ونظم أبو العتاهية كثيرا من القصائد ، يتغزل فيهـا بعتبة جارية الخيزران ، ومن هذه القصائد تقتبس هذين البيتين :

يا عتب ما أنت الا ّ بدعــة خلقت
من غير طين ، وخــلق الطين
انى لأعجــب من حب يقــربنى
ممّن يباعدنى عنــه ويقصينى

واستمر أبو العتاهية على حب عتبة وعشقها . وحدث أن زوجة المهدى ريطة ابنة أبى العباس ، أرادت أن تشترى رقيقا للعتق . فقد كان من عادة وجوه المسلمين فى ذلك أن يشتروا رقيقــا ثم يعتقــوه تقربا الى الله تعــالى ، وتكفيرا عن بعض الذنوب . وكلفت ريطة بشراء الرقيق رجلا يـُدعى عبــد الله ابن مالك الخزاعى ، كما طلبت من عتبة أن تشرف على شرائهم ، وكانت عتبة جارية لها ثم أهدتها الى الخيزران الزوجة الثانية للمهدى . وعلم أبو العتاهية بالأمر ، فتنكر فى زى ناســك ، وقدم على عتبة ، فلم تفطن الى شخصيته الحقيقية ، فقــال أبو العتاهية : جعلنى الله فداك ، أنا شيخ ضعيف كبير لا يقوى على الخدمة ، فان رأيت أعزّك الله أن تأمرى بشرائى وعتــقى

(1) المسعودى : مروج الذهب جـ ٣ ص ٣٢٧

فعلت مأجورة . ورق قلب عتبة وقالت لعبد الله بن مالك الخزاعى : انى لأرى هيئة جميلة ، وضعفا ظاهرا ، ولسانا فصيحا ، ورجلا بليغا ، فاشتره واعتقه . ووافق عبد الله على طلبها . فقال أبو العتاهية : أتأذنين لى أصلحك الله فى تقبيل يدك ، شكرا لك على جميل فعلك وما أوليتنى . فأذنت عتبة له بذلك ، فقبَّل يدها وانصرف . وفطن عبد الله بن مالك الى حقيقة أبى العتاهية ، فضحك ، وقال لعتبة : أتدرين من هذا ؟ قالت : لا . قال : هذا أبو العتاهية ، وانما احتال عليك حتى قبَّل يدك . فسفرت وجهها خجلا وقالت : سوأة لك يا أبا العباس ، أمثلك يعبث ، انما اغتررنا بكلامك !! [1] .

هذا هو أبو العتاهية فى عهد الخليفة المهدى ، شابا عاشقا يتغزل ويتشبب بالحسان . حتى اذا تقدم فى العمر ، تطور شعره ، فأصبح يميل الى الزهد ، حتى أتى فى هذا الباب بما لم يُسبق اليه ، وزاد فى معانيه زيادة بشار وأبى نواس فى أدب اللهو والمجون . وأبو العتاهية فلسف الزهد ، وملأ الأدب العربى بالموت والتخويف منه ومما بعده ، واحتقار اللذة ، والجد فى الهرب منها ، وأصبح لشعره صبغة علمية دينية فلسفية .

ويرى المرحوم الأستاذ أحمد أمين [2] أنه كان فى نزعة أبى العتاهية عنصر مانوى ، ويستند على عبارة للصولى هى : « كان مذهب أبى العتاهية القول بالتوحيد ، وأن الله خلق

---

(١) المسعودى : مروج الذهب جـ ٣ ص ٣٢٩

(٢) ضحى الاسلام جـ ١ ص ١٩٥

جوهرين متضادين لا من شيء ، ثم انه بنى العالم هذه البِنية منهما ، وأن العالم حديث العين والصنعة لا محدث له الا الله . وكان يزعم أن الله سيرد كل شيء الى الجوهرين المتضادين قبل أن تفنى الأعيان جميعا ، وكان يذهب الى أن المعارف واقعة بقدر الفكر والاستدلال والبحث طباعا . وكان يقول بالوعيد ، وتحريم المكاسب ، يتشيع بمذهب الزيدية البترِيَّة المبتدعة لا ينتقص أحدا ، ولا يرى مع ذلك الخروج على السلطان وكان مجبرا » . ويرى الأستاذ أحمد أمين أن الشعر الدينى الذى كان يحمل لواءه — فى ذلك العصر — صالح بن عبد القدوس ، وأبو العتاهية ، فيه نزعة ثنوية كان ينزعها الفرس قديما . وقد سبق لنا أن تحدثنا عن مذهب المانوية الثنوية عند الفرس فى فصل (المهدى والزنادقة) فى كتابنا هذا .

بين المهدى وبشار بن برد :

كان المهدى يهتم بالشعر ، ويقرب اليه الشعراء ولكنه كان — كما مر بنا — يضع سلما البصرى ومروان بن أبى حفصة فى المقدمة .

وبشار بن برد ، رجل من فارس ، فتح باب التهتك على مصراعيه ، وسار شعره فى العراق . روى شعراء الغزل شعره ، وتكسبت به كل نائحة ومغنية ، وكانت النساء تأتيه فى بيته فيأخذن عنه شعره . قال سوّار بن عبد الملك ومالك بن دينار عن بشار : « ما شيء أدعى لأهل هذه المدينة (البصرة) الى الفسق

من أشعار هذا الأعمى » . وكان واصل بن عطاء يقول : « ان من أخدع حبائل الشيطان وأغواها لكلمات هذا الأعمى الملحد ! » . وقد حذا بعض الشعراء حذوه فى المجون والخلاعة ، مثل مطيع بن اياس ، وأبى نواس ، وظهر نوع من أنواع الأدب الداعر . وهذا نتيجة طبيعية لتطور المدنية ، فلما تقدمت بالناس حياتهم الاجتماعية وما يتبعها من ترف ، تقدم الشعر والأدب يسايران عيشة الترف والنعيم [1] .

قام بشار بن برد بدور كبير فى الصراع الاجتماعى فى المجتمع العباسى ، بين العناصر العربية ، والعناصر الفارسية ، فقد كانت الدولة الأموية دولة عربية قلبا وقالبا ، تعصبت للعناصر العربية واضطهدت الأجناس الأخرى ، مما جعلها تقف من الدولة الأموية موقفا عدائيا . وكان الفرس أبرز هذه الأجناس فى عدائهم للأمويين . فقد ظهرت بين الفرس نعرة جنسية ، وروح قومية ، وأرادوا احياء المجد الفارسى القديم ، وانضم الفرس الى كل خارج على طاعة الدولة الأموية ، ثم تعاونوا مع الأسرة العباسية حتى نجحت فى القضاء على الدولة الأموية ، وهكذا قامت الدولة العباسية على أكتاف الفرس . وعمل الخلفاء العباسيون على المساواة بين العرب والفرس ، وحفظ التوازن بينهما ، كما رأينا ، ولكن الفرس شعروا بفضلهم على العباسيين ، فاعتزوا بأنفسهم ، وبدأ صراع بين الفرس والعرب ، يسميه المؤرخون (الشعوبية) .

---

(١) ضحى الاسلام جـ ١ ص ١٩٢

وأقحم بشار نفسه فى تيار الشعوبية ، فقد كان فارسيا يتعصب لبنى جنسه ، ويشيد بالأمجاد الفارسية السالفة ، وبمذهبهم المانوى الثنوى البائد ، ولذا كان بشار يدعو الموالى الفرس الى نبذ ولائهم للعرب ، فيروى الأصفهانى فى كتابه (الأغانى) أن رجلا من بنى زيد شريف قال لبشار : يا بشار ، قد أفسدت علينا موالينا تدعوهم الى الانتفاء منا ، وترغبهم فى الرجوع الى أصولهم ، وترك الولاء ، وأنت غير زاكى الفرع ، ولا معروف الأصل ! فقال له بشار : والله لأصلى أكرم من الذهب ، ولفرعى أزكى من عمل الأبرار ، وما فى الأرض كلب يود أنّ نسبك له بنسبه !!

واستنكر رجل عربى أن ينظم بشار المولى الفارسى الشعر العربى ، فقال له : ما للموالى والشعر ؟ فأنشد بشار هذه الأبيات يهجو بها العرب :

أحين كُسيتَ — بعد العُرىِ — خزّاً
ونادمت الكرام على العُقار ؟
تفاخر يا ابن راعية وراع
بنى الأحرار ، حسبك من خسار !
تريغ بخطبة كسر الموالى
وينسيك المكارم صيد فار [1]

كان أهل خراسان هم عُدّة الجيش العباسى الذى قاده

(١) تريغ : تريد .

أبو مسلم الخراسانى ، وهزم به الجيش الأموى ، وقتل آخر الخلفاء الأمويين مروان بن محمد ، ولذا افتخر بشار بخراسان ، فقال :

وهجانى معشر كلهمو
حمق ، دام لهم ذاك الحمق
ليس من جرم ، ولكن غاظهم
شرفى العارض قد سدّ الأفق
من خراسان ، وبيتى فى الذّرى
ولدى المسعاة فرعى قد سمق [1]

وأوقع بشار الخليفة المهدى يوما فى موقف حرج ، فقد وقف فى مجلسه يفخر بالعجم ويقول :

ونبئت قوما بهم جنّة يقولون من ذا ؟ وكنت العلم
ألا أيها السائلى جاهدا ليعرفنى ، أنا أنف الكرم
نمت فى الكرام بنى عامر فروعى وأصلى قريش العجم

حار المهدى فيما يقوله لبشار ، فقد كان — كما رأينا — يعمل على حفظ التوازن بين طبقتى الفرس والعرب فى المجتمع العباسى ، وكان يدرك أن غالبية أهل العراق وخراسان من أصل فارسى . فاعتبر فخر بشار بأصله العجمى مسألة شخصية ، وتوجه بالسؤال الى بشار : من أى العجم أنت ؟ فأجاب : من أكثرها من الفرسان ، وأشدّها على الأقران ، أهل طخارستان !

---

(١) سمق سموقا : علا وطال .

ولكن المهدى وقف من بشار بن برد موقفا صارما . فقد تعالت صيحات الناس بالشكوى من بشار لغزله المكشوف ، وشعره الداعر . وضجّ الأشراف الى المهدى بالشكوى من شعره ، مثل يزيد بن منصور خال المهدى ، وطلبوا منه أن يقف هذا التيار لمّا خافوا على نسائهم وبناتهم ، فتدخل المهدى فى الأمر ، ونهى بشارا فى حزم عن الغزل ، وصوّر بشار ما أمره المهدى به فى شعره فأنشد :

قد عشت بين الريحان والراح والـ
مِزْهَر فى ظِلِّ مجلس حسن
وقد ملأت البلاد ما بين فغـ
فور الى القيروان فاليمن
شعرا تصلى له العواتق والثيـ
ب صلاة الغواة للوثن
ثم نهانى المهدى فانصرفت
نفسى صنيع الموفّق اللقن
فالحمد لله لا شريك له
ليس بباق شىء على الزمن

ولكن بشارا استمر فى غزله ، وان كان قد لزم الاعتدال ، وأخفى نواياه الخبيثة ، فقال :

يا منظرا حسنا رأيته	من وجه جارية فديته
بعثت الىّ تسومنى	ثوب الشباب وقد طويته
والله رب محمد	ما ان غدرت ولا نويته

أمسكت عنه وربما عرض البلاء وما ابتغيته
ان الخليفة قد أبى واذا أبى شيئا أبيته
ونهانى الملك الهما م عن النساء فما عصيته
بل وقد وفيت ، ولم أضع عهدا ولا وأيا وأيته

ولم يسلم الخليفة المهدى من لسان بشار ، فيروى الطبرى أن بشاراً كان قد هجا صالح بن داود بن طهمان أخا يعقوب ابن داود والى البصرة فقال :

هم حملوا فوق المنابر صالحا
أخاك فضجّت من أخيك المنابر

وعلم الوزير يعقوب بهذا الهجاء ، فدخل على المهدى فقال : يا أمير المؤمنين ان هذا الأعمى المشرك قد هجا أمير المؤمنين . فقال المهدى : ويلك وما قال ؟ فقال يعقوب : يعفينى أمير المؤمنين من انشاده ذلك . فأصر المهدى على أن ينشده هذا الشعر . فأنشد يعقوب بيتين وصف فيهما الخليفة بأنه يلهو ويزنى ، فأمر المهدى بعقابه « فوجه اليه من يلقيه فى البطيحة فى الخرارة » [1] .

وأتهم بشار بالزندقة فى عهد المهدى ، ولم يرض الخليفة عن زندقته ، فقد كان ــ كما شهدنا ــ شديدا على الزنادقة . ولمّا رحل المهدى الى البصرة ، وعلم بزندقة بشار ، أمر بالقبض

---

(١) الطبرى جـ ٦ ص ٤٠٢

عليه ، وطلب من حمدويه الذى كان يتولى ديوان الزنادقة أن يعاقبه ، وقال المهدى له : اضربه ضرب التلف [1] .

ويتهم المؤرخ أبو الفدا [2] بشار بن برد بالزندقة ، فيذكر فى حوادث سنة ١٦٦ هـ : « وفيها قُتل بشار بن برد الشاعر على الزندقة ، وكان أعمى خُلق ممسوح العينين ، ولمّا قُتل كان قد نيف على التسعين ، وكان بشار المذكور يفضل النار على الأرض ، ويصوّب رأى ابليس فى امتناعه من السجود لآدم عليه الصلاة والسلام » .

اهتمام المهدى بالموسيقى والغناء :

أحبّ العرب منذ فجر تاريخهم سماع الأنغام الشجية التى تهز النفوس ، وتحرّك المشاعر ، وكان العرب يحبون الانصات الى الغناء ويعتبرون أنه من سوء الأدب أن يتكلم أحدهم أثناء الغناء ، فقال شاعرهم :

لو كان لى أمــر قضيت قضــية
ان الحــديث مع الغنــاء حــرام

لم يشجع الخلفاء الراشدون الغناء ، لتغلب النزعة الدينية ، وانهماكهم فى تثبيت دعائم الدولة العربية الاسلامية ، وانشغالهم فى الفتوحات الاسلامية . فلمّا قامت الدولة الأموية فى دمشق بدأت تشجع الغناء والموسيقى ، وقد عقــد الخلفاء الأمويون

(١) الفخرى ص ١٦٤

(٢) أبو الفدا : المختصر فى أخبار البشر ج ٢ ص ١٠

مجالس خاصة لسماع أشهر المغنين فى عصرهم ، فكانوا ينشدونهم الأبيات موقعة على الألحان فيطربون لسماعها .

نال الغناء والموسيقى اهتماما من الخليفة المهدى ، باعتبارهما لونا من ألوان الفنون . فقد نعمت الدولة العباسية فى عهده بالهدوء ، وندرت الثورات والاضطرابات الداخلية ، وشعر رعايا الدولة العباسية فى عصره بالاستقرار والطمأنينة ، فقد مضت فترة على قيام الدولة وتخلصت من أعدائها ، وبدأت مرحلة من الاستقرار والرخاء الاقتصادى ، مما يؤدى الى نهضة أدبية وأخرى فنيّة . وكثرت الأموال فى أيدى الناس ، فبنوا القصور الفخمة ، وفرشوها بأجمل الرياش ، واشتروا الجوارى المغنيات والراقصات ، وازدحم الشعراء والموسيقيون والمطربون على أبوابهم ، وشغلوا أوقات فراغهم بالاستماع الى الموسيقى والغناء ومشاهدة الراقصات .

كان أبو العباس ، أول الخلفاء العباسيين ، رغم كثرة أعبائه ، وتوتر أحوال الدولة العباسية فى عهده ، يظهر للندماء فى مجلسه ، ثم احتجب عنهم ، كما كان يظهر سروره وابتهاجه لندمائه ومغنيه ، ويمنحهم العطايا والصلات ، ويقول : العجب ممن يُفرح انسانا فيتعجل السرور ، ويجعل ثواب من سرّه تسويفا وعِدة ، « فكان فى كل يوم وليلة يقعد فيه لشغله لا ينصرف أحد ممن حضره الا مسرورا » [1] .

---

(١) الجاحظ : التاج ص ٣٢

أما أبو جعفر المنصور ، فقد كان بطبعه جاداً في بلاطه ، لا يميل الى عبث أو لهو . وقد رأينا كيف غضب حينما سمع أحد غلمانه يعزف لجواريه على الطنبور ، فأمر حاجبه أن يكسر الطنبور على رأس هذا الغلام ، ثم أمر ببيعه . ولم يظهر المنصور لنديم قط ، ولم يره أحد يشرب غير الماء ، كما كان لا يثيب أحداً من ندمائه . روى الطبرى : « لم يُر في دار المنصور لهو قط ، ولا شيء يشبه اللهو واللعب والعبث ، الا نوما واحدا ، فانّا رأينا ابناً له يقال له عبد العزيز [1] ، وقد خرج على الناس متنكبا قوسا متعمما بعمامة ، مترديا برداء ، في هيئة غلام أعرابى ، راكبا على قعود ، بين جوالقين فيهما مقل ونعال : ومساويك وما يهديه الأعراب ، فعجب الناس من ذلك وأنكروه ، فعبر الغلام الجسر وأتى المهدى بالرصافة فأهدى اليه ذلك ، فقبل المهدى ما في الجوالقين ، وملأهما دراهم . وانصرف الغلام ، فعلم أنه ضرب من عبث الملوك [2] .

وكان المنصور لا يسرف في عطاء لمطرب أو شاعر أو مادح ، ويؤنب أولاده اذا أسرفوا في العطاء ، ولا يتغالى في ثوب يلبسه ، ولا مائدة تمد اليه ، انما هو مقتصد في كل ضروب الحياة .

ولذا كانت خلافة المهدى ، مرحلة انتقال بين هذه المغالاة في التقشف والتقتير ، وبين الانطلاق والاسراف في عهد خلفائه ،

---

(١) توفى عبد العزيز بن المنصور في سن مبكرة .

(٢) الطبرى جـ ٣ ص ٣٧٠

فالمهدى أكثر انطلاقا من أبيه المنصور ، وأقل انطلاقا من ابنه هارون الرشيد .

ولمّا تولى المهدى الخلافة « كان فى أول أمره يحتجب عن الندماء تشبيها بالمنصور نحواً من سنة ، ثم ظهر لهم ، فأشير عليه أن يحتجب ، فقال : انما اللذة مع مشاهدتهم »[1] .

اجتمع فى المهدى حب للفنون الجميلة ، وميل شديد الى الكرم ، فجرى الناس على أثره ، وأنفقوا الأموال على الفنانين ، فظهرت نهضـــة فنية فى عصره ، وبدأ الفن يعـــرف طريقه الى طبقات الشعب المختلفة .

جلس المهدى للمغنين يستمع الى غنائهم وألحانهم ، بعد أن كان أبوه المنصور لا يطرب الا للحداء . وتحدث الأصفهانى فى كتابه الأغانى عن استماع المهدى لجميع المغنين فى عصره ، فكانوا يحضرون مجلسه فيغنونه من وراء الستار ، لا يرون له وجها ، عدا المغنّى فليح بن أبى العوراء ، فقد سأله فى بيتين أن ينادمه فأحضره مجلسه بين أهله ومواليه « فكان فليح أول من عاين وجهه فى مجلسهم »[2] .

أغدق المهدى على المغنين عطاياه وصلاته على عكس أبيه ، « فقد كان المنصور لا يثيب أحدا من ندمائه وغيرهم درهما ، فيكون له رسما فى ديوان ، ولم يقطع أحدا ممن كان يضاف الى ملهية أو ضحك أو هـــزل ، موضع قدم من الأرض . أما

---

(١) السيوطى : تاريخ الخلفاء ص ٢٧٧

(٢) الأصفهانى : الأغانى جـ ٤ ص ٩٩

المهدى فكان كثير العطايا يواترها ، قلّ من حضره الا أغناه ».
وحسبك بالمهدى أن تخرّج فى قصره ولداه زينة الدنيا ، وبهجة عصرهما فى الظرف والغناء ، ابراهيم بن المهدى ، وعُليّة بنت المهدى [1] .

وصف (المدور) فى كتابه (حضـارة الاسـلام فى دار السلام) [2] مجلس المهدى ، وتحدث عن مستوى الغناء فى عصره فقال : وكان المهدى اذا اتخذ له مجلسا بداره ضرب للمغنين ستارة يجلسون وراءها فى صفوفهم بحيث لا يرونه الا فليح ابن أبى العوراء ، وهو أوضح الناس غناء وأعرفهم بالألحان والأصوات ، وان هو لم يكن أحسنهم صوتا ، فانما يحسن الغناء عند من يُشبع الألحان ، ويملأ الأنفاس ، ويعدل الأوزان ، ويفخّم الألفاظ ، ويعرف الصواب ، ويقيم الأعراب ، ويستوفى النغم الطوال ، ويحسن مقاطيع النغم القصار ، ويصيب أجناس الايقاع ، فهو يُحسن ذلك كله لمحلّه الجليل من هذه الصناعة ، وليس له فيها شريك الا مغنٍّ آخر يقال له عطرد ، قد أدرك دولة الأمويين فى آخر حكمهم ، وأمّا من سواهما من المغنين فليس لهم فى الصناعة ما للمتقدمين من الفرس ، وأنا لا أعيب ذلك عليهم لأن الزمن الذى مضى عليهم فى صدر الدولة كان مضرجا بدماء الحروب ، فانصرف الخلفاء عن النظـر فى مطالب

---

(١) ضحى الاسلام جـ ١ ص ١١٢
(٢) ص ٧٧

اللهو والترف الى التماس الأسباب التى يؤيدون بها ملكهم من الحكمة والسياسة .

وكانت بعض مجالس المهـدى تعقد فى فصل الصيف فى بستان القصر ، وقد وصف وزير المهدى ، يعقوب بن داود ، هذا المجلس فقال : « بعث الىّ المهـدى يوما فدخلت عليه ، فاذا هو فى مجلس مفروش بفرش موّد متناهفى السرو على بستان فيه شجر ورءوس الشجر مع صحن المجلس ، وقد اكتسى ذلك الشجر بالأوراد والأزهار من الخوخ والتفاح ، فكان ذلك موردا يشبه فرش المجلس الذى كافيه ، فمـا رأيت شـيئا أحسن منه »[1] .

تناهى الى أسـماع المهدى ما اشـتهر به المغنى ابراهيم الموصلى من جمال الصوت واجادة الغنـاء ، فاستقدمه اليه ، وقرّبه ، وكان المهدى أول من رفع من شأنه . ثم علم المهدى أن الموصلى يشرب ويستهتر ، فطلب المهدى من الموصلى أن يتخلّى عن استهتاره اذا حرص على ملازمته ، وأخفق الموصلى فى تنفيذ ما أشار به المهدى عليه ، مما أثار غضب الخليفة فأمر بضربه وحبسه .

روى ابراهيم الموصلى قصته مع المهدى فقال : ان المهدى دعانى يوما فعاتبنى على شربى فى منازل الناس والتبذل معهم . فقلت : يا أمير المؤمنين انما تعلمت هذه الصناعة للذّتى وعشرتى

---

(١) الطبرى ج ٦ ص ٣٨٤

لاخوانى ، ولو أمكننى تركها لتركتها وجميع ما أنا فيه لله عزّ وجل . فغضب المهدى غضبا شديدا وقال : لا تدخل على موسى وهارون البتّة ، فوالله لئن دخلت عليهما لأفعلن وأصغن ! فقلت نعم . ثم بلغه أنى دخلت عليهما وشربت معهما ، وكانا مستهترين بالنبيذ ، فضربنى ثلاثمائة سوط ثم قيدنى وحبسنى [1] .

وهكذا ، كان المهدى يحب الاستماع الى الغناء ، ولكنه لم يُغرق فى اللهو ، وقد رأيناه يعاقب ابراهيم الموصلى لأنه لم يكف عن استهتاره وشربه الخمر . وكان المهدى يعتبر الغناء لونا من ألوان الفنون ، وليس من وسيلة للعبث أو اللهو .

روى الطبرى [2] قصة عن المهدى تبين اهتمامه بالموسيقى ، فقد كان المهدى فى رحلة الى بيت المقدس ، فعرض لموكبه رجل يدعى حكم الوادى ، أخرج دفّا له يضربه ، وقال : أنا القائل :

فمتى تخرج العـــرو س فقد طال حبسها
قد دنا الصبح أو بدا وهى لم تقض لبسها

وحاول حرس الخليفة ابعاد هذا الرجل ، فصاح المهدى فيهم أن يكفوا ، وسأل عنه فقيل حكم الوادى ، فأدخله اليه ووصله » .

(١) الأصفهانى : الأغانى جـ ٥ ص ٥
(٢) الطبرى جـ ٦ ص ٤٠٤

المهدى : أسرته ، شخصيته

الأسرة العباسية :

تنتمى الأسرة العباسية الى العبـــاس بن عبد المطلب ، عم الرسول صلى الله عليه وسلم ، وكان من وجوه قريش وأثريائهم ، وقد تولى أمر سقاية الحجاج فى مكة . ومن أبرز أبناء الأسرة العباسية فى عهد الخلفاء الراشدين ومطلع العصر الأموى عبد الله ابن العباس ، وقد آثر الابتعاد عن السياسة ، واشتغل بالدين والعلم ، وبايع لمعاوية بن أبى سفيان بالخلافة فى سنة ٤٠ هـ ، وهو عام الجماعة ، الذى اجتمعت فيه كلمة المسلمين على اختيار معاوية ، لوضع حدٍّ للحروب الأهلية . وأصبح عبد الله عضوا بارزا فى جماعة أبناء الصحابة فى الحجاز ، وكانت تضم الحسين ابن على وعبد الله بن الزبير وعبد الله بن عمر وعبد الرحمن ابن أبى بكر وغيرهم . وأرغم معاونة ابن عباس وأبناء الصحابة على البيعة لابنه يزيد بولاية العهد . ولمَّا تولى يزيد الخلافة ، طلب البيعة من أبناء الصحابة ، فبايعه ابن عباس ، بينما امتنع الحسين وابن الزبير . ولمّـــا أراد الحسين الخروج الى الكوفة ليتبايع له أهلها بالخلافة ، تقدم ابن عباس له بالنصيحة ، فأشار

عليه بالبقاء فى الحجاز وذكره بتخاذل أهـل الكوفة عن أبيه وأخيه [1] .

وكان عبد الله بن عباس عضوا بارزا فى الأسرة الهاشمية ، ولم تكن قد تفرعت بعد الى الفرع العلوى والفرع العباسى . وكان استشهاد الحسين بن على فى كربلاء فى عهد الخليفة الأموى يزيد بن معاوية ضربة عنيفة أصابت الحزب الهاشمى ، فقد فقدَ هذا الحزب زعيمه وقائده . وكان باقى زعمائه مثل ابن عباس وعبد الله بن جعفر بن أبى طالب ومحمد بن على بن أبى طالب (المعروف بابن الحنفية) زاهدين فى الخلافة . ولمَّـا بايع ابن الزبير لنفسه بالخلافة ، وقف ابن عباس منه موقفا سلبيا ، فلم يعلن تأييده له . وحمد يزيد بن معاوية لابن عباس امتناعه عن تأييد ابن الزبير ، فبعث اليه كتابا يشكره فيه على موقفه من ابن الزبير ، وقد ظن أن ذلك طاعة له . ولكن امتناع ابن عباس عن تأييد ابن الزبير لم يكن ولاء منه ليزيد ، فقد كان مقتنعا بأحقية بنى هاشم دون غيرهم بالخلافة ، ولذا بعث برسالة الى يزيد يخبره فيها أنه فى غنى عن ثنائه عليه ، وذكره فى آخر رسالته أنه قتل الحسين بن على [2] .

بدأت الدعوة العباسية فى سـنة ١٠٠ هـ فى عصر الخليفة الأموى عمر بن عبد العزيز ، وقام بها الامام محمد بن على بن

---

(١) ابن كثير : البداية والنهاية جـ ٨ ص ١٦٠

(٢) انظر تاريخ اليعقوبى جـ ٢ ص ٢٢٠ وكتابنا (عبد الله بن الزبير) ص ١٥٨

عبد الله بن العباس ، بعد أن ركن العلويون الى الهدوء بعد اخفاق ثوراتهم . ورأى الامام محمد أن يمهد الأذهان ويعد النفوس لنقل الخلافة من الأمويين الى العباسيين ، فطلب من دعاته أن تكون دعوة الناس الى البيعة للرضا من آل بيت الرسول دون تحديد . ويمكن تقسيم الدعوة العباسية الى قسمين : الأول ويبدأ فى مستهل القرن الأول للهجرة ، وينتهى بانضمام أبى مسلم الخراسانى ، وكانت الدعوة فى هذا الدور خالية من أساليب العنف والشدة ، اذ كان الدعاة يجوبون البلاد الاسلامية ، متظاهرين بالتجارة أو أداء فريضة الحج . ويبدأ الدور الثانى بانضمام أبى مسلم الخراسانى الى الدعوة العباسية ، وهنا يدخل النزاع بين الأمويين والعباسيين فى دور العمل ، وهو دور الحروب التى انتهت بزوال الدولة الأموية[1] .

مات الامام محمد بن على العباسى سنة ١٢٥ هـ ، فحمل لواء الدعوة العباسية ابنه ابراهيم ، وفى عهده بدأ الصدام الحربى بين العباسيين والأموين . ونجح الأمويون فى القبض على الامام ابراهيم وسجنوه فى حران ثم قتلوه . وانتقلت الأسرة العباسية الى الكوفة (صفر ١٣٢ هـ) واختفوا عن الأنظار حتى طلب أتباعهم منه أن يخرجوا للناس ويأخذوا البيعة ، فاستجابوا لهم ، وتمت البيعة بالخلافة لأبى العباس بن ابراهيم ، رغم أن أخاه أبا جعفر المنصور كان أكبر سنا ، لأن أم أبى العباس عربية . ثم نجح أبو مسلم الخراسانى فى القضاء

---

(١) حسن ابراهيم : تاريخ الاسلام ج ٢ ص ١٣

على الدولة الأموية وقتل مروان بن محمد آخر خلفائها ، فبدأت خلافة أبى العباس الحقيقية فى ٣ من شهر ربيع الأول سنة ١٣٢ هـ .

أسرة المهدى :

وُلد محمد المهدى فى سنة ١٢٦ هـ فى الحميمة من أرض الشراه ، وأبوه هو أبو جعفر المنصور ، وأمه أروى بنت منصور ابن عبد الله الحميرى ، من العرب اليمنيين الحميريين . وكان عمر المهدى عند قيام الدولة العباسية ست سنوات . ولما تولى أبوه المنصور الخلافة كان عمره عشر سنوات . وأعدّ المنصور ابنه — كما رأينا — ليتولى الخلافة بعده ، فولاّه اخماد الثورات فى خراسان سنة ١٤١ هـ ، وكان عمره حينئذ ١٥ سنة ، ثم أمره بغزو طبارستان . وعاد الى بغداد سنة ١٤٤ هـ حيث تزوج من ريطة بنت أبى العباس . وفى سنة ١٤٧ هـ ولاه المنصور ولاية العهد وقدمه على عيسى بن موسى . ثم عاد المهدى الى الرى بخراسان فأقام حاكما لها حتى سنة ١٥١ هـ . حتى اذا عاد بنى المنصور له ولجنده مدينة الرصافة على الجانب الشرقى من بغداد . ثم ولاه المنصور امارة الحج سنة ١٥٣ هـ . وفى سنة ١٥٥ هـ أسس مدينة الرافقة على طراز مدينة بغداد . واشترك المهدى فى مهام الدولة ، حتى مات المنصور ، فتولى الخلافة فى ٦ من ذى الحجة سنة ١٥٨ هـ (٧ أكتوبر سنة ٧٧٥ م) .

كانت ريطة بنت أبى العباس الزوجة الأولى للمهدى ،

تزوجها وهو فى الثامنة عشرة من عمره . ثم تزوج من الخيزران ، وكانت فى الأصل جارية يمانية ، وأنجب منها ابنيه موسى الهادى وهارون الرشيد اللذين توليا الخلافة بعد أبيهما المهدى على التوالى . وفى ذلك يقول السيوطى [1] : « لا تعرف امرأة ولدت خليفتين الا الخيزران أم الهادى والرشيد ، وولادة بنت العبسية زوج عبد الملك بن مروان ، ولدت الوليد وسليمان ، وشاهفرند بنت فيروز بن يزدجرد بن كسرى ، ولدت للوليد بن عبد الملك يزيد الناقص وابراهيم ، ووليا الخلافة » وكان للخيزران نفوذ كبير فى عصر المهدى ، فكان يقصدها طلاب الحاجات ، لتتوسط لهم عند المهدى ، مما سنفصله بعد قليل فى هذا الفصل .

ومن أبرز أولاد المهدى — غير موسى الهادى وهارون — ابراهيم ومنصور . وقد قاما بدور كبير فى عهد الخليفة المأمون ابن هارون الرشيد . فقد أراد المأمون تحويل الخلافة من البيت العباسى الى البيت العلوى ، فبايع زعيم العلويين (على رضا) بولاية العهد ، وأمر الناس بطرح السواد شعار العباسيين واستبداله بالخضرة شعار العلويين ، مما أدى الى غضب البيت العباسى ، فبايع لابراهيم بن المهدى بالخلافة . وكان المأمون حينئذ فى مرو بخراسان ، وشعر بخطورة الموقف ، فهرع بجيشه الى بغداد ، واضطر ابراهيم الى الفرار ، ولكن جند المهدى نجحوا فى القبض عليه ، ثم عفا المأمون عنه وقربه اليه [2].

---

(١) السيوطى : تاريخ الخلفاء ص ٢٨١

(٢) السيوطى : تاريخ الخلفاء ص ٢٠٥

ولكن ابراهيم بن المهدى لم يتحول عن عدائه للمأمون ، فقد قامت ثورة جديدة تزعمها أحد العباسيين ، وهو ابراهيم ابن محمد بن عبد الوهاب بن ابراهيم الامام ، واشتهر باسم ابن عائشة ، ودبَّر ابن عائشة مؤامرة لاغتيال المأمون تمهيدا للبيعة لابراهيم بن المهدى . ونجح المأمون فى القبض على ابن عائشة ثم قتله وصلبه . كما قبض على ابراهيم بن المهدى وهو متزىّ بزى امرأة ، وتعمَّد المأمون أن يراه سائر بنى هاشم والقواد والجند وهو فى هذه الملابس النسائية ، وتوسل ابراهيم للمأمون أن يعفو عنه ، فاستجاب له وعفا عنه ، فكبَّر ابراهيم ثم خرَّ ساجدا ، ونظم قصيدة رائعة فى مدح المأمون ، فقد كان شاعرا مجيداً ، أشاد فيها بكرمه لعفوه عنه ، واعتذر فيها عن أخطائه . ويُعتبر ابراهيم بن المهدى من ظرفاء ذلك العصر وشعرائهم .

أما هارون الرشيد بن المهدى ، فيعتبره المؤرخون من أشهر الخلفاء العباسيين ، ويعتبرون عصره من العصور الذهبية للدولة العباسية . وتحدث ابن طباطبا [1] عن الرشيد فقال : « كان الرشيد من أفاضل الخلفاء وفصحائهم وعلمائهم وكرمائهم ، كان يحج سنة ويغزو سنة ، كذلك مدة خلافته الا سنين قليلة ، وكان يصلى فى كل يوم مائة ركعة ، وحج ماشيا ولم يحج خليفة ماشيا غيره ، وكان اذا حج حج معه مائة من الفقهاء وأبناؤهم ، واذا لم يحج أحج ثلاثمائة رجل بالنفقة السابغة والكسوة الظاهرة » .

---

(١) الفخرى ص ١٧٥

لم تدم خلافة موسى الهادى سوى سنة وثلاثة أشهر ، ثم خلفه أخوه هارون الرشيد . ولذا نعتبر عهد الرشيد امتدادا لعهد أبيه المهدى ، فقد ورث الرشيد دولة راسخة الأسس ، عظيمة المهابة ، كثيرة الأموال ، فأكمل رسالة أبيه ، وجنى ثمار جهوده .

بين المهدى وابنه الهادى :

كان موسى الهادى أكبر أولاد المهدى ، وقد ولاّه أبوه عهده ، وعهد لهارون بالخلافة من بعده . ثم فكر المهدى فى تقديم الرشيد على الهادى ، بسبب إيثاره اياه ، ومشاركة أمه الخيزران له فى محبته ، لولا أن مات قبل أن يضع مشروعه موضع التنفيذ .

وصف المسعودى [1] موسى الهادى فقال : « كان موسى قاسى القلب ، شرس الأخلاق ، صعب المرام ، كثير الأدب محبا له . وكان شديدا شجاعا جوادا سخيا » . ووصفه ابن طباطبا [2] فقال : « كان الهادى متيقظا غيورا كريما شهما ايداً شديد البطش جرىء القلب مجتمع الحس ذا اقدام وعزم وحزم » . وتحدث السيوطى [3] عنه فقال : « قال الذهبى : وكان يتناول المسكر ، ويلعب ، ويركب حمارا فارها ، ولا يقيم أبهة الخلافة ،

---

(١) مروج الذهب ج ٣ ص ٣٣٥
(٢) الفخرى ص ١٧١
(٣) تاريخ الخلفاء ص ٢٧٩

وكان مع ذلك فصيحا ، قادرا على الكلام ، أديبا ، تعلوه هيبة ، وله سطوة وشهامة . وقال غيره : كان جبّاراً ، وهو أول من مشت الرجال بين يديه بالسيوف المرهفة ، والأعمدة ، والقسيّ الموترة ، فاتبعه عمّاله به فى ذلك ، وكثر السلاح فى عصره » . ويبدو أن الهادى قد اكتسب هذه الصفات نتيجة قضائه أكثر أيامه فى الغزو والحرب .

عمل المهدى على أن يعد ابنه موسى الهادى للخلافة ، كما أعده أبوه المنصور من قبل لهذا المنصب الخطير ، وكان المهدى عند حُسن ظن أبيه . وأراد المهدى أن يكون ابنه الهادى جديرا بأن يقدمه على عيسى بن موسى فى ولاية العهد ، وقد مرّ بنا ما بذله المهدى من جهود كثيرة فى سبيل ارغام أو اقناع عيسى بالتنازل عن حقه فى ولاية العهد . ولكن الهادى خيّب ظن أبيه فيه ، فانصرف الى شرب الخمر ، وقضى معظم وقته مع الندماء ، مما أثار غضب المهدى عليه ، فبدأ يفكر فى تقديم أخيه الأصغر هارون عليه فى ولاية العهد ، لولا أن عاجلته منيّته .

صور المؤرخ ابن طباطبا محاولات المهدى المتكررة لاثناء ابنه الهادى عن الطريق الذى اختاره الهادى للسير فيه ، ولم يستمع لنصائح أبيه المهدى ، فقال : « حدّث عبد الله بن مالك ، وكان يتولى شرطة المهدى ، قال : كان المهدى يأمرنى بضرب ندماء الهادى ومغنيه وحبسهم صيانة له عنهم ، فكنت أفعل ما يأمرنى به المهدى. وولى الهادى فأيقنت بالتلف . فاستحضرنى يوما فدخلت عليه وهو جالس على كرسى والسيف والنطع بين

يديه ، فسلّمت . فقال : لا سلّم الله عليك ، أتذكر يوم بعثت اليك فى أمر الحرّانى وضربه فلم تقبل قولى ، وكذلك فعلت فى فلان وفلان ــ وعدّد ندماءه ــ فلم تلتفت الى قولى ! قلت : نعم ، أفتأذن فى ذكر الحجة . قال : نعم . قلت : ناشدتك الله لو أنك قلدتنى ما قلدنى المهدى وأمرتنى بما أمر فبعث الى بعض بنيك بما يخالف أمرك فاتبعت قوله وتركت قولك أكان يسرّك ذلك ؟ قال : لا . قلت : فكذلك أنا لك وكذلك كنت لأبيك . فاستدنانى فقبلت يده ، ثم أمر لى بالخلع . وقال : ولّيتك ما كنت تتولاه فامض راشدا . فمضيت مفكرا فى أمرى وأمره . وقلت حدث يشرب والقوم الذى عصيته فى أمرهم هم ندماؤه ووزراؤه وكتّابه ، وكأنى بهم حين يغلب الشراب عليه يغلبون على رأيه ويحسنون له هلاكى » .

اقتدى الهادى بما فعله أبوه المهدى مع عيسى بن موسى ، وعزم على خلع أخيه هارون والبيعة لابنه جعفر ، وشجعه على ذلك رجال بلاطه . ولكن يحى بن خالد بن برمك نصح له بأن يعدل عن هذا الأمر ، لصغر سن ابنه جعفر ، واحتراما للعهد الذى أخذه على نفسه حين ولاه أبوه عهده ، ودرءا لما عسى أن يقوم به أهل بيته من انتزاع الخلافة من ابنه اذا آلت اليه قبل بلوغه سن الرشد ، وأشار عليه أن يتريث فى هذا الأمر حتى يكبر ابنه ويطلب من أخيه هارون النـزول له عن الولاية . ولكن الهادى لم يستمع الى هذه النصيحة ، وأمر بسجن يحيى البرمكى .

أما هارون ، فكان يميل الى اجابة أخيه بعد أن ضيّق عليه واضطهده ، وحط رجال بلاط الهادى من شأنه ، فأشار عليه يحيى البرمكى أن يستأذن أخاه فى السفر طلبا للصيد ، فأذن له ، وطال غيابه حتى أخذ الهادى يُلحّ عليه فى العودة ، ويبالغ فى تحقيره واهانته ، وهو ينتحل من الأعذار ما يطيل بقاءه ، حتى أتاه نعيه والبيعة له .

ذهب بعض المؤرخين الى القول بأن عَزْم الهادى على اخراج هارون من ولاية العهد ، دفع بأمه الخيزران الى السعى فى موته ، وان كنا نشك فى ذلك . على أن مما يسترعى النظر ، أن العداء كان مستحكما بين الهادى وأمه ، وأن هذا العداء قد ظل على شدته الى يوم وفاته ، حتى ذهب بعض المؤرخين الى القول بأن أمّه دست بعض جواريها لقتله ، ذلك أن الخيزران كانت لها الكلمة النافذة فى عهد المهدى ، فكانت تأمر وتنهى حتى كان الناس يتوافدون على دارها ، ويلجأون اليها لقضاء حاجاتهم [١] .

تحدث المؤرخ السيوطى [٢] عن العلاقات بين الهادى وأمه الخيزران فقال : « مات ــ أى الهادى ــ فى ربيع الآخر سنة سبعين ومائة ، واختلف فى سبب موته ، فقيل : انه دفع نديما له من جرف على أصول قصب بعد قطع ، فتعلق النديم به فوقع ، فدخلت قصبة فى منخره ، فماتا جميعا . وقيل : أصابته قرحة فى

---

(١) حسن ابراهيم : تاريخ الاسلام جـ ٢ ص ٤٣

(٢) السيوطى : تاريخ الخلفاء ص ٢٨٠

جوفه ، وقيل سمّته أمه الخيزران لما عزم على قتـل الرشيد ليعهد الى ولده ، وقيل : كانت أمه حاكمة مسـتبدّة بالأمور الكبار ، وكانت المواكب تغدو الى بابها ، فزجرهم عن ذلك ، وكلّمها بكلام وقح ، وقال : لئن وقف ببابك أمـير لأضربن عنقه ، أما لك مغزل يشغلك ، أو مصحف يذكرك ، أو سبحة ؟ ! فقامت ما تعقـل من الغضب ، فقيل : انه بعث اليها بطعـام مسموم ، فأطعمت منه كلبا ، فانتثر ، فعملت على قتله لما وعك بأن غمّوا وجهه ببساط جلسوا على جوانبه ، وخلّف سبعة بنين » .

الخيزران زوجة المهدى :

كانت الخيزران جارية يمانية جُرَشيّة من جوارى الخليفة المهدى ، أعجب بها ، فأعتقها وتزوجها ، وأنجب منها وليّه موسى الهادى وهارون الرشيد . ونالت حظوة لدى المهدى ، مما جعل زوجته الأولى ريطة بنت أبى العباس تتقرب اليهـا وتهديها بعض جواريها .

وأدرك الكثيرون منزلة الخيزران عنـد زوجها المهـدى ، فكانوا يقصدونها لتتوسط لهم لدى المهدى لقضاء حوائجهم ، وكان المهدى يستجيب لطلبها لمنزلتها عنده . وأصبح قصرها قبلة الأنظار ، ومقصد الناس . حتى اذا توفى المهـدى وتولى ابنها الهادى ، أرادت أن تحتفظ بما وصـلت اليه من مكانة ونفوذ ، ولكن الهادى كان غيورا على نسائه ، فنهاها وزجرها

فى قسوة ، مما لم تشهده فى عهد المهدى ، وحدث صدام بين الأم وابنها ، مما أدّى ــ كما رأينا ــ الى محاولة كل منهما للتخلص من الآخر . وتحدث الطبرى عن منزلة الخيزران عند المهدى فقال : « وكانت الخيزران فى أول خلافة موسى تفتات عليه فى أموره ، وتسلك به مسلك أبيه من قبله فى الاستبداد بالأمر والنهى »[1] .

روى المسعودى[2] قصة تبيّن ما كان للخيزران من منزلة عند زوجها الخليفة المهدى ، واستجابته لمطالبها ورجائها ، وهذه الرواية تعطينا صورة لحياة النساء فى قصر المهدى . فروى : «وكانت الخيزران أم الهادى والرشيد فى داره المعروفة بأشناس، وعندها أمهات أولاد الخلفاء ، وغيرهن من بنات بنى هاشم ، وهى على بساط أرمنى ، وهن على نمارق أرمنية ، وزينب بنت سليمان بن على أعلاهن مرتبة ، فبينا هن كذلك اذ دخل خادم لها ، فقال : بالباب امرأة ذات حسن وجمال فى أطمار رثة تأبى أن تخبر باسمها وشأنها غيركن ، وتروم الدخول عليكن .

وقد كان المهدى تقدّم الى الخيزران بأن تلزم زينب بنت سليمان بن على ، وقال لها : اقتبسى من آدابها ، وخذى من أخلاقها ، فانها عجوز لنا قد أدركت أوائلنا .

فقالت الخيزران للخادم : ائذن لها . فدخلت امرأة ذات بهاء وجمال فى أطمار رثة ، فتكلمت فأوضحت عن بيان على لسان ،

---

(١) الطبرى جـ ٦ ص ٤٢١

(٢) المسعودى : مروج الذهب جـ ٣ ص ٣٢٣ ــ ٣٢٤

فقالوا لها : من أنت ؟ قالت : أنا مزنة امرأة مروان بن محمد ، وقد أصارني الدهر الى ما ترين ، ووالله ما الأطمار الرثة التى علىّ الا عارية ، وانكم لمّا غلبتمونا على هذا الأمر وصار لكم دوننا لم نأمن مخالطة العام على ما نحن فيه من الضرر على بادرة الينا نزيل موضع الشرف ، فقصدناكم لنكون فى حجابكم على أية حالة كانت ، حتى تأتى دعوة من له الدعوة .

فاغرورقت عينا الخيزران ، ونظرت اليها زينب بنت سليمان ابن على ، فقالت لها : لا خفّف الله عنك يا مزنة ، أتذكرين وقد دخلتُ عليك بحرّان وأنت على هذا البساط بعينه ، ونساء قرابتكم على هذه النمارق ، فكلمتك فى جثة ابراهيم الامام ، فانتهرتنى وأمرت باخراجى ، وقلتِ (ما للنساء والدخول على الرجال فى آرائهم ؟) فوالله لقد كان مروان أرعى للحق منك ، لقد دخلت اليه فحلف أنه ما قتله ، وهو كاذب ، وخيّرنى بين أن يدفنه أو يدفع الىّ جثته ، فاخترت جثته ، وعرض علىّ مالا فلم أقبله !

فقالت مزنة : والله ما نظن هذه الحالة أدتنى الى ما ترينه الا بالفعال التى كانت منى ، وكأنك استحسنته ، فحرّضت الخيزران على فعل مثله ، انما كان يجب أن تحضّيها على فعل الخير وترك المقابلة بالشر ، لتحرز بذلك نعيمها ، وتصون بها دينك . ثم قالت لزينب : يا بنت عم ، كيف رأيت ضيع الله بنا فى العقوق ، فأحببت التأسى بنا ؟

ثم ولّت باكية ، وكرهت الخيزران أن تخالف زينب فيها ،

فغمزت الخيزران بعض جواريها ، فعدلت بها الى بعض المقاصير ، وأمرت بتغيير حالها ، والاحسان اليها .

فلما دخل المهدى عليها ، وقد انصرفت زينب ، وكان من شأنه الاجتماع مع خواص حرمه فى كل عشية ، قصت الخيزران عليه قصتها ، وما أمرت به من تغيير حالها ، فدعا بالجارية التى ردتها ، فقال لها : لما رددتها الى المقصورة ما الذى سمعتها تقول ؟ قالت : لحقتها فى الممر الفلانى وهى تبكى فى خروجها مؤتسية ، وهى تقرأ (وضرب الله مثلا قرية كانت آمنة مطمئنة يأتيها رزقها رغدا من كل مكان فكفرت بأنعم الله فأذاقها الله لباس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون) .

ثم قال المهدى للخيزران : والله والله لو لم تفعلى بها ما فعلت ما كلمتك أبدا . وبكى بكاء كثيرا ، وقال : اللهم انى أعوذ بك من زوال النعمة . وأنكر فعل زينب ، وقال : لولا أنها أكبر نسائنا لحلفت ألاّ أكلمها . ثم بعث اليها بعض الجوارى الى مقصورتها التى أخليت لها ، وقال للجارية : اقرئى عليها السلام منّى وقولى لها (يا بنت عم ان أخواتك قد اجتمعن عندى ولولا أنى أغمك لجئناك) . فلمّا سمعت الرسالة علمت مراد المهدى .

وقد حضرت زينب بنت سليمان ، فجاءت مزنة تسحب أذيالها ، فأمرها بالجلوس ، ورحّب بها واستدناها ، ورفع منزلتها فوق منزلة بنت سليمان بن على ، ثم تفاوضوا أخبار

أسلافهم ، وأيام الناس ، والدول وتنقلها ، فما تركت لأحد فى المجلس كلاما .

فقال لها المهدى : يابنت عم ، والله لولا أنى لا أحب أن أجعل لقوم أنت منهم من أمرنا شيئا لتزوجتك ، ولكن لا شيء أصون لك من حجابى ، وكونك مع أخواتك فى قصرى ، لك ما لهن ، وعليك ما عليهن ، الى أن يأتيك أمر من له الأمر فيما حكم به على الخلق . ثم أقطعها مثل ما لهن من الاقطاع ، وأخدمها وأجازها ، فأقامت فى قصره الى أن قبض المهدى وأيام الهادى وصدراً من أيام الرشيد ، وماتت فى خلافته ، لا يفرق بينها وبين نساء بنى هاشم ، وخواص حرائرهم وجواريهم ، فلما قبضت جزع الرشيد والحرم جزعا شديدا » .

وهذه الرواية تصور عطف الخيزران على أعدائها ، وكرم أخلاقها ، كما تثبت ما كان عليه المهدى من تسامح وشعور انسانى ، فقد أبدى عطفا وحدبا على هذه المرأة التى تنتسب الى أعدائه بنى أمية .

مدح شاعر المهدى ، مروان بن أبى حفصة ، الخيزران بكثير من القصائد ، نذكر منها هذا البيت :

يا خيزران هنَاكِ ثم هناكِ   أمسى يسوس العالمين ابناكِ

أنجبت الخيزران ابنها موسى الهادى فى سنة ١٤٤ هـ ، وقد تولى العهد وعمره ١٦ سنة . وأنجبت الخيزران ابنها هارون لثلاث بقين من شهر ذى الحجة سنة ١٤٥ هـ . وقد ولد الفضل ابن يحيى البرمكى قبله بسبعة أيام ، فأرضعت أم الفضل

وأرضعت الخيزران الفضل بلبان الرشيد . وأنشد
بى حفصة فى ذلك هذين البيتين :

كفى لك فخـرا أنّ أكرم حـرة
غذتك بثدى والخليفة واحـد
لقد زِنتَ يحيى فى المشاهد كلها
كما زان يحيى خالدا فى المشـاهد

وقامت الخيزران بدور كبير فى الصراع الذى كان قائما بين العرب والفرس فى خلافة ابنها الرشيد . فقد كان الرشيد يميل كثيرا الى تولية الفضل بن ربيع ، وهو عـربى ، بعض أمور الدولة ، وكانت السيدة زبيدة زوجة الرشيد تؤيده فى ذلك ، بينما كانت الخيزران أمّ الرشـيد تحول دون ذلك . وكان الفضل يظن أن الذى حملها على ذلك انما هو جعفر البرمكى . فلما ماتت الخيزران ولّى الرشيد الفضل ديوان الخاتم وغيره من شئون الدولة ، مما كان فى يد جعفر .

بنات المهدى (علية ، العباسة ، البانوقة) :

اشتهرت من بنات المهدى : علية ، والعباسة ، والبانوقة . أما علية فتروى المصادر التاريخية أنها كانت نموذجا للمرأة فى العصر العباسى ، فقد اهتمت باختيار ملابسها ووسائل الزينة ، وابتكرت بعض نماذج الملابس النسـائية ، ومنها غطاء للرأس يسمى (البرنس) ، رصعته بالجواهر ، وحلّته بسلسلة ذهبية مطعمة بالأحجار الكريمة . وحذت سيدات الطبقة الراقية حذوها .

وكانت نساء تلك الطبقة يعلقن الحجب بزنار البرنس للزينة . أما نساء الطبقة الوسطى فكنّ يزين رءوسهن بحلية مسطحة من الذهب ويلففن حولها عصابة منضدة باللؤلؤ والزمرد ، ويلبسن الخلاخل فى أرجلهن والأساور فى معاصمهن وأزنادهن ، ولم يجهلن فن التجميل الذى أخذنه عن الفارسيات ، وكان (طابع الحسن) الصناعى مما يتحلّى به الأعرابيات [1] .

وتنافست علية بنت المهدى والسيدة زبيدة زوجة هارون الرشيد حول تطوير الأزياء النسائية . فابتكرت زبيدة اتخاذ المناطق والنعال المرصعة بالجواهر . وكانت فوق ذلك تسرف فى شراء ملابسها وتزيينها ، حتى انها اتخذت ثوبا من الوشى الرفيع يزيد ثمنه على خمسين ألف دينار [2] . وتفوقت السيدة زبيدة على عليّة فى أنها تجيد الشعر ، وكثيرا ما كانت تبعث برسائلها الفياضة أبياتا شعرية الى زوجها الرشيد . وكانت علية من أظرف نساء عصرها ، وكانت مجالسها من أبهى مجالس بغداد . وكان المهدى يقرب السيدة زبيدة زوجة ابنه الرشيد ، فقد كانت من نساء بنى هاشم . وأقام المهدى يوم زفافها وليمة لم يسبقه اليها أحد فى العصور السالفة له ، ووهب للناس فى هذا اليوم أوانى الذهب مملوءة بالفضة ، وأوانى الفضة مملوءة بالذهب . وتحلّت زبيدة بالحلى والجواهر ، حتى انها شعرت

---

(١) سيد أمير على : مختصر تاريخ العرب ص ٣٨٩ — ٣٩٠

(٢) المدور : حضارة الاسلام ص ٩٥

بصعوبة المشى لكثرة ما عليها من هذه الحلى . وبلغت نفقات زواج زبيدة ، كما ذكرت هى ، بين ٣٥ و ٧٥ مليون دينار .

أما العباسة ، فقد اشتهر أمرها فى المصادر التاريخية وكتب الأدب ، وأصبحت محورا لكثير من القصص والروايات ، وارتبط تاريخها بنكبة البرامكة .

وتتلخص قصة العباسة ، فى أن هارون الرشيد ، لكلفه بمكانة جعفر بن يحيى البرمكى ، وأخته العباسة ، وحرصه على حضورهما مجلسه ، أذن لهما فى عقد الزواج دون الخلوة ، وأن الرشيد قد غضب على جعفر لعدم تنفيذ هذا الشرط .

ونحن نستبعد أن يكون الرشيد قد شرط هذا الشرط ، لما نعرفه عن اتساع أفق الرشيد ، وفهمه للحياة ، وما نعرفه عن نسب العباسة وحسبها ونسبها ، فهى بنت الخليفة المهدى بنت المنصور ، وهى كما يقول ابن خلدون : « قريبة عهد ببداوة العروبة وسذاجة الدين ، البعيدة عن عوائد الترف ومواقع الفواحش ، فأين يطلب الصون والعفاف اذا ذهب عنها ، أو أين توجد الطهارة والذكاء اذا فقدا من بيتها ، أو كيف تلحم نسبها بجعفر بن يحيى ، وتدنس شرفها العربى بمولى من موالى العجم ؟ ... وكيف يسوغ من الرشيد أن يصهر الى موالى الأعاجم على بعد همته وعظم آبائه ؟ ولو نظر المتأمل فى ذلك نظر المنصف ، وقاس العباسة بابنة ملك من ملوك زمانه ، لاستنكف لها عن مثله مع مولى من موالى دولتها ، وفى سلطان

قومها ، واستنكره ولج في تكذيبه . وأين قدر العباسة والرشيد من الناس ؟! » .

والحقيقة أن الرشيد نكب البرامكة ، لاستئثارهم بالنفوذ والسلطان دونه ، فيقول ابن خلدون : « وانما نكب البرامكة ، لاستئثارهم بالنفوذ والسلطان دونه ، واحتجانهم أموال الجباية ، حتى كان الرشيد يطلب اليسير من المال فلا يصل اليه ، فغلبوه على أمره وشاركوه في سلطانه . ولم يكن له معهم تصرّف في أمور ملكه ، فعظمت آثارهم وبَعد صيتهم ، وعمَّروا مراتب الدولة وخططها بالرؤساء من ولدهم وصنائعهم ، واحتازوها عمن سواهم ، من وزارة وكتابة وقيادة وحجابة وسيف وقلم ، فتوجه الايثار من السلطان اليهم ، وعظمت الدالة منهم ، وانبسط الجاه عندهم ، وانصرفت نحوهم الوجوه وخضعت لهم الرقاب وقصرت عليهم الآمال ، ومدحوا بما لم يمدح به خليفتهم ، وأسنوا لعفاتهم الجوائز والصلات ، واستولوا على القرى والضياع ، من الضواحي والأمصار في سائر الممالك ، حتى آسفوا البطانة وأحقدوا الخاصة ، وأغصّوا أهل الولاية ، فكشفت لهم وجوه المنافسة والحسد ، ودبت الى مهادهم الوثير من الدولة عقارب السعاية » [1] .

أما الابنة الثالثة للمهدى ، فهي البانوقة . وكانت تحب ارتداء ملابس الغلمان ، وتتقلد السيف . روى الطبرى [2] :

---

(١) مقدمة ابن خلدون ص ١٤

(٢) الطبرى جـ ٦ ص ٤٠٥

« وذكر على بن محمد عن أبيه ، قال : قدم المهدى الى البصرة ، فمرّ فى سكة قريش ، وفيها منزلنا ، وكانت الولاة لا تمرّ فيها اذا قدم الوالى ، كانوا يتشاءمون بها ، قلّ وال مرّ فيها فأقام فى ولايته الاّ يسيرا حتى يعزل ، ولم يمرّ فيها خليفة قط الاّ المهدى ، كانوا يمرون فى سكة عبد الرحمن بن سمرة ، وهى تساوى سكة قريش . فرأيت المهدى يسير أمامه فى يده الحربة ، وابنته البانوقة تسير بينه وبين يديه وبين صاحب الشرطة فى هيئة الفتيـــان ، عليها قباء أسود ومنطقة وشاشـــية ، متقلدة السيف ، وانى لأرى ثدييها قد رفعا القباء لنهودهما . وكانت البانوقة سمراء حسنة القد حلوة » .

ماتت البانوقة فى حياة المهدى ، فحزن عليها كثيرا . روى الطبرى [1] : « أظهر عليها المهدى جزعا لم يسمع بمثله ، فجلس للناس يعزونه ، وأمر ألا يحجب عنه أحـــد ، فأكثر الناس فى التعازى واجتهدوا فى البلاغة ، وفى الناس من ينتقد هذا عليهم من أهل العلم والأدب ، فأجمعوا على أنهم لم يسمعوا تعزية أوجز ولا أبلغ من تعزية شبيب بن شيبة ، فانه قال : يا أمير المؤمنين الله خـــير لها منك ، وثواب الله خير لك منها ، وأنا أسأل الله ألا يحزنك ولا يفتنك » .

صفات المهدى وأخلاقه :

تحدثنا فى الفصول السابقة عن جوانب كثيرة من شخصية المهدى . فقد تحدثنا عن المهدى ، المتدين ، العادل ، المصلح ،

(١) المرجع السابق .

العالم ، الشاعر ، راوية الأحاديث ، الكريم ، المتسامح ، السياسى البارع ، القائد الشجاع ، سليل الأسرة العباسية الهاشمية . وتتحدث فى هذا الفصل عن جوانب أخرى من صفات المهدى وأخلاقه :

كان من خلق المهدى : الحياء ، والعفو ، والكرم ، والحلم . وأحبته لذلك رعاياه ، الخاصة والعامة ، فقد افتتح عهده بالنظر فى المظالم ، والكف عن القتل ، وأمّن الخائف ، وأنصف المظلوم ، وبسط يده فى العطاء والمنح ، وردّ الأموال التى صادرها أبوه ، وأطلق سراح المسجونين السياسيين ، وتسامح مع العلويين ، وأصلح مرافق الدولة ، وأمر باعالة الدولة المسجونين والمجذمين ، واهتم بالأماكن المقدسة ، فزاد فى المسجد الحرام ، وسن سنة كسو الكعبة بكسوة جديدة كل عام ، ونزع المقاصير فى صلاة الجماعة ، وصيّر المنابر على قدر منبر الرسول ، وقضى على الزنادقة ، وأقام البريد بين اليمن والحجاز والعراق ، وراقب ولاته ، فساد العدل ، وعمّ الرخاء فى جميع أرجاء الدولة ، وحصّن المدن ، وأصبحت بغداد فى عهده مركزا للتجارة العالمية ، وارتقت فى عصره الفنون والآداب والعلوم [1] .

تحدث الطبرى [2] عن كرم المهدى وحيائه ، فروى هذه القصة : « جلس المهدى ذات يوم يعطى جوائز تقسم بحضرته

---

(١) حسن ابراهيم : تاريخ الاسلام جـ ٢ ص ٤٠

(٢) الطبرى جـ ٦ ص ٣٩٥

فى خاصة أهل بيته والقواد ، وكان يقرأ عليه الأسماء ، فيأمر بالزيادة ، العشرة الآلاف والعشرين الألف ، وما أشبه ذلك . فعرض عليه بعض القواد فقال : يُحط هذا خمسمائة . قال : لم حططتنى يا أمير المؤمنين ؟ قال : لا . قال : فو الذى أكرمك بما أكرمك به من الخلافة لو ثبت لقتلت . فاستحى المهدى منه وقال : زده خمسة آلاف » .

وهذه هى رواية أخرى تثبت ما كان عليه المهدى من حياء : « غضب المهدى على بعض القواد ، وكان عتب عليه غير مرة ، فقال : الى متى تذنب الىّ وأعفو ؟ ! قال : الى أبد نسىء ويبقيك الله فتعفو عنا ! فكررها عليه مرات فاستحى منه ورضى عنه » .

وضرب المهدى أمثلة كثيرة لتسامحه ، وقد مر بنا كيف عفا عن الثوار العلويين ، وهذه قصة أخرى تثبت تسامحه وميله الى العفو عن أعدائه : « وكان رجل من ولد عبد الرحمن بن سمرة أراد الوثوب بالشام ، فحمل الى المهدى ، فخلّى سبيله ، وأكرمه ، وقرّب مجلسه » [1] .

ادّعى رجل النبوة فى عهد المهدى ، فأمر بأن يأتوه به ، فسأله المهدى : أنت نبى ؟ قال : نعم . قال : والى من بُعثت ؟ قال : أتركتمونى أذهب الى من بُعثت اليه وجهت بالغداة

---

(١) الطبرى جـ ٦ ص ٤٠٠

فأخذتمونى بالعشى ووضعتمونى فى الحبس ! فضحك المهدى منه وخلّى سبيله [1] .

وروى المسعودى كثيرا من الروايات عن تســامح المهدى وميله الى العفو عن أعدائه . وهذه هى احدى رواياته ، تتحدث عن عفو المهدى عن سفيان الثورى : « قال القعقاع بن حكيم : كنت عند المهدى ، وأتى سفيان الثورى ، فلما دخل عليه وسلم تسليم العامة ، ولم يسلّم تسليم الخلافة ، والربيع — حاجب المهدى — قائم على رأسه متكىء على سيفه يرقب أمره ، فأقبل المهدى بوجه طلق ، وقال له : يا سفيان ، تفر منا ههنا وههنا ، وتظن أنّا لو أردناك بسوء لم نقدر عليك ، فقد قدرنا عليك الآن ، أفما تخشى أن نحكم فيك بهلوانا ؟ قال سفيان : ان تحكم فى يحكم فيك ملك قادر يفرق بين الحق والباطل . فقال له الربيع · يا أمير المؤمنين ، ألهذا الجاهل أن يستقبلك بمثــل هــذا ؟ ائذن لى أن أضرب عنقه . فقال له : اسكت ويلك ، ما يريد هذا وأمثاله الا أن تقتلهم فنشقى بسعادتهم ، اكتبوا بعهده على قضاء الكوفة ، على أن لا يعترض عليه فى حكم » .

وروى المسعودى [2] أيضا عن تسامح المهدى رواية أخرى ، فقال : « قال الهيثم بن عدىّ : كنت فى مجلس المهدى ، فأتاه الحاجب ، فقال : ابن أبى حفصة بالباب . فقال : لا تأذن له فانه

---

(١) الطبرى جـ ٦ ص ٣٩٨

(٢) مروج الذهب جـ ٣ ص ٣٣٢

منافق كذاب . فكلمه الحسن بن قحطبة فيه ، فأدخله ، فقال له المهدى : يا فاسق ، ألست القائل فى معن [1] :

جبــل تلوذ به نزار كلها صعب الذرى متمنع الأركان

قال : بل أنا الذى أقول فيك يا أمير المؤمنين :

يا ابن الذى ورث النبى محمــدا

دون الأقارب من ذوى الأرحــام

وأنشده الأبيات كلها ، فرضى عنــه وأجازه » . وأصبح مروان بن أبى حفصة فى مقدمة شعراء المهدى المقربين اليه .

وأشاد المؤرخ السيوطى [2] بسماحة أخلاق المهدى ، وروى عنه هذه القصة : « كان المهدى يصلى بنا الصلوات الخمس فى المسجد الجامع بالبصرة لمّا قدمها ، فأقيمت الصلاة يوما ، فقال أعرابى : لست على طهر ، وقد رغبت فى الصلاة خلفك ، فأمر هؤلاء بانتظارى ، فقال : انتظروه ، ودخل المحراب ، فوقف الى أن قيل : قد جاء الرجل . فكبر ، فعجب النــاس من سماحة أخلاقه » .

وكان المهدى واسع الصدر حليما ، لا يغضب ولا يثور ، ويستمع الى شكية الناس مهما كانت ، فدخل على المهدى يوما رجل فقال : يا أمير المؤمنين ان المنصور شتمنى وقذف أمى ، فاما أمرتنى أن أحله ، والا عوضتنى واستغفرت الله له . فقال

---

(1) معن : هو معن بن زائدة الشيبانى أحد رجالات العصر الأموى ، وقد دافع عن المنصور ضد الزنادقة فعفا المنصور عنه وكافأه بأن ولاه حكم اليمن .

(2) السيوطى : تاريخ الخلفاء ص ٢٧٧

المهدى : ولم شتمك ؟ قال : شتمت عدوه بحضرته فغضب . قال : ومن عدوه الذى غضب لشتمه ؟ قال : ابراهيم بن عبد الله ابن حسن . فقال المهدى : ان ابراهيم أمسّ به رحما وأوجب عليه حقا ، فان كان شتمك كما زعمت فعن رحمه ذبّ وعن عرضه دفع ، وما أساء من انتصر لابن عمه . فقال الرجل : انه كان عدوا له ! فقال المهدى : فلم ينتصر للعداوة ، وانما انتصر للرحم . فسكت الرجل ، وتأهب للانصراف من مجلس المهدى ، فقال له المهدى : لعلك أردت أمرا فلم تجد ذريعة عندك أبلغ من هذه الدعوة . فقال الرجل : نعم . فتبسم المهدى وأمر له بخمسة آلاف درهم [1] .

وصام النـاس فى عهد المهدى شهر رمضـان فى صميم الصيف ، وكان الشاعر أبو دلامة اذ ذلك يطالب بجائزة وعدها اياه المهدى . فكتب الى المهدى رقعة يشكو اليه فيها ما لقى من الحر والصوم ، فقال فى ذلك :

أدعوك بالرَّحم التى جمعت لنـا
فى القرب بين قريبنـا والأبعـد
ألا سمعت وأنت أكرم مَنْ مشى
من منشـدٍ يرجو جزاء المنشـد
حلَّ الصـيام فصـمته متعبِّدا
أرجو ثواب الصـائم المتعبِّـد

---

(١) الطبرى ج ٦ ص ٣٩٨

وسجدت حتى جبهتى مشجوجة

مما أكلف من نطاح المسـجد

فلما قرأ المهدي الرقعة دعا به ، فقال له المهدى : أى قرابة بينى وبينك يا ابن اللخنـاء ؟ ! قال : رحم الله آدم وحواء . فضحك المهدى وأمر له بجائزة[1] .

وكان المهدى يهتم بشئون رعاياه ، فتشبه بالخليفة عمر بن الخطاب ، فكان يخرج فى الليل يطوف الطـرقات ليطلع على أحوال الرعية . وفى رحلة الى الحجاز ، خرج يطوف طرقات مكة فى هدأة من الليل ، فسمع أعرابية من جانب المسجد وهى تقول : قومى مقترون ، نبت عنهم العيون وفدحتهم الديون وعضتهم السنون ، بادت رجالهم ، وذهبت أموالهم ، وكثر عيالهم ، أبناء سبيل ، وانضاء طريق وصية الله ووصية الرسول ، فهل من آمر لى بخير كلأه الله فى سفره وخلفه فى أهله ؟ ! فأمر المهدى خادمه نصيرا فدفع اليها خمسمائة درهم[2] .

وكان المهدى يعود المرضى ويحسن الى الفقـراء . مرض أبو عون عبد الملك بن يزيد ، فعاده المهدى « فاذا منزل رث ، وبناء سوء ، واذا طاق صنعته التى هو فيها لبن ، واذا مضربة ناعمة فى مجلسه . فجلس المهدى على وسادة وجلس أبو عون بين يديه . فبره المهدى وتوجع لعلته . وقال أبو عون : أرجو عافية الله يا أمير المؤمنين ، وألا يميتنى على فراشى ، حتى أقتل

(١) الطبرى جـ ٦ ص ٤٠٣

(٢) الطبرى جـ ٦ ص ٤٠٠

فى طاعتك ، وانى لواثق بأن لا أموت حتى أبلى الله فى طاعتك ما هو أهله ، فانا قد رُوينا ورَوينا . فأظهر له المهدى رأيا جميلا وقال : أوصنى بحاجتك وسلنى ما أردت واحتكم فى حياتك ومماتك ، فوالله لئن عجز مالك عن شىء توصى به لاحتملته كائنا ما كان فقل وأوص . فشكر أبو عون ، ودعا وقال : يا أمير المؤمنين حاجتى أن ترضى عن عبد الله بن أبى عون وتدعو به فقد طالت موجدتك عليه . فقال المهدى : يا أبا عون انه على غير الطريق وعلى خلاف رأينا ورأيك ، انه يقع فى الشيخين أبى بكر وعمر ويسىء القول فيهما . فقال أبو عون : هو والله يا أمير المؤمنين على الأمر الذى خرجنا عليه ودعونا اليه ، فان كان قد بدا لكم فمرونا بما أحببتم حتى نطيعكم . فانصرف المهدى ، فلما كان فى الطريق قال لبعض من كان معه من ولده وأهله : ما لكم لا تكونون مثل أبى عون والله ما كنت أظن منزله الا مبنيا بالذهب والفضة ، وأنتم اذا وجدتم درهما بنيتم بالساج والذهب ![1] .

كما كان المهدى متواضعا يميل الى البساطة . فقد روى المسعودى [2] : « خرج المهدى متنزها ومعه عمرو بن ربيع مولاه ، وكان شاعره ، فانقطع عن العسكر ، والناس فى الصيد ، وأصاب المهدى جوع شديد . فقال لعمرو : ويحك ، ارتد لى انسانا نجد عنده ما نأكل ، فما زال عمرو يطوف الى أن وجد

(١) الطبرى جـ ٦ ص ٤٠١
(٢) مروج الذهب جـ ٢ ص ٣٢٠

صاحب مبقلة والى جانبها كوخ له ، فصعد اليه ، فقال له : هل عندك شيء يؤكل ؟ قال : نعم ، رقاق من خبز شعير ورثيئة [1] ، وهذا البقل والكراث . فقال له المهدى : ان كان عندك زيت فقد أكملت . قال : نعم ، عندى فضلة منه . فقدّم اليهما ذلك ، فأكلا أكلا كثيراً ، وأمعن المهدى حتى لم يبق منه فضل . فقال لعمرو : قل شعرا تصف به ما نحن فيه ، فقال عمرو :

ان من يطعم الرثيئة بالزيـ ـت وخبز الشعير بالكراث
لحقيق بصفعة أو بثنتيـ ـن لسوء الصنيع أو بثلاث

فقال المهدى : بئس والله ما قلت ، ولكن أحسن من ذلك :

لحقيق ببدرة أو بثنتيـ ـن لحسن الصنيع أو بثلاث

ووافى العسكر ، ولحقته بالخزائن والخدم والموكب ، فأمر لصاحب المبقلة بثلاث بدر دراهم » .

وروى المسعودى [2] أيضا قصة طريفة عن المهدى وشريك القاضى ، فقال : « دخل شريك القاضى على المهدى يوما ، فقال له : لا بد أن تجيبنى الى خصلة من ثلاث خصال . قال : وما هن يا أمير المؤمنين ؟ قال : امّا أن تلى القضاء ، أو تحدّث ولدى وتعلمهم ، أو تأكل عندى أكلة . ففكر ثم قال : الأكلة أخفهن على نفسى . فاحتبسه وقدم الى الطباخ أن يصلح له ألوانا من المخ المعقود بالسكر الطبرزد والعسل . فلما فرغ من غذائه ، قال له القيّم على المطبخ : يا أمير المؤمنين ليس يفلح الشيخ بعد

---

(١) الرثيئة : اللبن الحامض يخلط بالسكر .
(٢) مروج الذهب جـ ٢ ص ٣٢٢

هذه الأكلة أبدا . قال الفضل بن الربيع : فحدثهم والله شريك بعد ذلك ، وعلّم أولادهم ، وولى القضاء لهم » .

ولوع المهدى بالصيد :

كان الصيد رياضة المهدى المفضلة . وقد حرص على القيام برحلات صيد منظمة ، يصحبه فرسان يتقلدون السيوف ، ويتبعهم طائفة من الجند والغلمان . وكان الخليفة يسير محاذيا لنهر دجلة ارتيادا للخضرة التى تجنح اليها الطيور وتسرح فيها الغزلان [1] .

واهتم المهدى باعداد العدة للصيد ، وقلّده فى ذلك ولاته وعمّاله ، حتى انهم أخذوا يصنعون نصال سهامهم من الذهب ، كما عنوا باستخدام الصقر والباز فى الصيد ، وعنوا بتربية الكلاب السريعة العدو ، ووكلوا بكل كلب شخصا يقوم بتربيته وتدريبه . وقد رمى الخليفة المهدى غزالا بسهم فأصابه . وكان ابن عمه على بن سليمان قد اتخذ هذا الغزال هدفا ، ولكنه لم يصبه وأصاب كلبا فصرعه ، فقال فى ذلك أبو دلامة الشاعر :

قد رمى المهدى ظبيا شك بالسهم فؤاده
وعلىٌّ بن سليما ن رمى كلبا فصاده
فهنيئا لهما كل امر ىء يأكل زاده

تحدث (المدور) فى كتابه (حضارة الاسلام فى دار

---

(١) حسن ابراهيم : تاريخ الاسلام جـ ٢ ص ٣٢٤

الاسلام) [1] ، عن ولوع المهدى بالصيد ، فقال : تجد فيما أنا ذاكر لك عن المهدى أنه يجمع الى خلافة الأمة أبَّهة الملك ، وهما أمران لم يجتمعا فى خليفة غيره ، وربما التمس الطيبات فى هذه الأبهة والتأنق فى فنون المعيشة الى الغاية التى لم يبلغها ملوك بنى أمية من قبله ، فاذا جلس الى الندماء أحب أن يمتّع نفسه بلذة أحاديثهم ، واشارتهم دون ستارة تحجبهم عن نظره ، واذا خرج الى الصيد ركب فى المواكب العظيمة المزينة ، وربما كان ذلك من أحب الأشياء اليه

وليس الصيد من الملاهى التى تعاب على الملوك الا متى أفرطوا فيه ، وكانوا أقرب الى الأشر منهم الى النزهة والرياضة ، كما نعلم عن صبية الأمويين الذين أجلوا أهل الزراعة من حولهم لتحطيمهم زرعهم فى طلب الصيد . وهذا بعيد عن المهدى ، وانما هو كلف به من غير افراط به . فقد كان من بين الأمراء من يتأنق أكثر منه فى اتخاذ العدة للصيد ، حتى أنهم صنعوا نصال سهام من الذهب ، كما ورد عن بعضهم فى كلام الشعراء :

ومن جوده يرمى العداة بأسهم
من الذهب الابريز صيغ نصالها
لينفقها المجروح عند انقطاعه
ويشترى الأكفان منها قتيلها

---

(١) ص ٧٩ — ٨٠

وهذه مباهاة لا ينظر اليها الخليفة من مزاولة القنص ، وانما عنى باتخاذ الصقور والبيزان وتربية الكلاب التى تسبق الظليم فى عدوها ، يلبسها أطواقا من ذهب ، ويوكل بكل كلب عبدا يخدمه ، كما يفعل كثير من الأمراء ، وأهل النعمة فى تربيتها للتحريض على الصيد ، اذ كان لا ينهى الشرع عن اتخاذها الا فيما كان لغير الصيد والحراسة . وأما البيزان والصقور فانه لم يسبق الى اتخاذها ، بل كانت معروفة عند العرب من ملوك كنـــده .

وفاة المهدى :

حكم المهدى عشر سنين وخمسة عشر يوما ، ثم خبا نور ذلك النجم الساطع الذى ملأ الآفاق عدلا واصلاحا وتسامحا . ومات المهدى فى ريعان شبابه ، وعمره ثلاث وأربعون سنة . تولى المهدى الخلافة يوم السبت لست خلون من ذى الحجة سنة ١٥٨ هـ . ومات ليلة الخميس لســبع بقين من المحــرم سنة ١٦٩ هـ [1] .

اختلف المؤرخون فى سبب وفاته ، ورووا روايات مختلفة ، تدور حول موته مسموما ، أو فى حادث خلال رحلة صيد بعد اصطدام رأسه فى باب خربة .

وان كنا نؤيد الروايات التى تذهب الى وفاة المهدى خلال رحلة له للصيد ، الا أننا لا نجد بأسا فى أن نعرض الروايات

---

(١) المسعودى : مروج الذهب جـ ٣ ص ٣١٩

التى تدور حول موت المهدى مسموما ، وكان ذلك مصادفة فقد كان المقصود به احدى جواريه ، نتيجة منافسة بين الجوارى حول الفوز بالتقرب الى الخليفة .

روى الطبرى [1] قصة حول وضع جارية تدعى (حسنة) السم فى الكمثرى لتأكل جارية أخرى كان المهدى يقربها اليه ، مما جعل حسنة تشعر بالغيرة ، ولكن القدر جعل المهدى يأكل الكمثرى المسمومة بدلا من الجارية . قال الطبرى : « ان المهدى كان جالسا فى عـليَّة فى قصر بماسبذان يشرف من منظرة فيها على سفله ، وكانت جاريته حسـنة قد عمدت الى كمثراتين كبيرتين ، فجعلتهما فى صينية ، وسمَّت واحدة منهما ، وهى أحسنهما وأنضجهما ، فى أسفلها وردت القمع فيها ، ووضعتها فى أعلى الصينية . وكان المهدى يعجبه الكمثرى ، وأرسلت بذلك مع وصيفة لها الى جارية للمهدى وكان يتحظاها تريد بذلك قتلها ، فمرَّت الوصيفة بالصينية التى فيها تلك الكمثرى ، تريد دفعها الى الجارية التى أرسلتها حسنة اليها ، بحيث يراها المهدى من المنظرة ، فلما رآها ورأى معها الكمثرى ، دعا بها ، فمدَّ يده الى الكمثراة التى فى أعلى الصينية ، وهى المسمومة ، فأكلها ، فلما وصلت الى جوفه ، صرخ : جوفى ! وسمعت حسنة الصوت ، وأخبرت الخبر ، فجـاءت تلطم وجههـا ، وتبكى وتقول : أردت أن أنفرد بك فقتلتك يا سـيدى ! فهلك من يومه » .

---

(١) الطبرى جـ ٦ ص ٣٩٣

كما روى الطبرى [1] رواية أخرى عن موت المهدى : « ذكر عبد الله بن اسماعيل صاحب المراكب قال : لمّا صرنا الى ماسبذان دنوت الى عنانه ، فأمسكت به ، وما به علّة ، فوالله ما أصبح الا ميتا ، فرأيت حسنة وقد رجعت ، وان على قبتها المسوح ، فقال أبو العتاهية فى ذلك :

رُحْن فى الوشى وأصبحـ ـن عليهن المسوح
كل نطاح من الدهـ ـر له يوم نطوح
لست بالباقى ولو عـُ ـمِّرت ما عُمِّر نوح
فعلى نفسك نُح ان كنت لا بد تنوح

أما رواية الطبرى [2] عن موت المهدى خلال رحلة صيد ، فقد رواها واضح قهرمان المهدى ، وهى : « خرج المهدى يتصيَّد بقرية يقال لها الرذ بماسبذان ، فلم أزل معه الى بعد العصر ، وانصرفت الى مضربى ، وكان بعيدا عن مضربه . فلما كان فى السحر الأكبر ، ركبت لاقامة الوظائف ، فانى لأسير فى برية ، وقد انفردت عمن كان معى من غلمانى وأصحابى ، اذ لقينى أسود عريان على قتود رحل ، فدنا منى ، ثم قال لى : أبا سهل ، عظم الله أجرك فى مولاك أمير المؤمنين . فهممت أن أعلوه بالسوط ، فغاب من بين يدىّ ، فلما انتهيت الى الرواق ، لقينى مسرور ، فقال لى : أبا سهل عظم الله أجرك فى مولاك أمير المؤمنين . فدخلت فاذا أنا به مسجًّى فى قبة . فقلت : فارقتكم

(1) الطبرى ج ٦ ص ٣٣٩
(2) الطبرى ج ٦ ص ٣٩٢

بعد صلاة العصر وهو أسرّ ما كان حالا وأصحّه بدنا ، فما كان الخبر ؟ ! قال : طردت الكلاب ظبيا ، فلم يزل يتبعهـا فاقتحم الظبى باب خربة ، فاقتحمت الكلاب خلفه ، واقتحم الفـرس خلف الكلاب ، فدقّ ظهره فى باب الخربة ، فمات من ساعته ! ».

وروى المسعودى [1] أن المهدى شعر فى أيامه الأخيرة أنه مفارق للحياة ، بعد حلم رآه فى نومه ، فروى : « قال على بن يقطين : كنا مع المهدى بماسبذان ، فقال لى يوما ، أصبحت جائعا فأتنى بأرغفة ولحم بارد . ففعلت ، فأكل ثم دخل البهو ونام ، وكنا نحن فى الرواق ، فانتبهنا لبكائه ، فبادرنا اليه مسرعين ، فقال : أما رأيتم ما رأيت ؟ قلنا : ما رأينا شيئا . قال : وقف علىّ رجل لو كان فى ألف رجل ما خفى علىّ صوته ولا صورته ، فقـال :

كأنّى بهـذا القصر قد باد أهله
وأوحش منـه ربعه ومنـازله
وصار عميـد القوم من بعد بهجة
وملك الى قبر عليه جنـادله
فلم يبق الاّ ذكره وحديثـه
تنـادى عليه معـولات جلائله

قال علىّ : فما أتت على المهدى بعد رؤياه الا عشرة أيام حتى توفى » .

---

(١) مروج الذهب جـ ٣ ص ٣٣٢

كانت وفاة المهدى ــ كما روى الطبرى ــ فى قرية من قرى ماسبذان يقال لها الرذ ، وصلّى عليه ابنه هارون ولم توجد له جنازة يُحمل عليها ، فحمل على باب ، ودفن تحت شجرة جوز كان يجلس تحتها »[1] .

ورثاه الشاعر بكار بن رباح بهذين البيتين :

ألا رحمةُ الرحمن فى كلّ ساعة
على رمّة رمّتْ بماسبذان
لقد غيّب القبر الذى ثم سُودَدا
وكفّين بالمعروف تبتدران

وكان هارون الرشيد مصاحبا أبيه فى رحلته هذه الى ماسبذان ، بينما كان ابنه وولى عهده موسى الهادى فى جرجان يحارب أهل طبرستان ، وكان الربيع بن يونس الحاجب نائبا عن الخليفة المهدى فى بغداد .

وبعد وفاة المهدى ، تقدم القواد وموالى الخليفة الى هارون فقالوا له : ان علم الجند بوفاة المهدى لم تأمن الشغب ، والرأى أن يحمل وتنادى فى الجند بالقفل حتى تواريه ببغداد . واستدعى هارون يحيى بن خالد البرمكى ، ليستشيره فيما نصحه به هؤلاء القواد الموالى ، وقال له : يا أبت ما تقول ؟ فقال يحيى : ما أرى ذلك . فسأله هارون : ولِمَ ؟ فأجاب يحيى : لأن هذا ما لم يخفَ ، ولا آمن اذا علم الجند أن يتعلقوا بمحمله ويقولوا

---

(١) الطبرى جـ ٦ ص ٣٩٤

لا نخليه حتّى نعطى لثلاث سنين وأكثر ، ويتحكموا ويشتطوا ، ولكن أرى أن يوارى ، رحمه الله ، ههنا ، وتوجّه نُصيراً الى أمير المؤمنين الهادى بالخاتم والقضيب والتهنئة والتعزية ، فان البريد الى نصير فلا ينكر خروجه أحدا ، اذ كان على بريد الناحية ، وأن تأمر لمن معك من الجند بجوائز مائتين مائتين ، وتنادى فيهم بالقفول ، فانهم اذا قبضوا الدراهم لم تكن لهم همة سوى أهاليهم وأوطانهم ، ولا عرجة على شيء دون بغداد .

واستجاب الرشيد الى نصيحة يحيى بن خالد البرمكى . ولمّا وصل الجند الى بغداد « ساروا الى باب الربيع فأحرقوه ، وطالبوا بالأرزاق وضجوا . وقدم هارون بغداد ، فبعثت الخيزران الى الربيع ، والى يحيى بن خالد ، تشاورهما فى ذلك . فأما الربيع فدخل عليها . وأما يحيى فلم يفعل ذلك ، لعلمه بشدة غيرة موسى . وجمعت الأموال حتى أعطى الجند لسنتين ، فسكتوا . وبلغ الخبر الهادى ، فكتب الى الربيع كتابا يتوعده فيه بالقتل ، وكتب الى يحيى بن خالد يجزيه الخير ، ويأمره أن يقوم من أمر هارون بما لم يزل يقوم به ، وأن يتولى أموره وأعماله على ما لم يزل يتولاه » [١] .

ورحل نصير ، صاحب البريد ، كما أمره هارون الرشيد من ماسبذان ، بعد وفاة المهدى ، الى جرجان ، حيث كان يقيم موسى الهادى ، الخليفة الجديد . فأعلمه بوفاة المهدى ،

---

(١) الطبرى ج ٦ ص ٤٠٦ ــ ٤٠٧

والبيعة له بالخلافة ، فعاد الهادى من فوره الى بغداد . وعلى أبواب بغداد ، استقبله وجوه بنى هاشم وكبار رجال الدولة ، وفى مقدمتهم الربيع بن يونس ، الذى شرح للخليفة الجديد حقيقة الموقف ، فقبل عـذره ، وولاه الوزارة . وكان قدوم الهادى الى بغـداد بعد عشرين يوما من وفاة أبيه المهدى ، فوصلها لعشر بقين من صفر من سنة ١٦٩ هـ ، ونزل قصر الخلد فأقام به شهرا ، ثم انتقل الى بستان أبى جعفر ، ثم الى قصر عيساباذ الذى أنشأه أبو المهدى [1] .

وصف الطبرى [2] ملامح المهدى فقال : « وكان طويلا مصسمر الخلق جعدا ، واختلف فى لونه ، فقال بعضهم كان أسمر ، وقال بعضهم كان أبيض ، وكان فى عينه اليمنى فى قول بعضهم نكتة بياض ، وقال بعضـهم كان ذلك بعينه اليسرى ، وكان ولد بايذج » .

---

(١) الطبرى جـ ٦ ص ٤٠٨

(٢) الطبرى جـ ٦ ص ٣٩٤

المصـــادر

ابراهيم العدوى : الدكتور : الدولة الاسلامية وامبراطورية الروم (القاهرة ١٩٥٨) .

ابن الأثير : الكامل فى التاريخ (بولاق ١٢٧٤ هـ) .

أحمد امين : فجر الاسلام (القاهرة ، الطبعة السابعة) .

ضحى الاسلام ، ٣ أجزاء ، (القاهرة ١٩٥٦) .

ارنولد : الدعوة الى الاســلام ، ترجمــة الدكتور حسن ابراهيم وآخرين (القاهرة ١٩٤٧) .

الخلافة ، ترجمة جميل معلى (دار اليقظة العربية ١٩٤٦) .

الأصفهانى : الأغانى (القاهرة ١٢٨٥ هـ) .

امير على : سيد : مختصر تاريخ العرب والتمدن الاسلامى ، ترجمة رياض رأفت (القاهرة ١٩٣٨) .

امين زكى : كتاب عمران بغداد (بغداد) .

الألوسى : محمود شكرى : بلوغ الأرب فى أحوال العــرب (المطبعة الرحمانية ١٩٢٤) .

بارتولد : تاريخ الحضارة الاسلامية : ترجمة حمزة طاهر (الطبعة الثانية القاهرة) .

بالمر : Haroun el-Raschid (London, 1881)

براون : A Literary History of Persia (London, 1909)

بروكلمان : تاريخ الشعوب الاسلامية ، ترجمة نبيه امين فارس ومنير بعلبكى (بيروت ١٩٤٨) .

البغدادى : الفرق بين الفرق (القاهرة ١٣٢٨ هـ) .

البلاذرى : فتوح البلدان (مطبعة الموسوعات القاهرة ١٩٠١) .

البيرونى : الآثار الباقية عن القرون الخالية (ليبزج) .

الجاحظ : كتاب التاج فى أخلاق الملوك (القاهرة ١٣٣٢ هـ) .
كتاب المحاسن والأضداد (مطبعة السعادة ١٣٢٤ هـ) .
البيان والتبيين (مطبعة الفتوح ، القاهرة ١٣٣٢ هـ) .
الجهشيارى : كتاب الوزراء والكتاب (مطبعة الحلبى بالقاهرة ١٩٣٨) .
جولدتسيهر : العقيدة والشريعة فى الاسلام ترجمة على حسن عبد القادر وآخرين (القاهرة ١٩٤٦) .
جوزى : من تاريخ الحركات الفكرية فى الاسلام (القدس ١٩٢٨) .
جورجى زيدان : تاريخ التمدن الاسلامى (الطبعة الثانية ـ القاهرة)
ابن حتى : الدكتور فيليب : تاريخ العرب ، ترجمة مبروك نافع (القاهرة ١٩٥٣) .
ابن حزم : الفصل فى الملل والأهواء والنحل (المطبعة الأدبية ١٣١٧ هـ) .
حسن ابراهيم حسن : الدكتور : تاريخ الاسلام ، الجزء الثانى (القاهرة ـ الطبعة الأولى) .
النظم الاسلامية ، بالاشتراك مع الدكتور على ابراهيم حسن (الطبعة الأولى) .
الخضرى : محمد : تاريخ الأمم الاسلامية ، الجزء الثانى (تاريخ الدولة العباسية ، (القاهرة) .
الخطيب البغدادى : تاريخ بغداد أو مدينة السلام (القاهرة ١٣٤٩ هـ) .
ابن خلدون : مقدمة ابن خلدون (بيروت ١٨٨٦) .
ابن خلكان : وفيات الأعيان (بولاق ١٢٨٣ هـ) .
خودابخش : صلاح الدين : الحضارة الاسلامية ، ترجمة الدكتور على حسنى الخربوطلى (الحلبى ، القاهرة ١٩٦٠) .
دوزى : نظرات فى الاسلام ، ترجمة كامل كيلانى (الحلبى ١٩٣٣)

الدينورى : الأخبار الطوال (ليدن ١٨٨٨) .
ديمومبين : النظم الاسلامية : ترجمة صالح الشماع وفيصل السامر (بغداد ١٩٥٢) .
ابن رستة : الأعلاق النفيسة (ليدن ١٨٩١) .
لى سترينج : Baghdad During Abbasid Caliphate (Oxford, 1942).
سيدة اسماعيل كاشف : الدكتورة : مصر فى عصر الولاة (القاهرة)
السيوطى : تاريخ الخلفاء أمراء المؤمنين القائمين بالأمة (المطبعة التجارية ، القاهرة ١٩٥٢) .
الشهرستانى : الملل والنحل (القاهرة ١٩٤٨) .
ابن طباطبا : الفخرى فى الآداب السلطانية والدول الاسلامية (مطبعة الموسوعات ١٣١٧ هـ) .
الطبرى : تاريخ الأمم والملوك (المطبعة التجارية بالقاهرة ١٩٤٩)
ابن عبد ربه : العقد الفريد (لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٩٤٨)
عبد العزيز الدورى : الدكتور : مقدمة فى تاريخ صدر الاسلام (بغداد ١٩٤٩) .
على حسنى الخربوطلى : الدكتور : فجر القومية العربية فى القرن الأول الهجرى (القاهرة ١٩٥٨) .
تاريخ العراق فى ظل الحكم الأموى (دار المعارف القاهرة ١٩٥٩) .
القومية العربية من الفجر الى الظهر (الحلبى بالقاهرة ١٩٥٩)
محمد والقومية العربية (مؤسسة المطبوعات الحديثة ١٩٦٠)
المجتمع العربى (مؤسسة المطبوعات الحديثة ١٩٦٠) .
الدولة العربية الاسلامية (الحلبى بالقاهرة ١٩٦٠)
حياة محمد (ترجمة لكتاب واشنجتون ارفنج) دار المعارف (القاهرة ١٩٦٠) .

الحضارة الاسلامية ، ترجمة لكتاب خودابخش (الحلبى ، القاهرة ١٩٦٠) .
المجتمع العربى فى العصور الوسطى ، ترجمة لكتاب ا.و.لين (القاهرة ١٩٥٩) .
الحضارة العربية الاسلامية (مطبعة الأنجلو ـ القاهرة ١٩٦٢)
المختار الثقفى (سلسلة أعلام العرب ١٩٦٣) .
مصر العربية الاسلامية (مطبعة الأنجلو ـ القاهرة ١٩٦٣) .
البحر المتوسط بحيرة عربية (سلسلة اقرأ ١٩٦٣) .
العرب ورسالتهم الانسانية (سلسلة اقرأ ١٩٦١) .
غروب الخلافة الاسلامية (مؤسسة المطبوعات الحديثة ، القاهرة ١٩٦٢) .
العرب واليهود فى العصر الاسلامى (سلسلة كتب قومية ١٩٦٣) .
العرب فى أوروبا (سلسلة المكتبة الثقافية ١٩٦٥) .
عبد الله بن الزبير (سلسلة أعلام العرب ١٩٦٥) .
عبد المطلب جد الرسول (سلسلة اقرأ ١٩٦٦) .
ملكية الأراضى فى الدولة العربية الاسلامية (بحث فى مجلة جامعة عين شمس) .
المسجد فى فجر الاسلام (بحث فى مجلة جامعة عين شمس)
المجوس والمجوسية (بحث فى مجلة جامعة عين شمس) .
مقالات متنوعة فى مجلة منبر الاسلام .
العمرى : مسالك الأبصار فى الممالك والأمصار (دار الكتب المصرية ١٩٢٤) .
أبو الفدا : المختصر فى أخبار البشر (المطبعة الحسينية بالقاهرة) .
فان فلوتن : السيادة العربية والشيعة والاسرائيليات فى عهد بنى امية ، ترجمة الدكتور حسن ابراهيم حسن وزكى ابراهيم (القاهرة ١٩٣٤) .

ابن قتيبة : الامامة والسياسة (القاهرة ١٣٢٥ هـ) .
المعارف (المطبعة الاسلامية ١٩٣٥) .
عيون الأخبار (دار الكتب المصرية ١٩٢٥) .
القلقشندى : صبح الأعشى فى صناعة الانشا (القاهرة ١٩١٣ — ١٩١٧) .
ابن كثير : البداية والنهاية (مطبعة السعادة ، القاهرة) .
كريمر : الحضارة الاسلامية ومدى تأثرها بالمؤثرات الأجنبية ، ترجمة الدكتور طه بدر (مطبعة الفكر العربى بالقاهرة) .
لوبون : حضارة العرب ، ترجمة عادل زعيتر (الحلبى ١٩٤٨)
المسعودى : مروج الذهب ومعادن الجوهر (مطبعة دار الرجاء بالقاهرة) .
التنبيه والاشراف (مكتبة الشرق الاسلامية ١٩٣٨)
المقدسى : أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم (ليدن ١٩٠٦)
المقرى : نفح الطيب فى غصن الأندلس الرطيب (بولاق ١٢٧٩ هـ)
المدور : جميل نخلة : حضارة الاسلام فى دار الاسلام (القاهرة ١٣٥١ هـ) .
ميور : **The Caliphate (Edinburgh, 1924)**
ابن النديم : الفهرست (المطبعة الرحمانية ، القاهرة ١٣٤٨ هـ)
النويرى : نهاية الأرب فى فنون الأدب (دار الكتب المصرية ١٩٣١)
نيكلسون : **Literary History of the Arabs (Cambridge, 1930)**
هل : جوزيف : الحضارة العربية ، ترجمة الدكتور ابراهيم العدوى (القاهرة ، سلسلة ألف كتاب) .
ياقوت : معجم البلدان (القاهرة ١٣٢٥ هـ) .
اليعقوبى : تاريخ اليعقوبى (ليدن ١٨٨٣) .
كتاب البلدان (ليدن ١٨٩٢) .
أبو يوسف : كتاب الخراج (المطبعة الأميرية ١٣٠٢ هـ) .



صفحة

صفحة

صفحة

أعلام العرب

تصدرها الدار المصرية للتأليف والترجمة

توزيع مكتبة مصر ـ ٣ شارع كامل صدقى

تظهر تباعاً كل يوم ٧ من كل شهر

ظهر منها :

١	ـ محمد عبده	الأستاذ عباس محمود العقاد
٢	ـ المعتمد بن عباد . . .	الأستاذ على ادهم
٣	ـ جابر بن حيان	الدكتور زكى نجيب محمود
٤	ـ عبد الرحمن بن خلدون .	الدكتور على عبد الواحد وافى
٥	ـ ابن تيميـــة	الدكتور محمد يوسف موسى
٦	ـ معـاوية	الأستاذ ابراهيم الابيارى
٧	ـ سيد درويش	الدكتور محمود احمد الحفنى
٨	ـ عبد القاهر الجرجانى . .	الدكتور احمد احمد بدوى
٩	ـ عبد الله النديم . . .	الدكتور على الحديدى
١٠	ـ عبد الملك بن مروان . .	الدكتور ضياء الدين الريس
١١	ـ مالك	الأستاذ امين الخولى
١٢	ـ القلقشندى	الدكتور عبد اللطيف حمزة
١٣	ـ الطبرى	الدكتور احمد محمد الحوفى
١٤	ـ الظاهر بيبرس . . .	الدكتور سعيد عبد الفتاح عاشور
١٥	ـ ابن الفارض	الدكتور محمد مصطفى حلمى

١٦ ـ المختـــار الثقفى	الدكتور على حسنى الخربوطلى
١٧ ـ الوليد بن عبد الملك . . .	الأستاذ احمد الشرباصى
١٨ ـ الاصمعى	الدكتور احمد كمال زكى
١٩ ـ زكريا احمد	الاستاذ صبرى ابو المجد
٢٠ ـ قاسم امين	الدكتور ماهر حسن فهمى
٢١ ـ شكيب ارسلان	الدكتورة سيدة اسماعيل الكاشف
٢٢ ـ ابن قتيبة	الدكتور عبد الحميد سند الجندى
٢٣ ـ ابو هـريرة	الاستاذ محمد عجاج الخطيب
٢٤ ـ عبد العزيز البشرى . . .	الدكتور جمال الدين الرمادى
٢٥ ـ الخنساء	الدكتور محمد جابر عبد العال الحينى
٢٦ ـ الصاحب بن عباد	الدكتور بدوى طبانة
٢٨ ـ الناصر محمد بن قلاوون .	الدكتور محمد عبد العزيز مرزوق
٢٩ ـ احمـد زكى	الاستاذ أنور الجندى
٣٠ ـ حسان بن ثابت	الدكتور سيد حنفى حسنين
٣١ ـ المثنى بن حارثة الشيبانى .	العقيد محمد فرج
٣٢ ـ مظفر الدين كوكبورى . .	الاستاذ عبد القادر احمد طليمات
٣٣ ـ رشيد رضا الامام المجاهد .	الدكتور ابراهيم احمد العدوى
٣٤ ـ اسحاق الموصلى	الدكتور محمود احمد الحفنى
٣٥ ـ ابو حيان التوحيدى . .	الدكتور زكريا ابراهيم
٣٦ ـ ابن المعتز العباسى . . .	الدكتور احمد كمال زكى
٣٧ ـ الزهاوى	الدكتور ماهر حسن فهمى
٣٨ ـ ابو العلاء المعرى	الدكتورة عائشة عبد الرحمن
٣٩ ـ احمد لطفى السيد . . .	الدكتور حسين فوزى النجار
٤٠ ـ الجـويلى	الدكتورة فوقية حسين حمود
٤١ ـ الناصر صلاح الدين . . .	الدكتور سعيد عبد الفتاح عاشور
٤٢ ـ عبد الله فكرى	الاستاذ محمد عبد الغنى حسن
٤٣ ـ عبد الله بن الزبير	الدكتور على حسنى الخربوطلى
٤٤ ـ عبد العزيز جاويش . . .	الاستاذ أنور الجندى

٤٥ ـ ابن رشيق . . . . الأستاذ عبد الرءوف مخلوف

٤٦ ـ محمد بن عبد الملك الزيات . الأستاذ محمود الهجرسى

٤٧ ـ حفنى ناصف . . . . الأستاذ محمود غنيم

٤٨ ـ أحمد بن طولون . . . للدكتورة سيدة اسماعيل كاشف

٤٩ ـ محمود حمدى الفلكى . للأستاذ أحمد سعيد الدمرداش

٥٠ ـ أحمد فارس الشدياق . للأستاذ محمد عبد الغنى حسن

دار مصر للطباعة

٣٧ شارع كامل صدقى